



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر  
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com  
www.Ghaemiyeh.org  
www.Ghaemiyeh.net  
www.Ghaemiyeh.ir

# مِيقَاتُ الْحَجِّ

تعدادیست سكونية فتن والشؤون الفقهية  
والشريعة والاسكان والاحتيايات الشرعية والحج



٢٦

رجب - ذوالحججة  
١٤٢٧ هـ  
العدد ١٣

- الرسول الرحمة والرحمة لمراداً • إيمان أجداد الرسول ﷺ
- قراءة في حجة الوداع - • حجة الفعل النبوي
- معجزة النبي في كونه قارئاً أو كاتباً
- سيرة المصطفى ﷺ
- حجة القضاء
- مشاهد البعثة النبوية الشريفة من خلال نهج البلاغة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# دو فصلنامه « ميقات الحج »

کاتب:

محمدي ري شهري

نشرت في الطبعه:

مشعر

رقمي الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج-المجلد ٢٦
٦	اشارة
٦	اشارة
١٢	الرسول الرحمة والحج نموذجاً
٢٦	معجزة النبي في كونه قارئاً أو امياً
٧٠	حجية الفعل النبوى
١٠٤	إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله
١٣٦	سيرة المصطفى صلى الله عليه و آله
١٨٢	رسول الله صلى الله عليه و آله في كلمات الشعراء
١٩٧	عمرة القضاء
٢٤٣	قراءة في حجة الوداع
٢٧٦	مشاهد البعثة النبوية الشريفة من خلال نهج البلاغة
٢٩٥	مجتمع النبي صلى الله عليه و آله في الجاهلية
٣٢٠	تعريف مركز

## میقات الحج-المجلد ۲۶

## اشاره

عنوان و نام پدیدآور: میقات الحج: مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه..... محمد محمدی ری شهری.

مشخصات نشر: [بی جا: بی نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری: ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک: ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی توصیفی

یادداشت: عربی.

یادداشت: شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت: پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت: کتابنامه.

شناسه افزوده: محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده: قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی: ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

## اشاره













## الرسول الرحمة والحج نموذجاً

ص: ٧

محسن الأسدي

قضت إرادة الله تعالى وحكمته سبحانه أن يبعث محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله رسولاً ونبياً في أمة عشعشت في مفاصلها فوضى جاهلياً جهلاء، وفي عهد عمّت فيه ضلالة عمياء، وفي زمن كانت دنياه تموج بألهة عديدة وأرباب متفرقة تعبد عبر شركٍ مقيت وعبودية ذليلة و ظلم صارخ وتخلف وانحدار في ظلمات قاتلة للأرواح كما للقلوب والمشاعر لما يترتب عليها من بعد عن «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا».

خصوصاً بعد أن استولى عمرو بن لحي على مكة وما والاها واستطاع أن يشيع الوثنية بين أهل مكة والقبائل حولها عبر عبادة الأصنام التي جاءهم بها، وهو بعمله هذا بدّل ديانته نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام التوحيدية الخالصة لله وحده، والتي كان أهل الجزيرة العربية ومن حولها يدينون بها، وعلى إثر ذلك التبديل تكاثرت الآلهة فنشر الشرك بين أهل مكة وخارجها، حيث كان أهل الحجاز يستمعون إلى أهل مكة ويتبعون ما يرونه ويعتقدونه، لأنهم أهل الحرم المبارك والبيت الكريم وولاته وسدنته والقائمون على شؤونه، فانتشرت الوثنية في هذه البلاد، واستتبع ذلك تفشي الانحرافات العبادية والخرافات الدينية والأمراض

ص: ٨

الأخلاقية والمفاسد الاجتماعية، وتجذر الجهل والتسلط والاستغلال والظلم والتعسف.. وجميعها وجدت مكاناً لها بين طبقات مجتمعهم وأبنائهم، ثم انتقلت إلى أجيالهم وأعقابهم..  
«.. إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ...» (١).

فترك كل هذا وغيره بدوره آثاره السيئة على مجمل حياتهم الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وحتى الأخلاقية والنفسية... فأخلاقياً واجتماعياً- وإن حافظوا على جملة من الأخلاق التي تميزوا بها عن الآخرين كالوفاء بالعهد والكرم وعزة النفس والمروءة والشجاعة.. امتلأت بها قصائدهم ونواديبهم فخراً وزهواً- كان فيهم ما ينكره العقل السليم وما يقشعر منه الخلق السليم والأدب القويم، فقد كانوا يرتكبون الخطايا ويردون مجالس اللهو والطرب، ويمارسون الرذيلة بأنواعها كالزنا، حتى لم تعد المرأة عندهم إلا سلعة مهينة معاملته ومعاشرة ونكاحاً وطلاقاً وإراثاً، ويدمنون على تعاطي الخمر في بيوتهم ومجالسهم.. والجهل يستمر ثونه، ويحتكمون إلى ما ورثوه من عادات وتقاليد وإن فسدت..

وهناك ظاهرتان مؤلمتان، فقد كان فيهم أناس يثدون البنات خشية العار وسيهن، ويرون في وجودهن والإبقاء عليهن ذلة لهم.. ويقتلون الأولاد خوف الفقر والفاقة والافتقار.. وقد حكى لنا القرآن الكريم هاتين الظاهرتين:

«وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ\* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (٢)

١- الزخرف: ٢٢.

٢- النحل: ٥٨-٥٩.

ص: ٩

«وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَشِيَّةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا» (١).

وأما ثروتهم فقد استأثر بها فريق دون الآخرين، راح يملك الأسواق والأنشطة التجارية والنواحي الاقتصادية في الحجاز وبالذات في مكة، وكان صناديد قريش هم المتحكمون بهذه النواحي وتلك الأنشطة، وكانت مكة مركز البيت الحرام والعبادات خالصة لهم لا يستطيع أحد - مهما تمكن واقتدر - أن ينازعهم سلطانهم هذا. ويجانب هذه الطبقة هناك طبقة متوسطة الحال وأخرى سيطر عليها الفقر والحرمان، وهناك الرقيق أيضاً، وهم يشكلون ظاهرة واسعة وقد أسقط الكبار الظالمون المتعجرفون كل حقوق هذه الطبقة في الحياة المناسبة، وجعلوهم يعيشون بين تلك الطبقات الثلاث عيشة ذليلة يستخدمونهم أبشع استخدام خادمة وعمالاً وأجراً...

وكانت القبائل العربية مفككة الأوصال، تغلب عليها الأنانية وحب الذات..

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرأً وطيناً!

والنزعة القبلية والطبيعة العنصرية متفشية فيهم..

وهل أنا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!!

وكان ديدنهم القتل والغزو والسلب، يُغير بعضهم على بعض، فيقتل قويمهم ضعيفهم ويسبي، وكانت الحروب تطحنهم ويتقاتلون فيها قتال ذئاب مسعورة لأتفه الأسباب.. وحتى تضع الحرب أوزارها يحتاجون لسنين طويلة جداً.. ولم يكن لهم من يعودون إليه من زعيم يلودون به أو مرجع يلجئون إليه أو دولة قوية

ص: ١٠

يركنون إليها وقت الشدائد لتحلّ مشاكلهم ويرضخوا لحكمها فيهم، وتدعم وحدتهم وتدافع عن استقلالهم ومكانتهم.. فتوالت فيها حروب طاحنة ومعارك دامية تذكىها الأحقاد والضغائن وتقودها ثارات قبليّة ونعرات عصبية، حتى غدت أمّة سيوف مشهورة ورماح مشرعة ودماء نازفة وأعضاء مقطّعة وأرامل، وأمّهات ثكلى، وأطفال يتامى.. ونكبات وآلام..

أمّة كانت تتقاتل بسبب جمل يملكه ضيف إحدى القبائل اقتحم مراعى قبيلة أخرى، أو ناقة قتلت، فما كان منهم إلا أن يدخلوا حرباً ضروراً ويتقاتلوا أربعين سنة تفيض فيها أرواح ودماء سبعين ألف إنسان من كلا القبيلتين: بكر وتغلب وحلفائهما، حتى كادوا ليفنوا عن آخرهم. إنها حرب البسوس تلك المرأة التميمية التي علا صراخها.. واذلاه.. فكانت الحرب ووقع القتال وزهقت الأنفس وسبيت الأمّة ودمرت الحياة...

وهناك أمّة أخرى لا تقل تمزقاً وفرقة وتشتتاً عن تلك الأمّة، إنها قبيلتا الأوس والخزرج، وقد سجل لنا التاريخ أياماً مريرة كانت بينهم: فبعد أول يوم فتنه وقع بينهما (حرب سمير) وانضمت كل بطون القبيلتين إليها واقتتلوا فيها عبر جولتين شرستين قتالاً شديداً، توالت أيامهم القاسية الأخرى:

يوم الرحابة، ويوم السرارة، ويوم الحصين، ويوم فارغ، ويوم الحسر الذى لم تنفع فيه تلك الجهود الكبيرة للإصلاح من قبل رجلين فزاريين بعد أن شاهدا من قتالهم ما آيسا معه من الإصلاح بينهم.. ويوم الربيع وهو حائط في ناحية السفح اقتتلوا فيه قتالاً شديداً حتى كاد يفنى بعضهم بعضاً وقد انهزم فيها الأوس ولم ينفعهم فرارهم، فقد تبعهم الخزرج حتى بلغوا دورهم لينزلوا بهم أشد العذاب قتلاً وتدميراً.. ويوم البقيع وفيه رجحت كفة القتال لصالح الأوس.. ويوم الفجار الأول وقد اصطبغت فيه ساحة المعركة بالدم الأحمر، هدف كل من المتقاتلين إفناء الآخر.. ويوم معبس أقاموا فيها أياماً يخوضون قتالاً عنيفاً ضارياً فانهزمت الأوس هزيمة قبيحة حتى لاذت بيوتها وأكامها.. ويوم الفجار الثانى وقد اتحدت به الأوس واليهود قريظة والنضير ضد الخزرج... وبغاث كان يوم حرب ضروس فز فيها الأوس أمام الخزرج قبل أن تدور الدائرة على الخزرج

ص: ١١

حتى علا الصياح: «يا معشر الأوس أحسنوا ولا تهلكوا إخوانكم، فجوارهم خير من جوار الثعالب: أي اليهود..» إلا أن غضب الأوس لم يهدأ حتى أضرموا النار اللاهبة في دور الخزرجين ونخيلهم.. إنها أيام عصيبة وحروب رهيبه قد كادت تفتى القبيلتين وتهلك الحيين ولم يشفع أنهما ينتميان لأب واحد وأم واحدة، ولم تقف الحرب وتنته بل ظلت سجلاً فما أن تضع واحدة أوزارها حتى تبدأ أخرى أشد منها عنفاً وضراوةً ونزفاً..

وأما المستوى الاقتصادي، فوضعهم فيه ليس بأقل سوءاً من أوضاعهم السابقة؛ فقد تأثر بأحوالهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية.. وبانعدام الثقة والأمن والسلامة الاقتصادية والوعى بالأحكام والقوانين.. ولأنهم كانوا أبعد الأمم عن ذلك وعن نواحي التنمية كالصناعة لغلبة البداوة عليهم، وعن الزراعة وإن وجد شيء منها في بعض الأماكن عندهم وراجت التجارة في الأشهر الحرم، إلا أن الحروب الطاحنة والإغارات المستمرة وما يستتبعها من السلب والنهب كانت تلقي بظلالها القاتلة على أي مظهر من مظاهر التنمية.. فساد الاستغلال والتسلط ثم الفقر والجوع والعوز والتخلف الاقتصادي..

كل هذا وغيره مظاهر تنخر في بنية مجتمع الحجاز وكيانهم وتسىء إليهم حتى غدوا في الحضيض الأسفل من الضعف والعماية والتخلف.. هذا أخلاقياً واجتماعياً واقتصادياً.

وأما سياسياً فلا شك في تبعية الوضع السياسي لوضعهم الاجتماعي الرديء والأخلاقى الوضع الاقتصادي الظالم، إلا أنهم كانوا يتمتعون بشيء من الاستقلال النسبي إذا ما قيست حياتهم السياسية بما عليه جيرانهم والمتاخمون لدول كبيرة تحيطهم، التي كانت حياتهم أقرب للعبودية لغيرهم بل العبودية بعينها غالباً، فقد حكم الفرس العراق، وغلبت الروم على بلاد الشام، والأحباش على اليمن.. وعاشت هذه البلدان انحطاطاً مقيتاً، ومورست مع أهلها ألوان مختلفه من الظلم والاستبداد والقهر والإذلال، لأن هذه الدول الكبرى المتسلطة يومذاك



ص: ١٢

كانت ترى العرب عبيداً همجيين لا- حضارة لهم ولا- مدنية عندهم، وبالتالي لا- يستحقون الحياة العزيزة الكريمة، وإلا أن يكونوا تابعين..

لقد كان ذلك الواقع المتخلف والفساد والضعيف تحيط به حضارتان عظيمتان ودولتان كبيرتان: دولة الفرس ودولة الروم، ويهود وغيرهم هنا وهناك، وجميعهم يحلون ما حرم الله تعالى ويحرمون ما أحل، وصدّهم عن سبيل الهدى ترف حكامهم وتسلطهم وكان لدياناتهم المنحرفة أثر واضح على معالم حياتهم..

وغدت شعوبهم بسبب ذلك تتخبط في حيرتها وشقائها وسط مدنيت مزيفة، قوامها أسس مادية فقط بعيدة عن الروح، ودون أن يكون لها أى تعلق بنور الوحي الإلهي، إلا بقايا أهل الكتاب تتمثل في أفراد أبت أن تنزلق في أوحال الشرك والجاهلية، وظلت ثابتة على منهج التوحيد منتظرةً خروج نبي جديد بشرت به كتبهم وأنبيأؤهم، وتعلقت به نفوسهم وآمالهم..

ص: ١٣

هناك حكم عديدة تصلح أن تسجل لنا أموراً وتجب عن تساؤلاتنا حول سبب اختيار هذه الأمة دون غيرها من الأمم لأعظم رسالة حملها رسول الله محمد صلى الله عليه وآله إضافة إلى أنها أمة توسطت الدنيا موقعاً فنورها يمكنه أن يعم الجميع ويصل إليه.. حيث إن موقعهم الجغرافي المتميز بين دول العالم سهّل انطلاق الرسالة إلى جميع الشعوب والدول المحيطة. وأنها ظلت ملاذاً ومكاناً لعدد من الأنبياء والرسول والرسالات وأصحابها، فإن التدبر والتأمل في تلك المرحلة قبل البعثة النبوية الشريفة يضعنا أمام واقعين مختلفين أو حالتين مختلفتين: واقع الأمة المختارة لحمل الرسالة السماوية الخاتمة. وواقع الأمم الأخرى من غيرها.

وبمعرفة هذين الواقعين يمكننا أن نستخلص أسباباً أو حكماً أخرى تصلح لأن تكون مبرراً لاصطفاء هذه الأمة لأمر عظيم يتمثل بتشرفها بحمل الأمانة الربانية العظيمة، وبالتالي هداية المجتمع الإنساني إلى أكمل الدين وأعظم الرشد وأبين الهدى وأتم النعم.. ولتكون معجزة الرسالة والنبوة التي ضمها القرآن الكريم وتوفرت عليه شرائع الدين الجديد وأحكامه ومفاهيمه جليّة واضحة في الأذهان والنفوس لا لبس فيها ولا غموض ولا مجال للطعن والاتهام، ولعلّ من تلك الحكم:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ..» (١).

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...» (٢).

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم» الحديث.

نسب شريف لم تجد قريش فيه ما تطعن على النبي صلى الله عليه وآله، وقد أجاب

١- التوبة: ١٢٨.

٢- آل عمران: ١٦٤.

ص: ١٤

أبو سفيان، وهو يومئذ أشد أعداء النبي صلى الله عليه وآله حين سأله هرقل عن نسب النبي صلى الله عليه وآله فقال: هو فينا ذو نسب. لقد كانت أمه رسول الله صلى الله عليه وآله أقل أمم ذلك الزمان حضارة ومدنية فهم قوم أميون كما وصفتهم الآية: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (١).

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (٢).

بل شاء الله أن يكون رسوله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله لهذه الأمة الأمية أمياً أيضاً.

«مَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُلُونَ» (٣).

كل هذا جاء تأكيداً لحكمته تعالى ودفعاً لمزاعم قد تثار و تنطلي على كثير من الناس وتصدق بها نفوسهم فتكون مبرراً تحتج به فتبعدهم عن الهدى والخير..

وحقاً لو كانوا أمة قارئه متعلمه متحضرة تعرف المدنية وأصولها والحضارة ومعالمها كما هو عليه حال كل من اليونان والفرس والرومان وربما هناك غيرهم وهم أهل حضارات مجاورة لهم، لوقع الارتباب ولقال قائلهم:

إن ما حدث لهذه الأمة من تغيير وحمل الرسالة وما يترتب على ذلك هو نتيجة تأثر علمي واحتكاك ثقافي وانفعال حضاري مدني..

إن الأخلاق القيمة التي أشرنا إليها كالوفاء بالعهد وعزة النفس ومضاء العزيمة، لم تكون معروفة عند الأمم المجاورة لها وإن عظمت حضارة وتقدماً، وهي أخلاق

١- الجمعة: ٢.

٢- آل عمران: ١٦٤.

٣- العنكبوت: ٤٨.

ص: ١٥

تحتاجها تلك الأمانة السماوية ومسيرتها وتبليغها وأيضاً قيادة الأمة، فبدون هذه الخصائص لا يمكن لأى أمة أن تحمل أمانة أو تتحمل مسؤوليته حتى سادوا الدنيا بأخلاقهم قبل سيوفهم.. وهو ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وطالما افتخر واعتز صلى الله عليه وآله بمشاركته فى تعزيز كل مبادئ الحق وإقرار مكارم الأخلاق، فقد شهد صلى الله عليه وآله حلف الفضول وكان عمره عشرين سنة، لأنه رأى فيه قيماً ومبادئ سامية.. ويأتى الحجر الأسود وقصته عند تجديد بناء الكعبة، وكان ذلك قبل البعثة بخمس سنين؛ ليكون علامة مضيئة على حب هذه الأمة للصدق والأمانة رغم ما تتصف به من فساد أخلاقى، ويكشف عما وصل إليه النبى صلى الله عليه وآله من منزلة عظيمة بين قومه، فقد اختلفت قريش فيمن يستأثر بشرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فاتفقوا- بعد أن كاد السيف يقع بينهم فيدميهم ويمزقهم- على تحكيم أول داخل من بنى شبيهة، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله وعمره ٣٥ سنة، فلما دخل هتفوا جميعاً: إنه محمد بن عبد الله.. إنه الصادق الأمين. وبصوت واحد: هذا الأمين قبلناه حكماً بيننا.. هذا الصادق رضينا بحكمه.. فأمر بثوب فأخذ الحجر ووضع فى وسطه، وأمرهم جميعاً برفعه، ثم أخذه بيده الشريفة فوضعه مكانه، فحقن بهذا الدماء من أن تراق وحفظ الأرواح من أن تزهد، ووحد بهذا صفهم وأشعرهم بقيمة وحدتهم!

الاختيار والبشرى!

وفعلًا تحققت البشرى ووقع اختيار السماء لهذه الأمة أن تكون حاضنةً للنبوة والرسالة الخاتمة والإمامة، فعدت الأمة المختارة.. وغدا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله النبى المصطفى والرسول الخاتم والإمام المختار.. لقد أرسلت السماء محمداً صلى الله عليه وآله رسولاً ونبياً وهادياً ومرشداً وموحداً لمثل هؤلاء العرب ولمثل تلك الأمة، ليعلمهم معنى الحياة وتطورها على كل الأصعدة المعنوية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية.. وليبث فيهم الحياة الجميلة التى ترتضيها لهم السماء.. الحياة الخالية من الكراهية، المليئة بالحب..

ص: ١٦

البعيدة عن الرذيلة والفرقة والنزاع والتسلط والظلم..

وأوجد فيهم منابع للتسامح والمحبة والصبر والتحمل وكظم الغيظ حتى وهم يخوضون غمار الحرب، وراح يث فيهم تعاليم صارمة ترفض وتشجب الفساد والإتلاف ونقض المواثيق والعهود، وتدعو إلى عدم انتهاك الحرمات وعدم التمثيل بالقتلى، وعدم قتل الأطفال والنساء والشيوخ، وعدم قطع النخل والشجر أو حرقه، وعدم تهديم الدير والكنائس، وعدم التعرض للربان والمشغولين بالعبادة. ولم يلجأ صلى الله عليه وآله إلى القتال إلا اضطراراً، ولم يتجاوز عدد القتلى بضع مئات...

كما راح يعلمهم ويدربهم على ضبط النفس وقوة الانضباط إلى درجة جعلهم يقيمون الصلاة في ساحات الوغى والقتال ليتعلموا الصبر والالتزام والطاعة ولتتروا سمو والرفعة والتعالى على الأذى والجراح والقروح التي يتعرضون لها حتى وسط غبار العواصف والقتال.. لقد أمرهم في تلك الأوقات العصيبة بالصلاة لله تعالى جماعة لا فرادى، وكلما حان وقت الصلاة وهو يحين خمس مرات في كل يوم يجب ألا تترك أو تؤجل صلاة الجماعة، فينبغي أن تصلى طائفة فترك وتسجد بين يدي ربها بينما تشتبك الأخرى مع العدو، فإذا قضيت الصلاة فينبغي أن تغير كلتا الطائفتين موقعهما:

«وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَ لِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ...» (١).

إن في سيرته صلى الله عليه وآله الكثير الكثير من الأمثلة السامية نجدها واضحة في حياته الكريمة، وهنا نقف عند شيء منها، ففي معاملته صلى الله عليه وآله لألد أعدائه؛ نجده وهو في أوج قوته عند فتح مكة، قريته التي آذاه أهلها واضطهدوه وقاطعوه وعذبوا أنصاره

ص: ١٧

وأخرجوهم بقسوة حتى حينما لجأوا إلى يثرب.

وإذا ما اطلعنا على بعض ما تعرض له المسلمون الأوائل سنجد المعاملة الوحشية للرجال والنساء الأبرياء؛ فقد مزقوا بقسوة سميّة تلك المرأة البريئة كل ممزق، بالطعن في موضع العفة بالحراب. أما زوجها ياسر فقد شدوا ساقه إلى ناقتين وسيقتا في اتجاهين متعاكسين.. وبلال هو الآخر عرضوه لأبشع صور العذاب على رمضاء مكة الملتهية.. وهكذا خياب بن الأرت الذي جعلوه على سرير من الجمرات المحترقة وظلّ الطغاة عديمو الرحمة يركلونه بأرجلهم وجثموا بوحشية فوق صدره لينصهر الشحم تحت جلده.

وهكذا غيرهم حاصروهم وضيقوا عليهم وعذبوهم بطرق وحشية ومثلوا بأجسادهم وانتهكوا حرمتهم... هذا إضافة إلى ما شئوه من ملاحقات وحروب ضدهم بعد هجرتهم وتركهم بلدتهم مكة، وكان منها: بدر، وأحد، والخندق...

إذن كان يحقّ له أن يثار منهم، حينما تمكن منهم بعد فتح مكة، لما أنزلوه به وبأصحابه وبالمؤمنين به، لكنه عفا عنهم وحتى عن أولئك الذين قتلوا عمّه حمزة وانتهكوا حرمة جسده ومثلوا به فشقوه ولاكوا جزءاً من كبده. أيّ معاملة قابلهم بها! إنها معاملة قلب يفيض بفطرة حب ورحمة لا مثيل لها وهو يردد:

«يا معشر قريش! ويا أهل مكة! ما ترون أنى فاعل بكم؟»

ص: ١٨

قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. ثم قال:  
«لا تثريب عليكم اليوم. اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وهم يسمعون وينظرون إليه، ويستشعرون بما يقول ويأمر ويعطيهم أمانهم وسلامهم وحياتهم..  
وهناك أمثلة عديدة على ما كان رسول الله صلى الله عليه وآله يبذله لانتشال تلك الأمة من آثار الجاهلية وسيئات أخلاقها وموبات أعمالها وينقلها إلى عالم حب وتآلف ومودة..

الأذان الذى كان يعدّ عملاً عظيماً ويدعو للاحترام والتقدير.. لقد أعطى هذا الشرف لمن؟ إنه لبلال العبد الحبشى دون غيره من المسلمين حتى تلغى تلك الفوارق المدمرة، لقد أمره النبي صلى الله عليه وآله فى عمره القضاء أن ينادى للصلاة، فوقف هذا العبد الحبشى ذو البشرة السوداء والشفيتين الغليظتين على سطح الكعبة المشرفة أكثر الأماكن عراقهً وقداسهً وفضيلهً، وما إن رأوا بلالاً يصدح بالأذان حتى صرخ عكرمة بن أبى جهل أحد العرب المستكبرين المشركين بصوت عال متألماً:

لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول. فيما قال مشرك آخر:  
الحمد لله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم حين يقوم بلال بن أم بلال ينهق فوق الكعبة. وآخرون لما سمعوه غطوا وجوههم عنفةً وكبرياء وسخرية منه..

إنها رائحة الكبرياء والعنصرية والهوى تفوح منهم، وقد عزم رسول الله صلى الله عليه وآله وقرآنه المجيد على استئصالها:  
«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ» (١).

لقد راح صلى الله عليه وآله يواكب الناس حتى بعد إسلامهم ويسددهم ويقومهم ويقتلع ما فيهم من آثار تلك الجاهلية وما تركته فى نفوسهم، والإنسان ابن بيئته، ليبدلها

ص: ١٩

بأخلاق إسلامية وآداب قرآنية بعيدة عن التعصب والعنصرية وطالما كان يقول:  
دعوها فإنها تنته دعوها فإنها تنته..

سمع رسول الله صلى الله عليه وآله أبا ذر حدثان إسلامه يقول لابن عمه: يا بن الأمة، فقال له صلى الله عليه وآله: «ما ذهبت عنك جاهليتك بعد».

وقال صلى الله عليه وآله: له في قضية مشابهة: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

وعودهم التعامل الطيب مع أعدائهم والرحمة بأسرائهم، فقد مرّ بلال بامرأتين يهوديتين أسيرتين على قتلى من اليهود، وما أن رأت إحداهما جثث القتلى حتى صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله حين ورده خبر ما فعله: انزعت منك الرحمة يا بلال؟! حيث تمر بامرأتين على قتلى رجالهما (١)!!

إنها أمثلة كثيرة، اخترت ما يحضرني منها، تنبع من تعاليم الإسلام وأحكامه وتكاليفه وكلها رحمة للعالمين ونجاة لهم من سيئات الدنيا وعذاب الآخرة، وهدفها حياة خالدة:

«.. اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ..» (٢).

الحج نموذجاً حياً

ونكتفى هنا بنموذج واحد من تلك التكاليف وبما يتناسب مع منهج مجلتنا هذه التي احتلت مكانة مرموقة في عالم المكتبة العلمية والمعرفية والثقافية، وراحت تؤدي دورها في بيان أعظم الفرائض الإسلامية تربيةً وتهذيباً وبناءً للروح الإيمانية والنفس الإنسانية والآداب والأخلاق... إنها فريضة الحج، الدعوة الربانية العظيمة، والنداء السماوى الخالد، والمؤتمر الإسلامى الكبير،

١- أنظر السيرة النبوية لابن هشام، وكتاب المغازى للواقدي، عمره القضاء، وتاريخ الطبرى، غزوة خيبر، سنة ٧.

٢- الأنفال: ٢٤.



ص: ٢٠

والتظاهرة الإيمانية الرائعة، التي تضم بين صفوفها أجناساً متعددة، ومذاهب وطبقات وقوميات شتى، بزى واحد لا يميز غنيهم عن فقيرهم ولا- حاكمهم عن محكومهم ولا- أبيضهم عن أسودهم... إنه زى موحد قطعنا قماش أبيض اللون غير مخيط يأتزر الرجل بأحدهما حول سوءته، فيما يرتدى الأخرى فوق كتفيه، حاسر الرأس في غير خيلاء ولا تكلف، مردداً نداء واحداً:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».. إنهم جميعاً على موعد واحد، وواد واحد، وحرم واحد، وبيت واحد، ومنسك واحد...

إن عالماً- كما العوالم السابقة واللاحقة- يشاهدون في كل عام في موسم الحج مشهداً رائعاً واستعراضاً عظيماً للإسلام الموحد، بعيداً عن فروقات الجنس واللون والمكانة... عبر صف واحد يشد بعضه بعضاً، وأسرته ربانية واحدة ترفرف عليها رحمة السماء.. وكلهم مدعوون «.. لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ...».

منافع دنيوية ومنافع أخروية مفتوحة لهم أبوابها ينالها كل واحد منهم بقدر إخلاصه وصدقه..

إن الحج محراب عبادة ما أعظمه! وميدان وحدة وأخوة وتعارف ومسؤولية ما أروعها! وموسم خير وتجارة ما أنفعه!

## معجزة النبي في كونه قارئاً أو أمياً

الشيخ محمد القائيني

تمهيد

اشتهر أن من معاجز الإسلام ما ظهر على يد النبي صلى الله عليه وآله من العلوم والمعارف، ومن جملتها ما حواه القرآن الكريم وتضمنه الفرقان العظيم مع كونه صلى الله عليه وآله رجلاً أمياً حسبما صرح به الكتاب المجيد ونطقت به نصوص الروايات، فكان ذلك آية نزول هذه العلوم من مصدر الوحي وصدورها من مورده، بعد أن أبطل برهان القرآن قولهم: إنما يعلمه بشر، بقوله: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (١).

والكلام في هذه المعجزة ومعنى كون النبي صلى الله عليه وآله أمياً يتطلب البحث - على سبيل الإجمال - عن حقيقة المعجزة ومعناها، وربطها بإثبات الدعاوى ومنها النبوات، ثم البحث عن إعجاز القرآن ووجوه ذلك، ومن جملتها نزوله على يد رجل أمي. فلذا نورد البحث في فصلين:

الفصل الأول:

في المعجزة وحقيقتها والفرق بينها وبين السحر وكذا الكرامات

ص: ٢٢

وغير ذلك.

الفصل الثاني:

في إعجاز القرآن على العموم وخصوص صدوره على يد النبي الأمي صلى الله عليه وآله.

الفصل الأول: والكلام فيه في جهات:

الجهة الأولى:

المعجزة من باب الإفعال مشتق من العجز.

والمراد بها في الاصطلاح عجز البشر عن تحقيق ما يأتي به صاحب المعجزة وعدم تمكنهم من الإتيان بما أتى به، مع اقتران ذلك بدعوى مثل النبوة والرسالة والإمامة. ولا- أخفيك أن بعض الشبهات المطروحة في الإعجاز لا- تختص بما كان الفعل المعبر عنه بالمعجزة مقروناً بالدعوى، بل تشمل ما كان من قبيل الكرامات للأولياء والتي لا تقترن بدعوى، وسنوافيك بذلك إن شاء الله تعالى. ثم إن العامل الأساس للإعجاز هو عجز الناس عن مجاراته وعدم تمكنهم عن مضاهاته سواء كان ذاك الفعل غير ممكن للناس أصلاً أو كانوا لا يتمكنون من فعله بالوجه الذي حققه صاحب المعجزة، من تحقيقه في زمان أو مكان خاصين وإن كان فعله على وجه آخر داخلًا ممكنًا لهم و مقدورًا.

وإن شئت فاصطح على القسم الأول بالإعجاز المطلق، وعلى القسم الثاني بالإعجاز النسبي.

فإحياء الموتى- حيث فرض عدم تمكن الناس العاديين من فعله بوجه- يعتبر معجزة مطلقه، وأما إنبات الزرع وإثمار الشجر في غير الموسم المناسب ومكانه فمعجزة نسبيته، ونريد بذلك أن تحقيق هذا الفعل على الوجه الخاص معجزة وإن كان تحقيقه على وجه آخر لا يعد إعجازاً.

الجهة الثانية:

هل العبرة في المعجزة بعجز طائفة من الناس عن فعله أو أنه لا- تكون المعجزة معجزة حتى يعجز كل الناس وفي كل الأزمنة عن تحقيقه والإتيان به؟

ص: ٢٣

وهناك احتمال ثالث وهو اعتبار عجز السابقين و المعاصرين للإعجاز والمقارئين لعصره بمقدار تسمح الطفرة في تقدّم العلوم عادة. وهذا بحث هام جداً حيث يترتب على ذلك أنه إذا كانت العبرة في الإعجاز بعجز الكلّ وإلى الأبد فربما لم يمكن إثبات كون أمرٍ معجزة، حيث يحتمل مجيء زمان يتمكّن الناس أو بعضهم من فعل ذلك فيه، ومعه فلا يمكن للنبي أن يثبت دعواه بالإعجاز؛ لعدم ثبوت كون فعلٍ معجزة إلا بانقضاء زمانه بل بانقضاء كل زمان يحتمل صدور ذلك الفعل فيه.

وهذا نقض للغرض من الإعجاز الذى هو إثبات دعوى الرسالة ونحوها.

وهذه الشبهة تتزايد قوّة في هذه الأعصار التي نال العلم فيها تقدماً وسيعاً في مجالات شتى وتمكّن الناس من نيل امور كانت تعدّ دعوى نيلها سابقاً من الأوهام، بل كان الناس لا يصدقونها في مطلع تحققها وربّما لا يصدق بعض الناس تحققها حتى الآن وبعد مضي زمان طويل من ذلك.

والذى ينبغى أن يقال هو: أن المناط في كون الشىء معجزة هو أن يكون صدورها على يد صاحبها على غير الوجه الطبيعى بحيث لا يحتمل أن يكون نالها بصورة طبيعىة ولا يحتمل أن ينالها غيره كذلك، سواء عجز الناس المعاصرون له عن فعله أو لا، وسواء تمكن من تأخر عن عصره من فعله أو لا.

وربّما يكون الإعجاز في صدور الفعل ابتداءً وإن كان صدوره ثانياً بعد ما صدر أوّلاً من صاحب المعجزة لا يعدّ إعجازاً.

فمعنى الإعجاز هو عجز غير صاحب المعجزة عن تحقيق فعلها على الوجه الذى تحقق من صاحبها وقد تقدّم تأكيد هذا في تقسيم المعجزة إلى المطلقة والنسبية.

والعبرة في إمكان التوضيل إلى فعل شىء بصورة طبيعىة وأنه صادر كذلك أو لا- بحكم العقلاء؛ حيث لا- يحتملون كون صاحب المعجزة نال ما أتى به بصورة عادية؛ ولا- يعتنون باحتمالات ضعيفة موهومة في هذا المجال كما لا يعتنون بأمثالها في سائر شؤون حياتهم.

ص: ٢٤

فتكلم الطفل فى بعض مراحل الطفولة خرق للعادة وإن كان هذا الطفل لو باشر وليه تعليمه النطق فى نفس تلك المرحلة فتكلم لا يعدّ إعجازاً، وربّما يكون تكلم الطفل فى بعض المراحل معجزة مطلقه لا يمكن فى العادة وفى أى ظرف وشروط تحقّقه.

نعم عجز البشر كلّهم طريق واضح إلى معرفة كون الفعل الصادر على وجه الإعجاز قد صدر بغير الوجه الطبيعى والمعتاد، وإلا فلا موضوعية لعجز الكلّ عن فعله. وربّما لا يتيسر الجزم بالإعجاز ما دام لم يحرز عجز الكلّ أو يحتمل تمكّن البعض لولا ما ذكرناه.

وفى هذا المجال يواجها إشكال اشير إليه فى كلام للراوندى صاحب كتاب الخرائج أيضاً؛ وهو أنه كيف يمكن الحكم بعجز البشر عن معارضة المعجزة بمثلها مع عدم الإحاطة بهم فى طول الزمان ولا عرضه سيما الأزمنة البعيدة الماضية والأمكنة القاصية، بل لا يمكن الإحاطة بمن يأتى فى الأزمنة المتأخرة وقدرتهم وبدون ذلك لا يحرز الإعجاز؟!

ويمكن الإجابة عن ذلك بوجوه:

الوجه الأوّل:

إنّه لو اعتبر فى الإعجاز عجز البشر- كلّهم حتى الناس الذين يأتون بعد زمان المعجزة- إلماً أن العقلاء يعتبرون عجز معاصريهم ومصاحبيهم طريقاً إلى معرفة باقى القدرات ويحصل لهم الوثوق بعدم اختلاف ساير الناس ممن يتواجدون فى ساير الأمكنة، ولا من كان فى ساير الأزمنة عن معاصريهم فى المكنة والقابليات.

لا- أقول: بعدم اختلاف الناس فى التطور والتقدم بحسب الأزمان المتأخرة، فإن الوجدان شاهد بتمكّن الناس من امور لم يتصورها الناس القدامى؛

بل أقول: بعدم اختلاف الناس فى القدرة الطبيعّية وإن كانت القدرة المعتادة تتجلّى فى امور مختلفة باختلاف الأزمنة والأمكنة فليس قدرة بعض البشر على بعض الأمور التى كان يعجز عنه غيره من السابقين خارجاً عن القدرة الطبيعّية،

ص: ٢٥

ولا أن تمكّنه من بعض الأشياء بعد عجز الغابرين خارج عن المعتاد.

بل العادة قاضية بسير في العلوم يقتضى اموراً وأحداثاً لو كان الناس القدامى مكان المتأخرين لو اكبوا ما واكبه المتأخرون من التقدم والوقوف على الجديد من الأحداث. إذن لا- يعنى العقلاء في شؤونهم الدنيوية بهذه الاحتمالات كما تشهد بذلك سيرتهم في الأعصار السابقة على قبول المعاجز.

وليس هذا استدلالاً في المسائل العقلية بالإجماع التعبدى ليكون مردوداً.

بل الغرض جعل الإجماع العقلاني متبهاً على أمر قاطع. وهذا دليل شريف يأتي نحوه في كثير من المسائل العقائدية فيما يتعلّق بالمبدأ والمعاد والرسالات وغيرها من المسائل العقلية.

مثلاً: لا يحتمل وجود حجر طبعى يوجب أخذه الحياة الأبدية مع إمكان الاستيلاء عليه بصورة طبيعته، وكذلك ما كان من هذا القبيل من الاحتمالات.

وهذا لا يعنى- كما تقدم- توقف العلوم الطبيعية عن الازدهار والتقدم وانحصارها بما سبق؛ ولذا ترى جهد العلماء في التطلع وجدّهم في التقدم.

الوجه الثاني:

إن المعاجز صدرت على أيدي أشخاص عاديين في الاستعدادات الطبيعية والعلوم البشرية وإن كانوا ممتازين في الصفات الإنسانية والخلق والقيم بل كانوا في العلوم الطبيعية دون المعتاد أحياناً. فترى أن نبي الإسلام- وهو أفضل أنبياء الله- كان امياً حسب النصوص ولم ينقطعوا عن امهم زماناً يحتمل وقوفهم على العلوم الطبيعية بما يمكنهم من الامور الخارقة.

الوجه الثالث:

إن المعاجز تصدر على أيدي أصحابها بدون تكلف، حتى التكلف بمقدار لا بد منه في الأفعال الطبيعية فضلاً عما يتكلفه الناس في الأفعال الغريبة والأشياء النادرة من سرعة الحركات التي لا بد منها أحياناً في السحر وما بحكمه من الأفعال الغريبة ومن التخفى على بعض الأعمال التي لامناص منها عادة في كثير من الأفعال غير المتعارفة؛ ولهذا كان الإعجاز في كل عصر مسانخاً للعلوم والفنون الرائجة في كل

ص: ٢٦

عصر، ليثق الناس بعدم كون المعاجز من شؤون علومهم ولا هي من نتائج فنونهم. ولا يشق عليهم معرفة ذلك ولا يصعب على من له الأهلية الوقوف عليه فيرتابون.

الوجه الرابع:

إن الأنبياء وأصحاب المعاجز كانوا- باعتراف معاصريهم- امناء في قومهم صلحاء في بلادهم صادقين في مقالهم معروفين بالصلاح والسداد، وهذا ما يوجب الوثوق بصدقهم في دعواهم وفي فعل الإعجاز. وقد استند الأنبياء في دعوتهم الأمم- حسب ما يحكيه القرآن الكريم- إلى هذه الجهة- أعني وثافتهم وأمانتهم- فكان الرسول يدعو الناس إلى قبول رسالته لكونه أميناً وثقة. وهذا استناد إلى مبنى عقلائي مقبول لديهم، ومما يؤكد أنهم اعتمدوا على مبنى عرفي وعقلائي أنهم ضموا إلى ذلك ما يدفع التهمة عنهم، وذلك هو عدم مطالبتهم بأجرة على عملهم فلا ينتفعون بقبول دعوتهم بل ينتفع الناس بالإجابة؛ فإن هذه الوجوه تبعث على الوثوق بصدق الإعجاز ومدعيه والاطمئنان بذلك.

وقد استدللنا بهذه الآيات في مباحث اصول الفقه على حجية أخبار الثقات.

وقد ورد في بعض النصوص حجية خبر المدعى الثقة إذا لم يعارضه حجة اخرى.

وكيف كان فالآيات التي أشرنا إليها عدة نكتفي بذكر بعضها:

قال تعالى: «وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ... أبلغكم رسالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ» (١).

وقال تعالى: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا مَا أَسَئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٢).

وقال تعالى: «كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي

١- الأعراف: ٦٨.

٢- الشعراء: ١٠٦-١٠٩.

ص: ٢٧

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١).

وقال تعالى: «كَذَبَتْ قَوْمٌ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَ لَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٢).

وقال تعالى: «كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لوطُ أَ لَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٣).

وقال تعالى: «كَذَبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَ لَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٤).

وقال تعالى: «وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ أَنْ أَذُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» (٥).

ثم إنه تجدر الإشارة إلى أن تشخيص الإعجاز عن السحر أمر صعب لا يقف عليه الناس العاديون مباشرة، بل لابد في ذلك من الخبرة والدقة والمهارة ويكون اعتراف الخبراء الثقات سبباً لعلم غيرهم من الناس وموجباً لقطع ساير الناس كما حصل لهم القطع. ولا يجب أن يباشر الناس تشخيص المعاجز بأنفسهم بل يكفيهم أن يثقوا عبر مباشرة أهل الخبرة. كما لا يجب وقوف الناس على المعاجز مباشرة، بل يكفي الوقوف عليها عبر

١- الشعراء: ١٢٣-١٢٧.

٢- الشعراء: ١٤١-١٤٥.

٣- الشعراء: ١٦٠-١٦٥.

٤- الشعراء: ١٧٦-١٨٠.

٥- الدخان: ١٧-١٨.



ص: ٢٨

إخبار الثقات ممن عاصروا المعجزات، فإذا جاز الاعتماد على الأخبار في المعجزات السابقة جاز الاعتماد على أهل الخبرة في المعجزات المعاصرة؛ فيكون الوقوف على الإعجاز لأهل الخبرة مباشراً ولغيرهم بواسطتهم، كما يكون الوقوف على المعاجز لمعاصريها مباشرة وللمتأخرين عنها بإخبار معاصريها عنها.

مثلاً: قد لا يتيسر للأعجمي المباشرة في تشخيص الإعجاز في الكلام العربي وفصاحته والحدّ الطبيعي من الفصاحة فيه، ولكنه إذا وقف على اعتراف فصحاء العرب بل عظماء فصحاءهم ممن يعترف لهم بذلك بإعجاز القرآن علم بالأمر.

والغرض من الإشارة إلى هذا الأمر هو تنبيه الناس على عدم الانخداع بمجرد دعوى الإعجاز من أناس لا حقيقة لدعواهم، وإنما وقفوا على أمور لغرض التأمر عليهم، وقد كانت المعجزات مسانحةً لفنون أعصارها حتى لا يشتبه الأمر على أهل الخبرة وتقوم الحجّة عليهم، كما صرح بذلك في بعض النصوص.

فقد روى الكليني في الكافي بإسناده عن أبي يعقوب البغدادي قال: قال ابن

ص: ٢٩

السكيت عن أبي الحسن عليه السلام: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا؟ (١) ويده البيضاء وآله السحر وبعث عيسى عليه السلام بآله الطب وبعث محمداً صلى الله عليه وآله على جميع الأنبياء بالكلام والخطب؟! فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله لما بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله ممّا لم يكن في وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات واحتاج الناس إلى الطب وأتاهم من عند الله ممّا لم يكن عندهم مثله وممّا أحيا لهم الموتى وأبرء الأكمه والأبرص بإذن الله وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام وأظنه قال: الشعر، فأتاهم من عند الله من مواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجّة عليهم. فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك قط.

قال العلامة المجلسي بعد ذكر الخبر: بيان: قوله: آله السحر، أي ما يشبهه أو يبطله. والأول أظهر بقريته الثاني. يعني الشرط الثاني من الخبر فيما يتعلق بمعجزة عيسى (٢).

الجهة الثالثة:

في علّة صدور المعاجز على يد الأنبياء والأئمة؛ وبعبارة جامعة:

مدعى المنصب الإلهي، والربط بين الإعجاز وصدق مدعيه.

ثمّ على تقدير الربط بين المعجزة وصدق صاحبها فهل ينحصر طريق إثبات الدعوى بالإعجاز أو يمكن إثباتها بوجه آخر؟ ويمكن تحليل الربط بين الإعجاز وصدق صاحبه بأنّه راجع إلى الفطرة والعقل الغريزي؛ فإن تمكين خصوص مدعى منصب خاص بأمر يستلزم الاعتراف بدعواه في بناء العقلاء وفهمهم، ويكون التخلف عن هذه الطريقة بدون الإعلام إغراء للناس. فالربط بين المعجز وبين الصدق إنّما هو في حد اللزوم لا مجرد

١- أصول الكافي ١: ٢٤-٢٥ ورواه في البحار عن العلل والعيون والاحتجاج ١٧: ٢١٠.

٢- نفس المصدر.

ص: ٣٠

المناسبة غير الملزمة. ألا ترى أنه إذا ادعى شخص الوكالة عن أحد بحضرته وجعل الدليل على ذلك تخصيص الموكل له بشيء دون الآخرين كالاستيلاء على مورد الوكالة، وسكت المدعى عليه عن الرد، يكون ذلك دليلاً واضحاً على إمضاء الوكالة وصحتها. ويشهد بما ذكرنا تعبير القرآن عن المعجزة بالبرهان والبينة والآية:

قال تعالى في معجزة موسى عليه السلام: «فَإِذْ أَنْكَرَ بَرَاهَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ» (١).

وقال تعالى في معجزة عيسى عليه السلام: «أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخْ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُتْرِي الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (٢).

وقال تعالى: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ... فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ» (٣).

وأما البحث عن إمكان إثبات الدعوى بغير الإعجاز، فالظاهر أنه كذلك حيث إنه يمكن تصديق المدعى، بسبب الإلهام أو إخبار صادق محقق؛ ولذا بشر بعض الأنبياء ممن سلف بمن يأتي بعده مشفوعاً ببيان علائم تعين من بشر به. نعم الإلهام وإخبار الصادق قد ينتهيان إلى الإعجاز.

وهناك من يدعى أن طريق إثبات النبوة هو موافقة أحكام الشريعة مع النظام والفطرة، بل يعتبرون ذلك هو الإعجاز، وأما ما يصدر على أيدي أصحاب الرسالات من خوارق فهي أمور لا حاجة إليها بل ربما قيل: إنها لاغية غير عقلانية. وهذه الدعوى وإن أمكن الموافقة عليها في شطرها الأول؛ إن لم يكن المقصود منها الحصر استطرافاً إلى إبطال المعجز. ولكنها باطلة في شطرها الأخير.

١- القصص: ٣٢.

٢- آل عمران: ٤٣.

٣- الأنعام: ١٥٨.

ص: ٣١

وهناك بحث في إمكان صدور المعجزة من غير الصادق في دعواه لايهمّ التعرض له، والحق أنّه لا محذور في تمكّن غير الصادق ممّا لا- يتمكّن منه الناس عموماً إذا لم يستلزم إغراءً للناس ولا- إغوائهم حسبما حققناه آنفاً من ملاك اعتبار الإعجاز؛ لكون دعوى غير الصادق مشفوعة بحجّة عقلية تبطل دعواه. وإن كان في التعبير عن مثل هذا الخارق بالمعجزة مسامحةً. ويشهد لما ذكرنا قصّة السامري واستجابة بعض الدعوات وغير ذلك ممّا شهد به القرآن وغيره.

الجهة الرابعة:

في إمكان الإعجاز وتعلّله وهل أن المعجزة توافق قانون العلّة والمعلول واحتياج المعلول إلى العلّة أو أنّها تخالفها وتضادّها؟ وقبل البحث عن موافقة الإعجاز لقانون العلّة لابد من بحث إجمالي عن هذا القانون ومضمونه ومدى صحته ثمّ مقياسه الإعجاز معه فنقول:

إن قانون العلّة أمر بديهى فطرى مسلّم قبل أن يكون مؤيداً بحكم العقل.

ويعترف به كلّ ذى عقل سليم بل كلّ ذى شعور كالحيوانات وإن لم تكن ذوات عقول. وحقيقته هذا القانون هو امتناع تحقّق الحادث والممكن في ذاته بدون علّة تحدّثه وتفيض وجوده- ولا تفيض الوجود عليه- فإن الممكن ليس شيئاً قبل تحقّقه ليكون قابلاً لفيض، بل هو عدم محض كالممتنع، إلّا أن الممتنع لا يمكن تحقّقه أصلاً والممكن يتحقّق بسبب العلّة، فنسب الوجود والعدم إلى الممكن إذا كانت واحدة لا يعقل ترجيح الوجود على العدم إلّا بعلّة من خارج الذات. وأمّا ترجح العدم فيكفى له عدم وجود مرجح الوجود فعدم علّة الوجود علّة العدم. فليس العدم أيضاً فاقداً للعلّة فما ظنّك بالوجود.

فقانون حاجة الممكن إلى العلّة في وجوده أمر ضرورى لا- مجال لإنكاره بعد بدايته وكونه مفطوراً لدى الناس بل غريزياً لذوى الشعور.

ولا- مناص من تحليل المعجزة وتصويرها بما لا يتنافى مع هذا القانون. وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم مع تصديقه الإعجاز يصدّق القانون المتقدم، بل هذا القانون هو من جملة ما يعتمد عليه القرآن بجّد وأصاله في إثبات حاجة العالم

ص: ٣٢

والسماوات والأرض إلى مبدأ وعلّة. ونحن - رعاية للاختصار - نشير إلى بعض الآيات المشيرة إلى قانون العلة والتي تعترف به صراحة:  
 ١- قال تعالى: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ» (١).

ومفهوم الآية أنّه كيف تنكرون العلة وقانونها مع وضوح الحدوث فيكم وأنكم لم تكونوا ثم وجدتم؟!!

٢- وقال تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ» (٢).

والمعنى أنّهم هل وُجدوا بدون علة توجدهم أم أنّهم العلة لوجود أنفسهم فباشروا إيجاد نفوسهم. ثم السماوات والأرض هي أيضاً بحاجة إلى علة، فهل إنهم خلقوها؟ وإذا لم يكونوا خالقين للسماوات فلا مناص لهم من الاعتراف بوجود خالق لها وهو الله. وقد نبه الله على هذا القانون بمجرد السؤال ولم يباشر بالإجابة إحالةً للجواب إلى الوضوح كما في قوله تعالى: «هَلْ يَشْفِي الَّذِينَ يَدْعُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ» فالقرآن لا يعترف بقانون العلة فقط، بل بوضوحه وبداهته أيضاً.

ولا بأس بالإشارة إلى بعض الأخبار الدالة على الاعتراف بقانون العلة:

ففي رواية عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال في الربوبية العظمى ثم الإلهية الكبرى: «لا يكون الشيء لا من شيء إلا الله...» (٣).

والاستثناء في الخبر ليس عن قانون العلة فإنّها لا تقبل الاستثناء، بل هو استثناء عمّا هو أعم من القانون فيكون استثناء وجود الله بغير علة من الاستثناء المنقطع فلا تغفل.

إذا تمهد شأن قانون العلة نأتى إلى مسألة المعجزة وشأنها مع القانون الآنف

١- البقرة: ٢٨.

٢- البقرة: ١٦٤.

٣- البحار ٤: ١٤٨، الحديث ٢.

ص: ٣٣

فبقول: الإعجاز من الحوادث والوجودات الممكنة فلا- مناص له من الاندراج فى القانون المتقدم، وبالتىجة لا يجوز وقوع الإعجاز بدون علّة. ولم يدّع أصحاب المعاجز ولا المعترفون لهم بها أن المعجزات تصدر بلا علّة، وإنّما الذى يدعى هو: اختلاف علّة المعاجز عن ساير العلل وأن علّة المعجزة فى انحصار وليس فى يد عامّة الناس.

فالمعجزة توسعة لموضوع قاعدة العلّة وقانونها، لا توسعة للحكم بدون موضوع. وليس هناك فى العقل ما يحصر العلّة فى خصوص شىء. بل وجود علل متعددة لحدث واحد فى الكون دليل واضح على عدم لزوم انحصار العلّة فى شىء واحد.

فإذا وجدت علل متعددة كونية عامية لبعض الأحداث، فما المانع من وجود علّة أو علل كونية خاصة لذلك الحادث؟ ولا ضرورة لكون العلل بأسرها فى يد عامّة الناس، فالحرارة لها علّة ينالها الناس هى النار ولها علّة خارجة عن منالهم هى الشمس. وتوليد الأمثال فى الإنسان بصورة وفى النبات بصورة أخرى وفى بدء الخلق كان بصورة غير دوامه.

والصعود لبعض الأشياء بالسلاالم ولبعضها بالطيران ولبعضها بالطفرة ولا مانع أن يكون لبعض بإرادة.

فاتضح أن المعجزة لا تخرق قانون العلّة وإنّما توسّع موضوعها.

وما فى بعض الكلمات من أن الواحد لا يصدر إلّامن واحد، يراد بذلك أنه لا بد من مسانحة بين المعلول والعلّة، وتكون جهة مشتركة بين العلل المختلفة لتأثيرها فى معلول واحد، ولا يراد بذلك عدم إمكان صدور واحد من أشياء متعددة مختلفة بالصورة.

ثم إنه لو فرض إمكان التخلف فى المعاجز عن قانون العلّة لم تفعل المعجزة أثرها المطلوب، فإن المعجزة لا تؤثر فى إثبات الدعوى إلّإذا انضم إليها قانون العلّة، وتوضيح ذلك:

ص: ٣٤

إن المعجزة إنما تثبت صدق صاحبها إذا كان التأثير في الكون ثابتاً عبر العلل والضوابط، وإلا فلو أمكن الهرج فلا يمكن الاستناد إلى المعجزة في صدق صاحبها بعد احتمال صدور ما يسمّى بالمعجزة بدون ضابط وقاعدة.

إذن، فإنكار الإعجاز لا يستند إلى إثبات قاعدة العلة، بل هو مستند إلى دعوى انحصار العلة في العلل المأنوسة وهذا غير قاعدة العلة. وربما كان تفسيراً لها ولكنه تفسير باطل. وكان هذا التفسير هو مقصود الكفار في قضيتهم ولادة المسيح عليه السلام، حيث إن العلة المتعارفة لتوليد النسل هو الولادة من الأب، فردّ عليهم في القرآن الكريم: «إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (١)

وكأنه على التفسير الموهوم المتقدم لقانون العلة أنكر الكفار المعاد حيث ذكروا أنه: «أ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» ولم يكن ذلك بدعاً منهم «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ \* لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَ آبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» (٢).

وقد ردّ عليهم بوجه:

الوجه الأول:

عدم انحصار قانون العلة في خصوص العلل المأنوسة ليستلزم إنكار المعاد.

الوجه الثاني:

تعدد نظام العلل المأنوسة في الحياة المادية، ولهذا قيس المعاد والحياة الأخرى على الحياة النباتية التي تختلف عن الحياة الحيوانية.

قال تعالى: «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِيهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٣).  
«وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ

١- آل عمران: ٥٩.

٢- راجع سورة الحج: ٨١ وما بعدها، وغير هذه السورة أيضاً.

٣- الروم: ٥٠.

ص: ٣٥

الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ» (١).

وقال تعالى: «وَ أَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ» (٢).

وقال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٣).

الوجه الثالث:

اعتبار التمكن من أمر دليلاً على التمكن من إعادته وتكراره.

قال تعالى: «وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ \* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ» (٤).

وقال تعالى: «أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى \* أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مِيٍّ يُمْنَى \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى \* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالْأُنثَى \* أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى» (٥).

الوجه الرابع:

الاستدلال لإثبات المعاد بالتمكن والقدرة الزائدة على إيجاد الحياة الأولى.

قال تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُ خَلْقُهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ» (٦).

وقد جمع بين الوجهين الثاني والثالث في سورة الحج (٧).

فاتضح بما قرناه بطلان حساب منافاة الاعتراف بالمعجزة للاعتراف بقانون العلة التي لا مناص منها في إثبات المبدأ وغيره.

وربما ايدت دعوى بطلان المعجزات بأن المعجزة تنافي بعض الآيات عدا عن

١- الفاطر: ٩.

٢- ق: ١١.

٣- فصلت: ٤٩.

٤- يس: ٧٨ و ٧٩.

٥- القيامة: ٣٦- ٤٠.

٦- الأحقاف: ٣٣.

٧- الحج: ٥.



ص: ٣٦

منافاتها لقانون العلم، قال تعالى: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا\* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا\* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا\* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْفَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِذِيكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» (١).

فزعم أن المراد من قوله: هل كنت إلبشراً، هو إنكار إمكان المعجزة وكونها تخلفاً عن نظام الكون والعلل.

وربما زيد لإثبات الدعوى المتقدمة، الاستدلال بقوله تعالى: «وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا» (٢).

ويرد على هذه المغالطات أن آية سورة الإسراء لا- ربط لها بإنكار المعجزة، وإنما هي بصدد الرد على شهوات الكفار واقتراحاتهم وأهوائهم، وأن الرسول بشر لا يقدر على ما يريد الناس وتهواه نفوسهم (٣).

وأما آية سنّة الله فواضح عدم إنكارها للمعجزة بعد كون المعجزة أيضاً من سنن الله في إثبات الرسالات فكانت الآية مثبتة لها لانافية إياها.

الجهة الخامسة:

في صدور المعجزة ووقوعها خارجاً من الأنبياء والأولياء بعد ما تقدم من إمكانها وعدم المحذور فيها.

لا ينبغي الريب في صدور امور خارقة للعادة لا توافق القوانين العامة الطبيعية، على مّر الدهور السالفة، من اناس عرفوا بالنبوة والصلاح والسداد، وقد كثر النقل والحكاية على أيدي الثقات والصلحاء بما لا يبقى الشك ولا يدع التردد،

١- الإسراء: ٩٠-٩٣.

٢- الفتح: ٢٣ وغيرها.

٣- وهناك بحث قرآني وروائي في كون المعاجز من أفعال أصحاب الرسالات أو هي فعل الله مباشرة مقارنة لدعواهم لايهمنا؛ حيث لا يؤثر في الجهات المقصودة في المقام، وظاهر الآيات والنصوص هو وقوع الأمرين، وقد فصلنا الكلام في بعض الرسائل.

ص: ٣٧

وهذا ما يصطلح عليه بالتواتر الإجمالي؛ فإن المعجزات لو فرض عدم تواترها بأشخاصها لفظياً أو معنوياً ولكنها متواترة إجمالاً بمعنى أنه يمتنع تواطؤ هذا العدد الكبير على الكذب في الأمور المختلفة والمتباينة بغض النظر عن وثاقه الرواة والنقله، فكيف مع فرض وثاقتهم وصلاحتهم؟!

هذا، مع أنه يمكن أن يقال: إن شأن نبي الإسلام والقرآن وأهل بيته لدى المنصفين هو شأن يفيد الوثوق بما يخبرون به بعدما عرفوا لدى عامة الناس بالوثاقة والأمانة حتى لمن لا يعترف لهم بالنبوة والإمامة. وقد أسمعناك اعتماد الأنبياء - حسب حكاية القرآن - في إقناع الأمم على كونهم امناء ثقات لدى الناس بغض النظر عن دعوى الرسالة التي أورتهم التهمة.

وبناء العقلاء في مثل ذلك على الاعتماد والركون لولا التعتت والعدا.

وعلى هذا الأساس تفيد إخبارات القرآن وأخبار نبي الإسلام والأئمة من أهل بيته العظام، الوثوق بما أخبروا به بالغض عن ضم أخبار سائر الأنبياء والامناء فلا يكاد يقلّ الوثوق الحاصل من ذلك لليهود والنصارى عما يحصل لهم من التوراة والأنجيل الموجودة؛ هذا. سيما وقد صدق القرآن والنبي والأئمة من أهل بيته المنصفون من اليهود والنصارى وسائر النحل في أخبارهم وحكاياتهم، وليس هنا مجال تفصيلها فراجع كتاب عيون أخبار الرضا وغيره.

ثم إن أخبار الأنبياء والأوصياء وإن لم تصل إلينا مباشرة لكنها وصلتنا بواسطة الثقات من الناس ممن عرفوا بالصلاح والأمانة - هذا بالغض عن التواتر في أسانيد الأخبار - حتى أنك ترى أن من يخالفهم في الدين أو المذهب يعترف لهم بالصدق والأمانة كما كان يعترف لسادتهم ومواليهم من الأنبياء والأوصياء من لا يصدقهم في دعوى النبوة والإمامة.

وقد جمع الإمام شرف الدين العاملي في كتاب المراجعات طائفة من الشيعة ممن استند إليهم أهل السنة في الروايات لصدقهم وورعهم بعد أن رموهم بالرفض والتشيع واتهموهم بالغلو والإفراط وما شابهها، ولو أنهم كانوا يرمونهم بالكفر

ص: ٣٨

والزندقه كان أهون عليهم، ومع ذلك اعتمدوا عليهم لما لم يجدوا بُدّاً من ذلك لأمانتهم وورعهم، وذكر في المراجعات أن هذا العدد- وقد أنهاه إلى مائه- هم بعض الشيعة ممن يعتمد عليهم أهل السنّة، وإلا فهناك غيرهم ممن يعتمدون عليهم من الشيعة. ونظير ما في المراجعات ما ذكره العلامة الأميني صاحب الغدير.

والغرض من هذا البيان هو أنه لا- ينحصر الاعتماد على أرباب الأديان لمن يوافقهم في الدين والملة، ولا يتوقف التعويل على أهل مذهب على موافقتهم في النحلة بل يجوز لغيرهم الاعتماد عليهم بعدما كان يعتمد المخالف لهم في المذهب عليهم؛ لكونهم ثقات في القول متورعين عن الكذب، فلا يكون إثبات المعاجز بإخبار أصحاب المذاهب دورياً ولا أن حكايتها بواسطة منتحلي الأديان لغواً؛ هذا.

وهناك بعض المعجزات خالده حية يمكن الوقوف عليها بالمباشرة بلا حاجة إلى نقل أو حكاية، ولا تتوقف الإحاطة بها على إخبار أو رواية، وقد تقدّم أن بعضهم أنكر الحاجة إلى الامور الخارقة للعادة من قبيل إحياء الموتى واعتبر الإعجاز ما كان من قبيل نظم الأحكام الثابتة في الشريعة وموافقتها للفترة.

ومن جملة المعاجز المعاصرة للأجيال هو القرآن الكريم الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»، وهي معجزة خالده بحفظ الله، حيث قال: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

ص: ٣٩

لِحَافِظُونَ»، وقد تحدى البشر فى دعوته حيث قال: «وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّمَّنْ لَمِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». وسيأتى بعض الكلام فى ذلك فى الفصل الآتى إن شاء الله تعالى.

الفصل الثانى: فى إعجاز القرآن الكريم

وتفصيل البحث فيه محوّل إلى مجال آخر والذى نحن بصدده هو أن من جملة وجوه إعجاز القرآن هو صدوره على يد رجل أمى معروف هو وقومه بذلك مع ما اشتمل عليه القرآن من المعارف التى تنبىء عن علم صاحبه، بل قد حوى حقائق تحكى عن عظيم علومه.

وقد وُصف النبى صلى الله عليه وآله بالامية فى القرآن وغيره من الحديث والسير، بل هو من أوصافه المعروفة وقد تكرر فى القرآن ذكره:

١- قال تعالى: «قَالَ عِذَا بِي أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءٍ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ\* الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ\* قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ» (١).

٢- وقال تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» (٢).

١- الأعراف: ١٥٦-١٥٨.

٢- الجمعة: ٢.

ص: ٤٠

٣- وقال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ مَا يَجْعَلُدُ بآيَاتِنَا إِلَّا الْكَاْفِرُونَ\* وَ مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخْطُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ\* بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ» (١).

والمعروف أن الأمي هو الذي لا يعرف الكتابة ولا قراءة الكتب ويحتمل أن يكون معناه هو من لا يعرف العلوم المفتقرة إلى الكسب والتعلم الموقوفة عادة على القراءة والكتابة، ويكون عدم معرفة الكتاب والقراءة أمانة على الأمية.

قال ابن منظور: الأمي الذي لا يكتب. قال الزجاج: الأمي الذي على خلقه الأمة، لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته. قال أبو إسحاق: معنى الأمي، المنسوب إلى ما عليه جبلته أمه، أي الذي لا يكتب فهو في أنه لا يكتب، أمي؛ لأن الكتابة هي مكتسبة فكأنه نسب إلى ما يولد عليه أي على ما ولدته أمه عليه. وكانت الكتابة في العرب من أهل الطائف تعلموها من رجل من أهل الحيرة وأخذها أهل الحيرة عن أهل الديار.

وفي الحديث: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب، أراد أنهم على أصل ولادة أمهم، لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى.

وفي الحديث: بعثت إلى أمة أمية. قيل للعرب: الأميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة. ومنه قوله: «في الاميين رسولاً منهم...». وقيل لسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله الأمي؛ لأن أمة العرب لم تكن تكتب ولا تقرأ المكتوب وبعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الحالة إحدى آياته المعجزة لأنه صلى الله عليه وآله تلا عليهم كتاب الله منظوماً تارة بعد أخرى

ص: ٤١

بالنظم الذى أنزل عليه فلم يغيره ولم يبدل ألفاظه؛ وكان الخطيب من العرب إذا ارتجل خطبة ثم عادها زاد فيها ونقص فحفظه الله عز وجل على نبيه كما أنزله وأبانه من سائر من بعثه إليهم بهذه الآية التى باين بينه وبينهم بها ففى ذلك أنزل الله تعالى: «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُضِلُّونَ»، الذين كفروا ولقالوا: إنه وجد هذه الأقايصص مكتوبة حفظها من الكتب (١).

وقال الطريحي: الأُمى فى كلام العرب الذى لا كتاب له من مشركى العرب (٢).

وقال الراغب: ويقال لكل ما كان أصلاً لوجود شىء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه: أم وقيل: سُمى بذلك لنسبته إلى أم القرى (٣).

وعن القاموس: أم القرى مكّة؛ لأنها توسطت الأرض فيما زعموا، أو لأنها قبله الناس يؤمنونها أو لأنها أعظم القرى شأنًا (٤).

وفى المصباح: الأُمى فى كلام العرب الذى لا يحسن الكتابة، فقيل: نسبة إلى الأم، وقيل: نسبة إلى أمّة العرب؛ لأنه كان أكثرهم أميين (٥).

وفى دائرة المعارف الإسلاميه: الأُمى عند العرب هو الذى لا يكتب... قال أبو حيان فى تفسير البحر المحيط: الأُمى الذى لا يقرأ فى كتاب ولا يكتب... وقد ثبت بالتواتر الذى لا شك فيه أن النبى صلى الله عليه وآله كان أمياً بمعنى أنه لا يعرف القراءة والكتاب (٦). وقال العلامة المجلسى فى البحار: «ومن أسمائه صلى الله عليه وآله الرسول النبى الأُمى، إلى قوله: وأما الأُمى فقال قوم: إنه منسوب إلى مكّة وهى أم القرى كما قال تعالى:

«بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا»، وقال آخرون: أراد الذى لا يكتب؛ قال ابن فارس:

وهذا هو الوجه لأنه أدل على معجزة إلى قوله: وروى عنه: نحن أمه أمية لا نقرأ

١- لسان العرب.

٢- مجمع البحرين.

٣- المفردات.

٤- القاموس.

٥- المصباح.

٦- دائرة المعارف، محمد بن جرير الطبرى، التفسير ١: ٢٩٦؛ بولاف.

ص: ٤٢

ولا نكتب. وقد روى غير هذا» (١).

وقال في موضع آخر: وقيل: أمي منسوب إلى أمية يعني جماعة عامة؛ والعامه لا تعلم الكتابة. ويقال: سمي بذلك لأنه من العرب وتدعى العرب الأميون. وقوله تعالى: «هو الذي بعث في الأميين»؛ وقيل: لأنه يقول يوم القيامة: أمتي أمتي.

وقيل: لأنه الأصل وهو بمنزلة الأم التي يرجع الأولاد إليها، ومنه أم القرى. وقيل:

لأنه لأمه بمنزلة الوالدة الشفيقة بولدها فإذا نودي يوم القيامة: يوم يفر المرء من أخيه، تمسك بأمته. وقيل: منسوب إلى أم وهي لا تعلم الكتابة لأن الكتابة من أمارات الرجل. وقالوا: نسب إلى أمه يعني الخلقة قال الأعشى:

وإن معاوية الأكرمين حسان الوجوه طوال الأمم

قال المرتضى في قوله تعالى: «وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ»: ظاهر الآية تقتضى نفي الكتابة والقراءة بما قبل النبوة دون ما بعدها،

ولأن التعليل في الآية يقتضى اختصاص النفي بما قبل النبوة لأنهم إنما يرتابون في نبوته لو كان يحسنها قبل النبوة فأما بعدها فلا تعلق

به بالرؤية فيجوز أن يكون تعلمها من جبرئيل بعد النبوة ويجوز أن لم يتعلم فلا نعلم. قال الشعبي وجماعة من أهل العلم: ما مات رسول

الله صلى الله عليه وآله حتى كتب وقرأ. وقد شهر في الصحاح والتواريخ قوله صلى الله عليه وآله: إيتوني بدوات وكتف أكتب لكم

كتاباً لن تضلوا بعده أبداً (٢).

وقال في موضع ثالث: قال الطبرسي رحمه الله: الأمي، ذكر في معناه أقوال: أحدها الذي لا يكتب ولا يقرأ. وثانيها: إنه منسوب إلى

الأمه والمعنى أنه على جبله الأمه قبل استفادة الكتابة وقيل: إن المراد بالأمه العرب لأنها لم تكن تحسن الكتابة.

وثالثها: إنه منسوب إلى الام والمعنى أنه على ما ولدته أمه قبل تعلم الكتابة.

ورابعها: إنه منسوب إلى أم القرى وهو مكة وهو المروى عن أبي جعفر عليه السلام.

١- بحار الأنوار ١٦: ١١٩.

٢- بحار الأنوار ١٦: ١٣٥.

ص: ٤٣

وفى قوله تعالى: «إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ» أى ولو كنت تقرأ كتاباً أو تكتبه لوجد المبطلون طريقاً إلى الشك فى أمرك ولقالوا: إنما يقرأ علينا ما جمعه من كتب الأولين.

قال السيد المرتضى قدس سره: هذه الآية نزلت على أن النبى صلى الله عليه وآله ما كان يحسن الكتابة قبل النبوة، وأما بعدها فالذى نعتقده فى ذلك: التجويز لكونه عالماً بالقراءة والكتابة، والتجويز لكونه غير عالم بهما من غير قطع على أحد الأمرين. وظاهر الآية تقتضى النفى بما قبل النبوة لأن المبطلين إنما يرتابون فى نبوته صلى الله عليه وآله لو كان يحسن الكتابة قبل النبوة فأما بعد النبوة فلا تعلق بالريبة والتهمة فيجوز أن يكون قد تعلمها من جبرئيل عليه السلام بعد النبوة (١).

أقول: يظهر من هذا الكلام أن ما نسبه بعض المتأخرين إلى السيد المرتضى من كون النبى صلى الله عليه وآله أمياً بعد البعثة أيضاً ليس تاماً وأن السيد متوقف فى المسألة.

ثم إن صاحب البحار ذكر روايات يدعى ظهورها فى أن النبى صلى الله عليه وآله كان لا يكتب ولا تنفى القراءة. وأيضاً ذكر روايات تنفى كونه صلى الله عليه وآله أمياً فى القراءة والكتابة ثم قال:

«بيان: يمكن الجمع بين هذه الأخبار بوجهين: الأول: أنه صلى الله عليه وآله كان يقدر على الكتابة، ولكن كان لا يكتب، لضرب من المصلحة. الثانى: أن نحمل أخبار عدم الكتابة والقراءة على عدم تعلمها من البشر وسائر الأخبار على أنه كان يقدر عليها بالإعجاز.

وقال: وكيف لا يعلم من كان عالماً بعلوم الأولين والآخرين أن هذه النقوش موضوعه لهذه الحرف (٢).

وقال الرازى فى تفسيره: قال الزجاج: معنى الأمى الذى هو على صفة أمه

١- المصدر نفسه: ٨٣-٨٤.

٢- المصدر نفسه: ١٣٤.



ص: ٤٤

العرب، قال عليه الصلوة والسلام: إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب. فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون والنبى عليه الصلوة والسلام كان كذلك فلهذا السبب وصفه بكونه أمياً (١).

وقال فى تفسير نمونه (الأمثل) ما ترجمته:

والخطأ الذى ينبغى التجنب عنه هو أن عدم الدراسة لا يعنى عدم العلم والذين يفسرون لفظه الأتى بعدم العلم كأنهم لم يلتفتوا إلى الفرق بين الأمرين، فإنه لا مانع من علم النبى صلى الله عليه وآله بتعليم إلهى - بالقراءة أو بها وبالكتابة من دون أن يكون تعلم ذلك من إنسان... إلى أن قال:

١- لم يتعلم النبى صلى الله عليه وآله القراءة والكتابة من إنسان قطعاً.

٢- لا دليل صحيح أو معتبر فيما بأيدينا على أن النبى صلى الله عليه وآله كتب شيئاً أو قرأ قبل النبوة ولا بعدها.

٣- لا ينافى هذا كون النبى صلى الله عليه وآله قادراً على القراءة والكتابة بتعليم إلهى (٢).

إذا عرفت ما مهّدناه، فالبحت عن كون النبى صلى الله عليه وآله أمياً تارة بملاحظة حاله صلى الله عليه وآله قبل البعثة وأخرى بعدها فالكلام فى مقامين:

وتمهيداً للبحث نقل بعض كلمات أصحاب التاريخ فيما يتعلّق بالوضع العام لثقافة العرب بشأن العلم والكتابة؛ قال جرجى زيدان: لم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون الكتابة إلا - نقرأ قليلاً ولم يكن كتابتهم بالأحرف العربية المعروفة اليوم وإنما كانوا يكتبون بالأحرف العبرانية أو بالأحرف النبطية. ولما ظهر الإسلام، لم يكن يكتب بالعربية إلا بضعة عشر إنساناً كلهم من الصحابة، ومنهم على بن أبى طالب، وعمر بن الخطاب، وطلحة، وعثمان، وأبوسفيان، وولداه، ومعاوية ويزيد وغيرهم، فكان على وعثمان وزيد بن ثابت وعبدالله بن الأرقم، ممن كتب للنبى، لأنه لم يكن يكتب ولا يقرأ، فكتبوا له سور

١- تفسير الرازى، سورة الأعراف: ١٥٧.

٢- تفسير الأمثل: ذيل سورة الأعراف: ١٥٧.

ص: ٤٥

القرآن والكتب التي خاطب بها الملوك يدعوهم إلى الإسلام. وكان بعضهم يكتب له حوائجه والبعض الآخر يكتبون بين الناس في المدينة والبعض الآخر يكتبون بين القوم في مياهم وقبائلهم وفي دور الأنصار من الرجال والنساء. ولما تولى أبوبكر، كان عثمان بن عفان كاتبه يكتب له الكتب إلى العمال والقواد وصارت الكتابة من مناصب الحكومة (١).

وقال أيضاً: ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدل على أنهم كانوا يعرفون الكتابة قبل الإسلام مع أنهم كانوا محاطين شمالاً وجنوباً بأمم من العرب خلّفوا نقوشاً كتابية كثيرة وأشهر تلك الامم حَمِير في اليمن، والأنباط في الشمال، والسبب في ذلك أن الحجاز أو عرب مضر كانت البداوة غالبية على طباعهم والكتابة من الصنایع الحضريّة... فجاء الإسلام والكتابة معروفة في الحجاز ولكنها غير شائعة فلم يكن يعرف الكتابة في مكة إلا بضعة عشر إنساناً أكثرهم من كبار الصحابة (٢).

وقال في تاريخ الجاهلية: والجاهليون كانوا اميين لا يخطون ولا يقرأون الخط وخصوصاً في البادية. على أن هذا لا يعنى أن القراءة والكتابة كانتا مجهولتين لقد كانتا معروفتين في القرى وفي البادية ولكن لم تكونا شائعتين (٣).

إذا عرفت ما تمهد للكلام يقع في المقام الأول وهو فيما يتعلق بشأن النبي صلى الله عليه وآله قبل البعثة فهل كان أمياً أبجدياً آنذاك أو لا؟

المعروف بين أصحاب السير- بل الظاهر أنه متفق عليه بينهم- أنه صلى الله عليه وآله قبل النبوة كان أمياً لا يقدر على قراءة ولا كتابة وكان كعامة قومه في هذا الوصف وإن كان بارزاً عنهم في أوصاف نفسية كمالية كالصدق والأمانة والخلق العظيم، وكان يعترف له بذلك الناس. وقد تقدم بعض الكلمات فيما يرتبط بذلك.

وربما نسب إلى بعض خلاف ذلك، وأن النبي صلى الله عليه وآله في هذا المقطع من عمره

١- تاريخ تمدن اسلامى ١: ٢٥٣.

٢- تاريخ آداب اللغة العربية ٢: ١٩٧.

٣- تاريخ الجاهلية: ١٦٤.

ص: ٤٦

الشريف لم يكن أمياً أبجدياً بل كان قادراً على القراءة والكتابة.

ونحن لا نتابع هذه المسألة لمجرد معرفته التاريخ، بل الذى يدفعنا إلى هذا البحث والتنقيب هو أهمية المسألة من حيث ارتباطها الوثيق بشأن إعجاز القرآن ومعارف الإسلام ودفع الشبهة عن حقيقة هذا الدين الحنيف، فلذا يكون البحث عن ذلك بحثاً كلامياً وممارسة ذلك مسألة عقائدية.

والذى يدل على كونه صلى الله عليه وآله أمياً أبجدياً قبل البعثة أمور:  
الأمر الأول:

عدم حكاية قدرة النبي صلى الله عليه وآله على القراءة والكتابة فى تاريخ صحيح ولا غيره مع ما ذكر فيه بشأن من كان من العرب يقرأ ويكتب وحصرهم فى عدد قليل لا يتجاوز عدد الأصابع معينين بأسمائهم ليس هو صلى الله عليه وآله منهم؛ ومع هذا الوصف لو كان صلى الله عليه وآله غير أمى لكانت سنة التاريخ تقتضى ذكره مع وجود دواعى كثيرة على ذلك، ومن جملتها دواعى المخالفين لنبوته، حتى أنهم ذكروا فى هذا المجال بعض أسفاره إلى الشام وأنه لقي بعض علماء أهل الكتاب فى سفره أو غيره فتعلم منه ما جاء به من القرآن، كما اشير إليه فى الكتاب قال تعالى: «لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ».

ص: ٤٧

وقد عدّ هذا الدليل بعضهم شاملاً لما بعد البعثة واستدلّ به لإثبات كونه صلى الله عليه وآله أمياً بعد البعثة إلا أنه سيأتي البحث عن ذلك.

قال في المحكى عن ويل ديورانت:

الظاهر أنه لم يكن أحد يفكر في تعليمه - أي تعليم النبي صلى الله عليه وآله - القراءة والكتابة، فلم تكن صناعة الكتابة والقراءة ذات أهمية في نظر الأعراب؛ ولهذا لم يكن يتجاوز الذين يعرفون القراءة والكتابة السبعة عشر شخصاً؛ ولنا نعلم أن محمداً صلى الله عليه وآله قد كتب شيئاً بنفسه، لقد كان له كاتب خاص بعد النبوة، ومع ذلك فقد جرى على لسانه أعرق الكتب العربية وأشهرها، وقد عرف دقائق الأمور أفضل بكثير من المتعلمين (١).

الأمر الثاني:

قوله تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ» (٢).

روى في تفسير الصافي عن تفسير القمي أن هذه الآية معطوفة على قول الله تعالى في سورة الفرقان: «وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (٣). فرد الله عليهم بما في هذه الآية.

وكيف كان، فظاهر عدم التلاوة وعدم الخط هو عدم القدرة فإنه المناسب لنفي الارتباب.

الأمر الثالث:

وصف النبي صلى الله عليه وآله بالأمي في الكتاب وغيره؛ فإنه يناسب اتصافه بنفسه بذلك لا باعتبار اتصاف قومه به. قال تعالى:

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» (٤)، وقال تعالى: «فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» (٥).

١- قصة الحضارة حكاها الشهيد المطهرى في كتاب: النبي الأمي: ٧.

٢- العنكبوت: ٤٨.

٣- الفرقان: ٥.

٤- الأعراف: ١٥٧.

٥- الأعراف: ١٥٨.

ص: ٤٨

ولكن الاستدلال مبنى على كون الأُمِّيَّة بمعنى عدم العلم بالكتابة والقراءة، وسيأتى إن شاء الله تعالى بعض الاحتمالات الأخرى في معناه، وناهيك في هذا المجال صحيح معاوية بن عمَّار عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ» قال: «كانوا يكتبون ولكن لم يكن معهم كتاب من عند الله ولا بعث إليهم رسولاً فنسبهم إلى الأميين» (١).

الأمر الرابع:

بعض النصوص:

منها: ما رواه في تفسير الصافي عن العيون بإسناده عن الرضا عليه السلام في حديث:

«ومن آياته أنه كان يتيماً فقيراً راعياً أجيماً لم يتعلم كتاباً ولم يختلف إلى معلِّم، ثم جاء بالقرآن الذي فيه قصص الأنبياء وأخبارهم حرفاً بحرف وأخبار من مضى ومن بقى إلى يوم القيامة».

بناء على أن المراد من عدم تعلُّم كتاب هو ما يشمل الكتابة والقراءة ولا أقل من ظهور عدم اختلافه إلى معلِّم في إثبات المقصود. ومنها: رواية مشهورة عند أهل السنَّة عن النبي صلى الله عليه وآله: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسِبُ». وسيأتى شأن هذا الحديث ودلالته إن شاء الله تعالى.

ومنها: ما روى في التفسير المنسوب إلى العسكري عليه السلام: قال العالم موسى بن جعفر عليه السلام: فلتِمَّا ضرب الله الأمثال للكافرين إلى قوله: «بسورة من مثله» من مثل محمَّد صلى الله عليه وآله من مثل رجل منكم لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرس كتاباً ولا اختلف إلى عالم ولا تعلم من أحد؟ وأنتم تعرفونه في أسفاره وحضره حتَّى بقى كذلك أربعين سنة ثم أُوتى جوامع العلم حتَّى علِّم الأولين والآخرين... وقال علي بن الحسين:

من مثله، مثل محمَّد أُمِّي لم يختلف قط إلى أصحاب كتب وعلم ولا تلمذ لأحد ولا تعلم منه وهو من قد عرفتموه في حضره وسفره؟ (٢).

١- بحار الأنوار ١٦: ١٣٢.

٢- بحار الأنوار ١: ٢١٤.

ص: ٤٩

وقد يستدل لاحتمال عدم أميته صلى الله عليه وآله قبل البعثة بأمور، كقوله تعالى: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (١). وقوله تعالى: (وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ) (٢).

فإنه لو كانت أمية النبي صلى الله عليه وآله أمراً مسلماً لم يكن هناك مجال لاتهامه بما فى الآيتين.

ورد على ذلك: أولاً: بأن الاككتاب أعم من مباشرة الكتابة. وثانياً: إنه لا حد للمكابرة والعصية.

وأما البحث فى المقام الثانى، أعنى ما بعد البعثة وأنه كان أمياً أبجدياً فى هذا المقطع من عمره الشريف أو لا؟

المعروف على الألسن، بل ومال إليه بعض العلماء من الفريقين، أن النبى صلى الله عليه وآله كان بعد البعثة أيضاً أمياً أبجدياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة إلى آخر حياته صلى الله عليه وآله، وربما ادعى على ذلك الإجماع فى بعض الكلمات.

ولكن الإجماع لو كان لا اعتبار به فى مثل هذه المسألة التى هى عقائدية كالمسائل العقلية، مع أنه لا إجماع فى البين بعد تصريح جمع من العلماء بخلاف ذلك.

وكيف كان فقد صرح بالخلاف جمع أو نسب الخلاف إليهم وربما نسب إلى بعضهم التفصيل بين القراءة فأثبتوها والكتابة فأنكروها.

وقد لا ينافى هذا القول تمكنه صلى الله عليه وآله من الكتابة. وتوقف السيد المرتضى فى المسألة حسبما حكاه العلامة المجلسى

واحتتمل زوال الأمية الأبجدية عنه صلى الله عليه وآله بعد البعثة وإن نسب إليه فى بعض الكلمات غير ذلك سهواً. وممن صرح بنفى

الأمية عنه صلى الله عليه وآله هو العلامة المجلسى فإنه بعد أن أشار إلى بعض النصوص التى ربما تنافى ذلك وأولها قال: وكيف لا

يعلم من كان عالماً بعلوم الأولين والآخرين أن هذه النقوش موضوعة لهذه الحروف؟! (٣).

أقول: وهذا القول عندى هو الحقّ الحقيق بالقبول.

١- الفرقان: ٥.

٢- الأنعام: ١٠٥.

٣- بحار الأنوار ١٦: ١٣٤.

ص: ٥٠

فإن الشواهد والحجج توازرت على قدرته صلى الله عليه وآله على القراءة والكتابة بعد النبوة، ومما يدل بوضوح على اختصاص عدم القراءة والكتابة بما قبل البعثة وأنه صلى الله عليه وآله كان قادراً على ذلك بعد البعثة أمور؛ كما وأن هناك أموراً قد يستند إليها في إثبات كونه صلى الله عليه وآله أمياً بعد البعثة كما كان قبلها بمعنى أنه لا يقرأ ولا يكتب. ونحن نذكر هذه الأمور أولاً ثم نتبعها بما يدل على اختصاص الأمية بما قبل البعثة.

فنقول- بعد التوكل على الله:- ما استدل أو يمكن أن يستدل به لكون النبي صلى الله عليه وآله أمياً أبجدياً بعد البعثة أمور، وعمدة الوجه هو: وصف النبي صلى الله عليه وآله بالأمية بعد البعثة وقد تحقق أن المشتق حقيقة في خصوص المتلبس بالمبدأ مجاز في ما انقضى عنه؛

قال تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» (١). وقال تعالى: «فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ» (٢).

والاستدلال مبنى على كون معنى الأمي هو الأمية الأبجدية وإذا ثبت بل واحتمل وجود معنى آخر له يكون الاستدلال ساقطاً، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يدل بوضوح على كون الأمي بمعنى آخر.

وقد يستدل لكون النبي صلى الله عليه وآله أمياً بعد الرسالة ببعض الأخبار مثل رواية الحسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «كان ممّا منّ الله عزّ وجلّ به على نبيه صلى الله عليه وآله أنه كان أمياً لا يكتب ويقرأ الكتاب» (٣).

وفي معنى الخبر احتمالان: الأوّل: أن تكون الواو في قوله: ويقرأ الكتاب، حاليةً عطفاً على النفي لا- على خصوص المنفى. والمعنى عليه: أن من منن الله على النبي صلى الله عليه وآله أنه مع كونه أمياً لا يكتب مع ذلك كان يقرأ الكتاب.

وعلى هذا التقرير يبتنى الاستدلال بالخبر على زعم من ذهب إلى أن

١- الأعراف: ١٥٧.

٢- الأعراف: ١٥٨.

٣- رواه الصدوق في العلل.

ص: ٥١

النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ ولا يكتب.

الثاني: عطف ويقرأ على المنفى أعنى قوله: يكتب، والمعنى أنه صلى الله عليه وآله كان لا يكتب ولا يقرأ.

والاستدلال بالخبر لكون النبي صلى الله عليه وآله أمياً أبجدياً يبتنى على هذا التقرير.

ولكن كلا المعنيين بعيدان، لعدم مناسبة الأمية على التقديرين مع الامتنان على النبي صلى الله عليه وآله بسببها.

ولذلك يحتمل في الخبر احتمال ثالث ربما كان هو المتعين وهو الامتنان على النبي صلى الله عليه وآله بسبب اشتماله على العلوم

ومنها القراءة والكتابة بعد ما كان أمياً قبل الرسالة لم يتعلم القراءة والكتابة من أحد.

ويؤكد هذا الاحتمال أنه لم يعهد إطلاق الأمية على القارئ إذا لم يتمكن من الكتابة خاصة. كما ويؤكد هذا الاحتمال أيضاً الحديث

الآتى.

كما أن الامتنان يستدعى زوال الأمية عنه صلى الله عليه وآله بعد الرسالة وإلا فلا موجب للمنة إلا على بعض الوجوه المشتملة على

الكلفة.

وقد يوجه الامتنان في الحديث بما تضمنه قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» ولكن الآية تتضمن الامتنان على الأمية لا على الرسول نفسه. مع أن المنية باعتبار كون النبي صلى الله عليه وآله

منهم وأين هذا من كون المنية باعتبار كونه أمياً مثلهم؟

ومن الروايات معتبرة هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان النبي صلى الله عليه وآله يقرأ الكتاب ولا يكتب».

ولا يبعد اتحاد الخبر مع سابقه فيجرب فيه ما جرى في الخبر المتقدم.

وقد وقع الاشتراك في عدة من وسائط الروايات في الخبرين، ولا يحتمل فيه نفى قراءة الكتاب بعد تقديم القراءة على الكتابة هنا، مع أن

الخبر هذا مصرح بأنه كان يقرأ الكتاب وهو ينافى الأمية. فالاستدلال بالخبر على نفى الأمية أولى.

ونظير معتبرة هشام رواية أخرى في العلل بإسناده عن البرنطى، عن بعض



ص: ٥٢

أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان مما من الله به عز وجل على رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يقرأ ولا يكتب فلما توجه أبوسفيان إلى أحد كتب العباس إلى النبي صلى الله عليه وآله فجاءه الكتاب وهو في بعض حيطان المدينة فقرأه ولم يخبر أصحابه، وأمرهم أن يدخلوا المدينة فلما دخلوا المدينة أخبرهم» (١).

ولا يبعد وحدة الأخبار الثلاثة، وقد عرفت قصورها عن الدلالة على كون النبي صلى الله عليه وآله أمياً. وقد يستدل لدعوى كون النبي صلى الله عليه وآله أمياً بالرواية المعروفة عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب».

وقد صرح في بعض الكلمات بضعفها، وهي على تقدير اعتبارها سنداً قاصرة دلالة على الدعوى بعد احتمال كونها ناظرة إلى مجموع الأمة وعمومها لا آحادها، وقد صرح في التاريخ والسير بوجود عدد قليل ومحدود في العرب لم يكونوا أميين.

هذا كله مع وضوح الروايات النافية للأمية بعد الرسالة دلالة وسنداً وكثرتها عدداً، بل وصراحتها بما لا يقبل التأويل فلا تصلح هذه الروايات لمعارضتها. هذا مضافاً إلى موافقة النصوص النافية للأمية الأبجدية مع القرآن بناءً على ما تقدم تقريره من دلالة بعض الآيات على ذلك.

وعدم منافاتها لوصفه صلى الله عليه وآله بالأمية في بعض الآيات بعد كون الكلمة من الألفاظ المشتركة.

وقد تقدم بيان العلامة المجلسي في الجمع بين هذه الأخبار، فراجع (٢).

ثم إن ما يدل على عدم كونه صلى الله عليه وآله أمياً أبجدياً بعد البعث فهو وجوه:

الوجه الأول:

إن الكتابة والقراءة علم من العلوم والخبرة بهما من الكمالات العاليتين وفقدتها نقص كبير بل هو عيب فاحش، وقد ورد في روايات واضحة

١- بحار الأنوار ١٦: ١٣٣.

٢- المصدر نفسه: ١٣٤.

ص: ٥٣

اشتمال النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته على جميع علوم الأنبياء.

فلنا في المقام دعويان: إحداهما أن الكتابة والقراءة علم وفضيلة.

ثانيتها: اشتمال النبي صلى الله عليه وآله على جميع علوم السلف.

أمّا الدعوى الأولى: فهي واضحة لا تحتاج إلى إثبات ومن الغريب ما في بعض الكلمات من إظهار التردد فيها أو دعوى خلافها.

وكيف لا تكون القدرة على القراءة والكتابة فضيلة بعد ما كان العلم بسائر اللغات ولغة الحيوانات من معجز الأنبياء والأولياء.

وكيف كان: فقد أنكر فضل العلم بالكتابة والقراءة بعض مقاربي عصرنا (١) واستظهر ذلك من ابن خلدون حيث ذكر في المقدمة:

كان النبي صلى الله عليه وآله أمياً وكان ذلك كمالاً له لأنه كان يتلقى العلم من السماء. نعم الأمية نقص لنا لاستلزامها الجهل بالنسبة

إلينا (٢). وهذه الدعوى مكابرة مع الوجدان.

وقد ورد في بعض النصوص أن أول من خط بالقلم هو إدريس النبي عليه السلام.

روى الصدوق في الخصال والمعاني فيما حكاه في سفينة البحار عن أبي ذر رحمه الله قال: قلت يا رسول الله كم النبيون؟ قال: مائة ألف

وأربعة وعشرون ألف نبي؛ قلت: كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً؛ قلت: من كان أول الأنبياء؟ قال: آدم عليه

السلام؛ قلت: وكان من الأنبياء مرسلًا؟ قال: نعم خلقه الله عز وجل بيده ونفخ فيه من روحه؛ ثم قال يا أبا ذر! أربعة من الأنبياء

سريانين: آدم وشيث وأخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بالقلم ونوح عليه السلام... (٣).

ولا يبعد ظهور هذا الخبر في كون الخط كان إلهاماً إلهياً لنبيه، كما ويظهر من بعض الأخبار كون التكلم ومنه العريته أيضاً كان إلهاماً،

ويؤكداه - بعيداً عن

١- الشيخ مرتضى المطهرى في كتابه المترجم النبي الأسمى. فإنه ذهب إلى ذلك وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يقرأ

أويكتب في عصر البعثة، صرح بذلك في الصفحة ١٠ و ١٥ وغيرها.

٢- نامه هدايت: ١٩.

٣- سفينة البحار: مادة نأ عن المعاني والخصال.

ص: ٥٤

الأخبار- النظم في اللغات سيما في العربيّة.

فمن النبي صلى الله عليه وآله: «ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً» (١).

وعن الباقر عليه السلام: «أول من شقّ لسانه بالعربيّة إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان لسانه على لسان أبيه وأخيه، فهو أول من نطق بها وهو الذبيح» (٢).

وفي حديث عن النبي صلى الله عليه وآله: «أول من فتق لسانه بالعربيّة المميّنة إسماعيل بن إبراهيم وهو ابن سنة» (٣).

وفي بعض الروايات تعلّم آدم للعربيّة، وربما كانت في جملة الأسماء التي علّمها الله تعالى إياه، وفي بعضها: إنها لغة أهل الجنة. وأما اشتغال النبي صلى الله عليه وآله على جمع العلوم بل وكونه صلى الله عليه وآله أعلم من سائر الأنبياء، فقد ورد في روايات عدّة نشير إلى بعضها:

١- عن ضريس الكناسي قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام وعنده أبو بصير فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن داود عليه السلام ورث علم الأنبياء وإن سليمان عليه السلام ورث داود عليه السلام وإن محمداً صلى الله عليه وآله ورث سليمان عليه السلام وإننا ورثنا محمداً صلى الله عليه وآله... (٤).

٢- صحيحة (ظ) أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال لي: يا أبا محمّد إن الله عز وجل لم يعط الأنبياء شيئاً إلّا وقد أعطاه محمداً صلى الله عليه وآله. قال: وقد أعطى محمداً صلى الله عليه وآله جميع ما أعطى الأنبياء. الحديث (٥).

٣- عن موسى بن جعفر عليه السلام قال: قلت له جعلت فداك أخبرني عن النبي صلى الله عليه وآله ورث النبيين كلهم؟ قال: نعم قلت: من لدن آدم حتى انتهى إلى نفسه. قال: ما بعث الله

١- ميزان الحكمة عن كنز العمال مادة «عرب».

٢- المصدر نفسه: عن تحف العقول.

٣- المصدر نفسه.

٤- بحار الأنوار ١٧: ١٣٢، الطبعة الجديدة، وفي تعليقه أصول الكافي ١: ٢٢٥.

٥- بحار الأنوار ١٧: ١٣٣، الطبعة الجديدة.

ص: ٥٥

نبينا إلّا ومحمد صلى الله عليه وآله أعلم منه (١).

٤- مفضل بن عمر، عن أبي عبد الله عليهم السلام قال: كل نبي ورث علماً أو غيره فقد انتهى إلى آل محمد عليهم السلام (٢).

٥- صحيح (ظ) زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: لولا أنا نزداد علماً لأنفدنا. قال: قلت: تزدادون شيئاً لا يعلم رسول الله

صلى الله عليه وآله؟ قال: أما إنه إذا كان ذلك، عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم على الأئمة ثم انتهى الأمر إلينا (٣).

٦- الهروى قال: كان الرضا عليه السلام يكلم الناس بلغاتهم وكان والله أفصح الناس وأعلمهم بكل لسان ولغة فقلت له يوماً: يا ابن رسول الله: إننى لأعجب من معرفتك بهذه اللغات على اختلافها فقال: يا أبا الصلت أنا حجة الله على خلقه، وما كان الله ليتخذ حجة على قوم وهو لا يعرف لغاتهم. أو ما بلغك قول أمير المؤمنين عليه السلام:

أوتينا فصل الخطاب فهل فصل الخطاب إلّا معرفة اللغات (٤).

٧- عمار الساباطى قال: قال لى أبو عبد الله عليه السلام: يا عمار أبو مسلم فطلله وكسا وكسيحه سباطورا (٥) قال: فقلت له ما رأيت نبطياً أفصح منك بالنبطية. فقال: يا عمار: وبكل لسان.

٨- حسين بن علوان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله خلق أولى العزم من الرسل، وفضلهم بالعلم، وأورثنا علمهم، وفضلنا عليهم فى علمهم. وعلم رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يعلموا وعلمنا علم الرسول وعلمهم (٦).

٩- عبد الله بن الوليد السمان قال: قال لى أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا عبد الله! ما تقول الشيعة فى على وموسى وعيسى عليهم السلام؟ قال: قلت: جعلت فداك ومن أى الحالات

١- بحار الأنوار ١٧: ١٣٣، الطبعة الجديدة، وفى تعليقه أصول الكافي ١: ٢٢٦.

٢- بحار الأنوار ١٧: ١٣٥، الطبعة الجديدة، وفى تعليقه أصول الكافي ١: ٢٣٢.

٣- بحار الأنوار ١٧: ١٣٦، الطبعة الجديدة، وفى تعليقه أصول الكافي ١: ٢٥٥.

٤- عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق ١: ٢٥١.

٥- لغة الجملة نبطية والعمار كان نبطياً.

٦- بحار الأنوار ١٧: ١٤٥، چاپ جديد. و در حاشية بصائر الدرجات: ٦٢.

ص: ٥٦

تسألني؟ قال: أسألك عن العلم. فأما الفضل فهم سواء. قال: قلت: جعلت فداك فما عسى أقول فيهم؟ فقال: هو والله أعلم منهما ثم قال: يا عبدالله أليس يقولون: إن لعلى ما للرسول من العلم؟ قال: قلت: بلى، قال: فخاصمهم فيه، قال: إن الله تبارك وتعالى قال لموسى عليه السلام: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» (١)

فأعلمنا أنه لم يبين له الأمر كله، وقال الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وآله: «وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً» (٢) و «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ» (٣).

ثم إنه تجدر الإشارة إلى نقطة، وهي أن الأفضل أولى بالإمامة من غيره، وهذا ما يحكم به العقل الصريح والوجدان السليم. ولكن الفضيلة المرجحة للإمامة ليست هي مطلق الفضيلة وإنما هي الفضيلة فيما يتعلق بالإمامة التي يتصداها الشخص، فمن كان إماماً في سبيل الهداية إلى المعارف فينبغي أن يكون أفضل في العلوم المرتبطة بذلك لا في غيرها، ولذا لا يجب أن يكون النبي عالماً بالعلوم

١- الأعراف: ١٤٥.

٢- النساء: ٤١.

٣- النحل: ٨٩.

ص: ٥٧

الطبيعية كالتب والكيمياء ونحوهما.

لا أقول: إن الأنبياء لم يكونوا عالمين بعلوم العلماء في غير ما يتعلق بالمعارف وإنما أقول: إن العقل لا يحكم بلزوم اشتغال الأنبياء على تلك العلوم، وهذا لا يعني عدم اشتغالهم على الكمالات.

نعم، لا بد عقلاً من كون النبي والإمام أفضل من ساير أهل عصره فيما يتعلق بشأن هداية الأمة وأعلم منهم في هذا المجال، والنقل أيضاً يؤكد ذلك قال تعالى:

«أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

فيتحصّل مما تقدم أنه لا- يحكم العقل بلزوم كون النبي صلى الله عليه وآله قادراً على الكتابة والقراءة؛ حيث لا- مدخل لهما في الفضيلة على فاقدهما بعد أن كان الفاقد محيطاً بكل العلوم المرتبطة بهداية الناس وأفضل من غيره في هذا المجال، ولعله لهذا اشتبه الأمر على من أنكر فضيلة الكتابة والقراءة فلا ينبغي الخلط.

الوجه الثاني:

جملة من النصوص تضمنت صريحاً قدرته صلى الله عليه وآله على القراءة والكتابة.

١- منها: رواية الصدوق في العلل والمعاني ورواها المفيد في الاختصاص والصفار في بصائر الدرجات وحكاها المجلسي في البحار والبحراني في البرهان وغيرهم. ونحن نحكي رواية الصدوق عن البحار فقد قال: حدثني أبي قال:

حدثني سعد بن عبد الله عن أحمد بن محمد بن عيسى عن أبي عبد الله محمد بن خالد البرقي عن جعفر بن محمد الصيرفي (الصوفي - خ) قال: سألت أبا جعفر، محمد بن علي عليهما السلام فقلت (١): يا ابن رسول الله، لم سمي النبي الامي؟ فقال: «ما يقول الناس؟» قلت: يزعمون أنه صلى الله عليه وآله سمي الأمي، لأنه لم يحسن أن يقرأ؛ فقال: «كذبوا لعنة الله عليهم. أتى ذلك والله يقول في محكم كتابه: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

١- ورد هذا الخبر ظاهراً في المجمع عن أبي جعفر بقيد الباقر، وليس من البعيد أن يكون من سهو القلم أو من الناسخ.

ص: ٥٨

مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» (١)

كيف كان يعلمهم ما لا يحسن. والله لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو بثلاثة وسبعين؛ وإنه سُمي بالأمي لأنه كان من أهل مكة ومكة من أمهات القرى وذلك قول الله عز وجل: «لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» (٢).

وهذه الرواية معتبرة سنداً ورجالها من أجلاء الفقهاء، وإسنادها عال قريب إلى المعصوم زماناً، قليل الواسطة، وحصول القطع بسببها ليس جزافاً ودلائلها على المدعى واضحة.

هذا مع أن الرواية- لولا صحتها- تشتمل على خصوصية تمنع من الالتزام بكون النبي صلى الله عليه وآله أمياً أبجدياً، وذلك لكون العمدة في إثبات الأمية الأبجدية له صلى الله عليه وآله هو ورود وصف الأمية له في الكتاب والسير، فإذا احتتمل كون الوصف باعتبار غير الأبجدية سقط الاستدلال بذلك لإثبات الأمية من حيث الأبجدية، وهذه الرواية لو لم تثبت بوجه قاطع ذلك فلا أقل من فتحها باب الاحتمال.

وهناك رواية أخرى قريبة من هذه الرواية لا يبعد اتحادهما، رواها الصدوق في العلل؛ متنها: عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكتب ولا يقرأ. قال: «كذبوا لعنهم الله أني يكون ذلك وقد قال الله عز وجل: «هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (٣) فكيف يعلمهم الكتاب والحكمة وليس يحسن أن يقرأ الكتاب؟! قال: قلت: فلم سُمي بالأمي؟ قال: «نسبه إلى مكة وذلك قوله تعالى: «لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» فقل: أمي، لذلك» (٤).

وربما يشكل صحة الروایتين من حيث المتن بجهات:

١- الجمعة: ٢.

٢- بحار الأنوار ١٦: ١٣٢.

٣- الجمعة: ٢.

٤- بحار الأنوار ١٦: ١٣٣.

ص: ٥٩

الأولى: إن «أم القرى» ليست علماً لمكة، بل هي وصف عام لها ولغيرها من مراكز البلاد والقرى قال تعالى: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَا رَسُولًا» (١). هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى لما كان الغرض من الوصف والإضافة هو التمييز والتخصيص بل التعيين والتوضيح لم يناسب النسبة إلى وصف عام بل كان ذلك لغواً.

الثانية: إنه قد أطلق الأئمة في القرآن على غير المكي قال تعالى: «وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلِمْتُمْ» (٢)؛ فإن المراد بالأميين ما يقابل معنى أهل الكتاب، وقال تعالى: «وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَايِي» حيث إن المراد من الأميين عوام اليهود ممن كانوا يسكنون يثرب وحواليها لا مكة.

الثالثة: مقتضى قواعد الأدب النسبة إلى المركبات تركيب إضافة هو النسبة إلى المضاف إليه بعد حذف المضاف دون العكس، فيقال في النسبة إلى أبي طالب وأم علي وبنى تميم: طالبى وعلوى وتميمى، فكان المفروض على هذا أن يقال في النسبة إلى أم القرى: قروى لا أمى.

وهذه الشبهات كلها مردودة. وبداراً ينبغي الاعتذار عن صاحب الإشكالات بأنه لم يطّلع على الرواية وإلا فالإشكال على الرواية بأمثال ما ذكر يعدّ من الغرائب. ومع الغرض عن ذلك فما ذكر من وجوه القدح كلها مردودة:

أمّا القدح الأول فيرد عليه: أولاً: أنه لم يعلم كون أم القرى وصفاً عاماً فربما كان مشتركاً لفظياً بينه وبين غيره؛ لاحتمال وجود وضع آخر له خاص فكان علماً لمكة بعد كونه وصفاً عاماً. وهذا أمر شائع وليس هناك ما ينفي هذا الاحتمال بالغرض عن الخبر. وثانياً: لا مانع من إطلاق لفظ موضوع لمعنى على مصداق منه بالخصوص

١- القصص: ٥٩.

٢- آل عمران: ٢٠.



ص: ٤٠

إطلاقاً مجازياً بحيث يراد الخصوصية بذلك اللفظ لا مجرد الجرى باعتبار المعنى العام. وثالثاً: لا دليل على عدم صحة النسبة إلى الوصف العام، ودعوى كونها لغواً يدفعها الوجدان؛ فإن الإضافة والنسبة يحققان التمييز والاختصاص، وربما يحصل الغرض بمجرد الإضافة والنسبة إلى الوصف العام، بل ربما كان التوضيح بما يزيد على ذلك لغواً أو مخالفاً للغرض. ألا ترى أنه يقال في العرف: فلان قروي وفلان بلدي وفلان بدوي فهل تكون هذه النسب لغواً؟! وصحة الاستعمال يكفي لها استساغة الطبع وطباع العرف - في شتى اللغات - تصحح النسبة إلى الوصف العام ولا تمنع منه. وأما القدر الثاني فهو أغرب من غيره؛ فإنه لو سلم إطلاق الأمتي على معنى سوى ما تضمنه الخبر من مكّة وفرض كون الإطلاق حقيقةً فهل يعنى ذلك اختصاص المعنى به؛ وعدم صحة إطلاقه على معنى آخر؟ لعمرى ينبغي أن يعد ذلك من الطرائف. وأما القدر الثالث: فيرد عليه أنه ليس هناك ما يعين في النسبة إلى المركب بتركيب الإضافة أن تكون النسبة إلى المضاف إليه، وقد أسمعناك أن العبرة في صحة الاستعمال باستساغة الطبع العرفي والتحقيق جواز النسبة إلى المضاف أيضاً. قال السيوطي وماتنه: أنسب لصدر جملة إسنادية، فقل في تأبط شراً... وصدر ما ركب مزجاً فقل في بعلبك: بعلبي، وانسب لثان تمما إضافة إمّا مبدوءة بابن أو أب أو أم كعمرى وبكرى وكلثومي في ابن عمرو أبي بكر وأمّ كلثوم (١).

وكيف كان: لا ندور في صحة الاستعمال مدار وقوعه، بل يكفي لها استساغة الطباع المستقيمة، مع ما أشير إليه من صحة النسبة إلى المضاف في كلام شارح الألفية، بل وعدم صحة الإضافة إلى المضاف إليه أحياناً لكونه موجباً للبس وإفهام الخلاف.

ص: ٤١

٢- ومنها: الحديث المتواتر بين الفريقين من قول رسول الله صلى الله عليه وآله لما حضرته الوفاة: إيتوني بدوات وكتف لأكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً (١).

ولولا ذكر الدوات والكتف لاحتمل أن يكون المراد بالكتابة الفرض والتقدير أو الجعل والتشريع كما في قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ» وقوله تعالى: «إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا»؛ إلا أنه بعد طلب الدوات والكتف ينتفى هذا الاحتمال رأساً. واحتمال كون المراد من ذلك مباشرة غيره صلى الله عليه وآله والكتابة ولكنها بأمره ربما لا يساعده ظاهر الكلام، حيث إن المفهوم منه هو مباشرته صلى الله عليه وآله للكتابة.

ثم إن هذه الرواية لا تدل على مجرد قدرته صلى الله عليه وآله على الكتابة، بل تدل على عدم كون ذلك أمراً غير معهود لدى الصحابة حيث لم ينقل استغرابهم لما أراه صلى الله عليه وآله من الكتابة عند وفاته، ولا- عد ذلك من جملة خوارق العادة والمعجزات؛ ولا أن من ذكر الحديث في عداد أدلة الإمامة خطر بباله سوى مباشرة النبي صلى الله عليه وآله للكتابة، وإن كان هذا الأمر قد يخطر بالبال في باب ذكر الحديث في مسألة كون النبي صلى الله عليه وآله أمياً أو لا.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الرواية تصلح دليلاً لقدرة صلى الله عليه وآله على الكتابة حتى لو لم يثبت سندها- مع أن صدورها قطعي- والسر في ذلك أنه لو كان المعهود منه صلى الله عليه وآله الأئمة الأبجدية بعد كون اتصافه صلى الله عليه وآله بالأئمة أمراً قطعياً حسبما دل عليه الكتاب وغيره كان جعل الحديث بمضمون واضح الكذب غير معقول بعد كون المقصود بالحكاية أمراً آخر يستلزم أمراً كذباً. فإن المقصود الأصيل بالحكاية هو ما يدل على نصب الإمام والمدلول بالتبع هو عدم الأئمة الأبجدية فتأمل جيداً، فإنه حرى بذلك، وله آثار في الروايات وتطبيقات في الآثار. ولذا كان إثبات اللغات بالروايات الضعيفة أمراً جازياً لكون المقصود بالأصالة في الحديث والخبر

١- وممن استدل بالحديث هذا للمدعى السيد المرتضى فيما حكى عنه، بعد أن حكى عن الشعبي وجماعته من أهل العلم أنه ما مات رسول الله صلى الله عليه وآله حتى كتب وقرأ، حكاة المطهري في كتاب النبي الأمي: ١٦.

ص: ٤٢

هو حكاية المضمون لا إثبات اللغة والأوضاع.

٣- ومنها خبر البصائر عن عبدالرحمن بن الحجاج قال: قال أبو عبد الله عليه السلام:

«إن النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ ويكتب ويقرأ ما لم يكتب» (١).

ولعل المراد من قراءة ما لم يكتب هو غير العريضة من ساير اللغات كما في الحديث الآتي.

٤- ومنها خبره الآخر عن الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام قال في قول الله تعالى لما أنزل ألواح موسى عليه السلام أنزلها عليه

وفيها تبيان كل شيء كان وهو كائن إلى أن تقوم الساعة... فأخرجوها إليه (يعني إلى محمد صلى الله عليه وآله) فنظر إليها وقرأها

وكتابها بالعبراني، ثم دعا أمير المؤمنين عليه السلام فقال: دونك هذه ففيها علم الأولين وعلم الآخرين، وهي ألواح موسى عليه السلام،

وقد أمرني ربي أن أدفعها إليك؛ قال: يا رسول الله لست أحسن قراءتها (٢).

٥- وفي رواية أخرى قريب بمضمونها وفيه: أين الكتاب الذي توارثتموه...

فأخذ النبي صلى الله عليه وآله، فإذا هو كتاب بالعبرانية دقيق فدفعه إلي (٣).

٦- ومنها: رواية أبي الصباح الكناني قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وفي يده اليمنى كتاب، وفي يده اليسرى كتاب.

فنشر الكتاب الذي في يده اليمنى فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم كتاب لأهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم واحد ولا

ينقص منهم واحد. قال: ثم نشر الذي بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم لا يزداد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد.

٧- ومنها: جملة من النصوص وردت في قراءة النبي صلى الله عليه وآله كتابات في المعراج على أبواب الجنان وغيرها.

ففي رواية عبدالصمد ص ١٣٨.

١- بحار الأنوار ١٦: ١٣٦ عن البصائر: ٤٣.

٢- البحار ١٦: ١٣٧، عن البصائر: ٣٨.

٣- بحار الأنوار ١٧: ١٣٩ عن البصائر: ٣٩.

ص: ٤٣

وفي رواية أخرى له ص ١٣٩.

وفي رواية جابر الأنصاري

وفي رواية للصدوق رواها بإسناده عن سلمان الفارسي.

وفي رواية أبي بصير.

وفي رواية تفسير القمي.

وفي رواية حكاها العلامة الأميني عن جمع من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي بإسناده عن أنس بن مالك قال: قال النبي صلى الله

عليه وآله: «لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً: لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلي نصرته بعلي» (١).

وكذا روى محب الدين الطبري في الرياض عن أبي الحمراء من طريق الملا في سيرته وفي ذخائر العقبي ومناقب الخوارزمي.

وفي رواية الحويني في الفرائد روايتها بطريقتين نحوه.

وإسناده آخر عن أبي الحمراء خادم النبي صلى الله عليه وآله نحوه.

ومثله روى الحافظ السيوطي بأسانيد عن أبي الحمراء كما في كنز العمال (٢) وبطريق آخر عن جابر.

و الهيثمي في مجمع الزوائد والسيوطي في الخصائص.

هذا ما عثرت عليه من النصوص على عجل، ولعل المتتبع يجد مزيد روايات ويعثر على غير ما ذكرناه من النصوص.

نعم، هناك كلام في حقيقة الكلام العرشى الذي وجده النبي صلى الله عليه وآله مكتوباً لما أسرى به. وإذا كان النبي صلى الله عليه وآله

آله يقرء مثل ذلك ولو بإعجاز فما ظنك بكلمات أرضيته لا مؤونه فيها.

١- الغدير ٢: ٥٠ و ٥١.

٢- نفس المصدر وراجع كنز العمال ٦: ١٥٨.

ص: ٤٤

ومنها ما ذكر في تاريخ الطبرى وابن الأثير فيما يتعلّق بالسنة السادسة للهجرة وكتاب صلح الحديبية ما يفيد أن النبى صلى الله عليه و آله رفع العهد وكتب كلمه بيده، رغم أنه لم يحسن الكتابة.

والمحتمل قوياً أن يكون قول: ليس يحسن يكتب، من اجتهاد بعض الرواة في بعض الطبقات.

الوجه الثالث: قوله تعالى: «رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً» (١)، فإن تلاوة الصحف ظاهرة في قراءتها عن نظر إليها لا عن ظهر القلب؛ فإنه فرق بين تلاوة الآيات كما في غير هذه الآية وبين تلاوة الصحف.

ويمكن الاستدلال لقدرة صلى الله عليه وآله على القراءة بما تضمنت استجباب قراءة القرآن من المصحف حتى لمن حفظه ويتمكن من قراءته عن ظهر الغيب، فكيف كان النبى صلى الله عليه وآله تاركاً لهذا الأمر، مع أن التكلم للقراءة أمر بسيط سهل لا يحتاج إلى مؤونة كثيرة.

فقد تحصل مما تقدّم أن الأسناد والمدارك المعتبرة ومنها النصوص الكثيرة واضحة الدلالة على أن النبى صلى الله عليه وآله بعد الرسالة كان يقرأ ولم يكن أمياً، سواء فرض أنه باشر الكتابة كما في بعض النصوص أو لم يباشرها.

هذا ما تيسر لنا إيراد في هذه المسألة منذ زمن بعيد وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وذخراً، وأن يجعل ثوابه لوالدي اللذين لهما على الحق العظيم، وقد أردف الله تعالى الأمر بالإحسان إليهما بعبادته، غفر الله لنا ولجميع المؤمنين بمحمد وآله الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ص: ٦٥

## حجية الفعل النبوى

دراسة فى الاستناد إلى فعل النبى وسيرته

فى ضوء أصول الفقه الإسلامى

حيدر حب الله

تمهيد

يمثل فعل المعصوم- من النبى والإمام- أحد أوجه السنّة ومظاهرها، وكما استند العلماء المسلمون إلى أقوال النبى فى الاحتجاج بها والاعتماد عليها، والأخذ بها مصدراً من مصادر المعرفة الدينية على غير صعيد ومجال، كذلك شكّلت سيرة النبى وأفعاله، سيما سيرته فى الحرب والتعامل مع الكافرين، مستنداً رئيساً فى الاجتهاد الفقهي؛ لتصبح هذه السيرة وتلك الأفعال مرجعاً للفتوى وغيره.

وقد وقع بحثٌ بين أصولىي المسلمين فى حجّية فعل المعصوم، ثم أشكل الأمر بينهم فى أن الفعل لو كان حجّيةً فما معنى حجّيته؟ وكيف يفيد الفعل فى الاستدلال على الدين والشريعة؟

وقد ظلّ هذا البحث رائجاً فى الوسط السنّى حتى عصرنا الحاضر؛ حيث ألفت دراسات مستقلة فيه، من أشهرها دراسة الدكتور محمد سليمان الأشقر، ومن قديمها كتاب فى أفعال النبى، لأبى الحسن الأشعري (٣٢٤هـ)، [\(١\)](#) ولعله مضمون

١- انظر: إسماعيل باشا، هدية العارفين ١: ٦٧٧.

ص: ٦٦

كتاب أفعال النبي لعلي بن عبد العزيز بن محمد الدولابي (٣٣٥ هـ)، وهو من أعلام مذهب الإمام الطبري (١)، أما في الوسط الشيعي، فقد تم تناول الموضوع إلى قرب القرن العاشر الهجري، لينحسر تدريجياً البحث فيه بعد ذلك، ولتحوّل إلى مبادئ واضحة تقريباً. لكننا نعتقد بأن تغييب هذا البحث لم يكن دقيقاً، فالمسألة في دراسة الفعل النبوي لا تقف عند حدود مبدأ الحجية، وربما لذلك - أي إيقافها عند حدود مبدأ الحجية وغيره - انحسر دور هذا البحث في أصول الفقه الإمامي مؤخراً، انطلاقاً من وضوح نظرية العصمة في المدرسة الكلامية الشيعية، الأمر الذي ظلّ مفتوحاً على احتمالات في الوسط الذي يُنكر العصمة أو لديه مواقف من دائرتها.. بل تتعدّى حدود مبدأ الحجية إلى مجالات أخرى في الفعل النبوي، كتحديد مؤديات الفعل ومعطياته، وكذا ألوان دلالاته، وعلاقاته بأشكال الأدلة الأخرى.

وعلى هذا الأساس، سوف ندرس في البداية أصل حجية الأفعال النبوية، ثم نتعرض لمؤدى الفعل ومعطياته، وكيفية وموَقات توظيفه في الاجتهاد، لنختم بعد ذلك بالحديث عن دلالاته المختلفة، إن شاء الله تعالى، مشيرين سلفاً إلى أن بعض المباحث التفصيلية في الأفعال كثرت فيها الأقوال وطالت بها الآراء، سيما في الوسط السنّي، وكثيرٌ منها لا داعي له، ولا حاجة إلى الإطالة فيه إلى هذا الحدّ، لهذا سنعرض عنه، بل إن بعض التقسيمات لأفعال النبي وأنواعها بلغت حدّاً مبالغاً فيه لا ينفع الأصولي في شيء معتدّ به، مثل تقسيم ابن حبان في صحيحه أفعال النبي إلى خمسين نوعاً (٢).

١- راجع: ابن النديم، الفهرست: ٢٩٢؛ وإسماعيل باشا، هدية العارفين ١: ٦٧٨.

٢- صحيح ابن حبان ١: ١٤٥-١٤٩.

ص: ٦٧

حجية الفعل النبوي، المستند والدليل

لا بدّ لكي ننظر في الدليل على حجية الفعل من استعراض أدلّة حجّية السنّة؛ لنرى شمولها له أم لا، وهل هناك وجه آخر يمكن إضافته في المقام أم لا؟

وحيث كنّا قد استعرضنا سابقاً هذه الأدلّة، في دراسة أخرى (١)، ولكي لا نغرق في التكرار والإطالة، نشير إليها بإيجاز، محيلين القارئ إلى أصل البحث في حجية السنّة.

أ. أمّا دليل العصمة:

مع شموله لتمام الأفعال، فهو يثبت حجّية الفعل؛ لفرض عدم إمكان صدور الحرام منه أو ترك الواجب، مما يكشف - في الحدّ الأدنى وفي الجملة - عن الإباحة، فهذا الدليل تام، بل مع القول بعدم صدور المكروه منه يستفاد أيضاً في عدم كراهة الفعل الذي ثبت صدوره عنه، وهكذا.

ب. أما الآيات القرآنية:

١- فما دلّ على لزوم الإيمان بالنبى والتصديق به - وهو آيات الطائفة الأولى المتقدّمة هناك - لا يشمل الفعل؛ إذ من الواضح أنّ الإيمان يصدق حتى لو لم يكن فعله حجّةً، ولا ملازمةً لا عقلاً ولا عقلاً ولا شرعاً بين الأمرين، فإذا كان المطلوب التصديق بالنبى والإيمان به، فهذا لا ينافيه عدم كون فعله حجّةً، كما لا إطلاق في تلك الآيات يفيد الشمول لمثل الفعل النبوى حتى لو سلّمنا أصل دلالتها على حجية السنّة.

٢- وأما ما دلّ على تنزيل القرآن ليبيّن الرسول صلى الله عليه وآله، فإن الظاهر عرفاً من البيان - بعد تسليم أصل دلالة الآيات على حجّية السنّة - هو البيان اللفظى، أما غيره فيحتاج إلى إشارة وتوضيح، وليس منسباً من الآيات، فالتبيين في اللغة العربية ينصرف إلى القول والكلام، ولا مانع من الشمول للفعل إذا كان هناك معطيات مسبقة تشير إلى إدخاله في دائرة التبيين لا مطلقاً، ولهذا لو قلت: إنّ زيدا من الناس يريد أن يبيّن كتاب القانون لابن سينا، فلا ينصرف من ذلك سوى البيان

١- انظر: حيدر حب الله، التأسيس القرآنى لحجية السنّة النبوية، قراءة وتقويم، مجلّة الاجتهاد والتجديد، العدد ١: ٢٤٥ - ٢٩٦، شتاء



ص: ٦٨

القولى، وأما أن يكون قيامه بفعل الطبابة شرحاً بنفسه لكتاب القانون فهذا ما يتطلب قرينةً وشاهدًا إضافيًا، كما هو واضح.

٣- وأما ما دلّ على تعليم الكتاب والحكمة، وأن ذلك من وظيفة الرسول صلى الله عليه وآله، فهو غير واضح فى الشمول لمثل الفعل إلا بقرينة، مثل ما لو قال النبى صلى الله عليه وآله: «صَلُّوا كما رأيتمونى أصلى» (١)، فمن الممكن أن يكون فعله ذا دور فى التعليم، أما مع عدم نصب قرينة خاصة فإنّ العرف لا يفهمون التعليم من الفعل إلا بقرينة مسبقه، نعم قد يفهمون السلوك العام الأخلاقى ذا دور فى التعليم، أما غير ذلك فغير واضح، تماماً كما قلنا فى النقطة السابقة.

٤- وأما ما دلّ على مدح النبى صلى الله عليه وآله بألوان المدح وغير ذلك، فلم نقبل دلالتة على حجية السنه هناك، لكن على تقدير دلالتة يمكن استظهار حجية الفعل فى الجملة من مثل «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ»، فإنّ من يرى أنّ مثل هذه الآية ينفع فى حجية السنه، من الطبيعى له أن يجعل الفعل النبوى حجّة؛ لأنّ الآية تركّز نظرها على جانب الخلق المتممى إلى دائرة الفعل، كما أنّ ما دلّ على اتباع الرسول للدين .. يفيد ذلك، فإنّ من يرى دلالة مثل هذه الآية على حجية السنه لا يسعه إنكار دلالتها على حجية الفعل؛ لأنّ مركز الدلالة فيها هو اتباع النبى لأوامر الله، مما ينتمى إلى مسألة الفعل لا القول فقط، فهذه الطائفة تدلّ على حجية الفعل النبوى.

٥- وأما ما دلّ على وحيانية السنه، وأنّه لا ينطق عن الهوى، وأنه لو تقوّل على الله لعاقبه، وهى الطائفة التى قبلنا- ببعض آياتها- دلالتها على حجية السنه، فلا يفيد حجية الفعل؛ لأنها ظاهرة فى القول، بل كأنها صريحة به، بقرينة «ينطق» و «تقول علينا»، فلا وجه لدلالة مثل هذه الآيات على حجية الفعل، ما لم تنضم إليها شواهد إضافية.

١- عوالى اللثالى ١: ١٩٨، و ٣: ٨٥، ١٠٢؛ وبحار الأنوار ٨٢: ٢٧٩؛ وصحيح البخارى ١: ١٥٥؛ ومسند الشافعى: ٥٥؛ وسنن البيهقى ٢: ٣٤٥، و ٣: ١٩٦؛ وسنن الدار قطنى ١: ٢٨٠؛ وسنن الدارمى ١: ٢٨٦.

ص: ٦٩

٦- وأما ما دلّ على لزوم طاعة النبي صلى الله عليه وآله، فقد قدّمنا هناك أن مسألة الطاعة تستبطن الأمر والنهي وما في قوتهما، فالعرف يفهم- عندما يأمرنا المولى بطاعة شخص ما- أن نلتزم أوامرنا وننجز عن نواهيه، والأوامر في الغالب من شؤون الأقوال لا الأفعال، فالفعل لوحده لا يدلّ على أمر إلا مع قرينه، اللهم إلا في مثل ما هو في قوة اللفظ كالإشارات الدالّة، فيكون حجّة لا لحجّية الفعل بل لحجّية الأمر، فلا معنى للطاعة بناءً على صدور فعل، نعم إذا كان محفوظاً بأمر لفظي بالمتابعة يصير حجّة، لكن لا لنفسه بل لحجّية ذلك الأمر اللفظي، كما لو أمر بالاعتداء به في مناسك الحج، ثم أقامها أمامنا فيكون هذا الفعل حجّة لأمره الأوّل لا لنفسه.

٧- وأما ما دلّ على لزوم التأسّي، فهو ظاهر ظهوراً واضحاً في الفعل، فإن يكون أسوّة بمعنى صيرورة أفعاله قدوةً ومثالاً، وكذا آية الزواج من زينب بنت جحش زوجة ابن النبي بالتبني، فإنها حصريّة في دلالتها على الفعل، فبعض نصوص هذه الطائفة ظهوره حصريّ في الفعل تقريباً، بل لا دلالة له على حجّية القول إلا بواسطة، فهذه من أقوى الآيات دلالةً على حجّية الفعل النبوي، ولذلك

ص: ٧٠

وجدنا البحث عن هذه الآية في مباحث الأفعال النبوية من علم أصول الفقه، وقد كُنَّا أدرجنا المواقف حولها لدى البحث عن الدليل القرآني على حجية السنَّة، فلا نعيد.

٨- وأما آية: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» (الحشر:

٧)، فإذا فسّرنا الإتيان بالأمر كانت خاصيةً بالقول، أما مع إطلاقها فتكون ظاهرةً فيه، أما ظهورها في غيره فغير واضح، فإنَّ العرف لا يفهم من مثل هذا التعبير حجية الفعل، إلا إذا كانت لديه معطيات مسبقه عن شخص النبي صلى الله عليه وآله كعصمته.

وبهذا يظهر أن بعض طوائف الآيات - كآيات التأسّي - ظاهرة في حجية الفعل، إلا أن الطوائف التي تبيننا هناك دلالتها على حجية السنَّة، وهي ما دلَّ على حجية قوله ناسباً إياه إلى الله ولزوم طاعته، فلا ظهور لها في حجية الفعل إطلاقاً، إلا إذا نصَّ النبي صلى الله عليه وآله لفظاً على لزوم اتباعه في فعل ما، كما فيما ورد في الصلاة، أو قامت قرينه حافه تشير إلى أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقصد من الفعل الخاص كالعبادات تعليم أمر ديني، مما يكون ظهوراً حالياً في النسبة إلى الله تعالى.

كما أن الدليل القرآني لا يشمل أفعال أهل البيت عليهم السلام أيضاً، كما تقدّم لدى بيان أصل حجية سنتهم عليهم السلام، على خلاف دليل العصمة، سواء كان هذا الدليل على العصمة عقلياً أو قرآنيّاً.

ج. أما طوائف الروايات:

١- فما دلَّ على أن الرسول أوتى مثل القرآن، وأنه يشرّع منه، لا- يفيد حجية الفعل، بل هو أقرب إلى الاختصاص بالقول، وهي تتحدّث عمّا حلّله الرسول وحرّمه، فلا ظهور لها في الأفعال؛ إلا بقرينه إضافية.

٢- وأما الطائفة الدالة على أن الرسول صلى الله عليه وآله لا يأمر الناس إلا بما أمره الله تعالى، فهي ظاهرة - ولو بقرينه الأمر - بالقول، ولا أقلّ من أنه ليست فيها أيّ إشارة للفعل النبوي، وقد كُنَّا علقنا هناك أيضاً فيما يخصّ هذا الأمر، فليراجع.

٣- وأما الطائفة الدالة على النهي عن تفسير القرآن وتأويله، فهي أجنبية؛

ص: ٧١

لأن أقصى ما تفيده لزوم الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام لكي يوضح لنا مدلول القرآن، وهذا المقدار أقرب إلى البيان القولي منه إلى الفعل، بحيث يُشبع البيان القولي - وهو القدر المتيقن - الحثية التي فيه.

٤- وأما ما دلّ من الروايات على لزوم إطاعة الرسول صلى الله عليه وآله، فحاله حال الآيات القرآنية، وقد بينا هناك أن الآيات لا يتحقق مضمونها إلا عبر الأمر والنهي، وهما في الأصل من مقولة البيان القولي.

٥- وأما ما دلّ على لزوم اتباع سنة الرسول صلى الله عليه وآله وإحيائها، فهو يدلّ على حجّية الأفعال النبوية التي تتحوّل إلى سيرة قائمة، لا مطلق الأفعال، لظهور السنة في السيرة لا مطلق القول والفعل والتقدير، كما أشرنا إلى ذلك في محله.

٦- وأما ما دلّ على الاستماع إلى حديث النبي ونقله وحفظه.. فكذلك ظاهر في خصوص القول، ولا أقل من عدم ظهوره في الفعل. وبهذا ظهر أن طوائف الروايات لا تدلّ على حجّية الأفعال، نعم قد يدلّ بعضها - مثل الطائفة الخامسة - على حجّية ما تحوّل إلى سيرة نبوية، إلا أنه رغم ذلك كله لا ينفع؛ لعدم وجود أخبار تفيد الوثوق بالصدور، وروايات الطائفة الخامسة ليست بهذه المثابة، فلا دليل في الحديث على حجّية الفعل النبوي.

د. وأما دليل تعدّد العمل بالقرآن وحده:

فهو لا ينفع هنا؛ لأن تمام المحاذير التي أبدت هناك ترتفع بالعودة إلى السنة القولية، مثل عدم إمكان فهم القرآن، أو عدم إمكان استخراج العبادات منه وأمثال ذلك، فالسنة القولية، وهي القدر المتيقن من حجّية السنة، تُشبع حثية هذا الدليل، مما لا يجعله ملزماً في مجال السنة الفعلية، بعد أن كانت السنة القولية المقدار المتيقن في الحجّية.

ه. وأما الدليل الخامس:

فقد ذكرنا هناك أنه لا يقدم جديداً غير ضمّ عصارة الأدلة السابقة عليه، فلا يُعطى أزيد منها، فيرد عليه ما يرد عليها، فلا نعيد.

ص: ٧٢

و. وأما دليل الإجماع (١):

فبغض النظر عن سلسلة الانتقادات التي سجّلناها عليه سابقاً، لا يفيد أزيد من أعمال النبي صلى الله عليه وآله التي تحوّلت إلى سنّة عملية له، ككيفية الصلاة مثلاً، لا مطلق أفعاله، فالمتيقّن من الإجماع هذا المقدار لا مطلق الفعل.

ز. وأما دليل السيرة المتشرعية:

فالمتيقّن منه الأفعال التي تندرج ضمن سيرة النبي صلى الله عليه وآله سيما في العبادات لا مطلقاً، لكننا بيّنا سابقاً أنّ المتيقّن من دليل السيرة ما كان هناك ظهوراً حالي فيه يقتضى صدوره على وجه بيان حكم الله تعالى كالعبادات مما فيه نسبة إلى الله تعالى، ولا يُحرز انعقاد السيرة على أكثر من ذلك.

وعليه، فجملة الأدلة العامة على حجّية السنّة لا تفيد حجّية فعل النبي صلى الله عليه وآله عدا دليل العصمة، ولولاه لما ثبت منها حجّية الفعل، إلا ما كان احتوى ظهوراً حالياً في تعليم الدين وأمثال ذلك، كما في باب العبادات، أو قام دليل لفظي على لزوم الاقتداء به فيه، كما ورد في الصلاة، نعم بعض الأدلة غير الثابتة كالإجماع قد يفيد ما هو أزيد قليلاً، لكنه غير ثابت.

وبهذا يستبين أيضاً أنّ المصادر على المطلوب بالقول: لا يمكن بعد إثبات حجّية السنّة النبوية عدم حجّية الأفعال، لأنها من السنّة، فكيف تكون السنّة حجّةً والفعل ليس بحجّة؟! غير صحيحة؛ وذلك أنّنا بصدد البحث عن كون الفعل جزءاً من السنّة أم لا، ولا يوجد تلازم عقلي ولا عرفي ولا شرعي بين حجّية القول وحجّية الفعل، لهذا كنّا محتاجين إلى دليل خاصّ في المقام على حجّية الأفعال النبوية.

هذا فيما يخصّ سنّة النبي صلى الله عليه وآله، وأما ما دلّ على حجّية سنّة أهل البيت عليهم السلام، فمثل دليل الثقلين وغيره لا يفيد إلا عبر تأسيس مفهوم العصمة، فإن ثبتت

١- ذكر دليل الإجماع في خصوص الأفعال الشيخ الطوسي في كتاب العدة ٢: ٥٧٢-٥٧٣.

ص: ٧٣

عصمتهم عليهم السلام مطلقاً كان فعلهم حجة، وإلا فسائر الأدلة الدالة على الرجوع إليهم يتمّ الاقتصار فيها على مراجعتهم والرجوع إليهم، والقدر المتيقن هو السنّة القولية، وغيرها يحتاج إلى دليل.

فدليل العصمة هو الدليل الوحيد لإثبات حجية السنّة الفعلية، وقد لاحظنا أبا الصلاح الحلبي يستند إلى هذا الدليل في باب الأفعال بالخصوص (١)، وما فعله جملة من أصولي السنّة - سيما الظاهرية - من تتبع أخبار الآحاد للاستدلال بها على حجية السنّة العملية غير وجيه، لكثرة الضعف السندی والدلالي في هذه الروايات، وقد كان السيد المرتضى (٤٣٦ هـ) رفض هذه الطريقة لاعتمادها على الآحاد التي كان يرفض الاستناد إليها (٢).

وعليه، فأفعال النبي صلى الله عليه وآله حجة.

مؤدى حجية الفعل

بعد البناء على حجية الفعل وأنه من السنّة، يُنظر في كيفية الاحتجاج به والتوصل إلى الحكم الشرعي عبره، وهنا ظهرت اتجاهات بين المسلمين، أبرزها:

الاتجاه الأول:

ما ذهب إليه جماعة من أصولي المسلمين، كـ بعض المالكية والشافعية ونسب إلى أبي العباس، وأبي سعيد، وابن خيران، من أن أفعال النبي صلى الله عليه وآله تقع على الوجوب إلا ما خرج بالدليل (٣).

وقد انتقد بعض العلماء، مثل ابن حزم وابن عربي، هذا القول بأنه يلزم منه التكليف بما لا يطاق، لاستلزامه التأسى بالنبي بكل شيء فعّله، حتى لو وضع يده

١- أبو الصلاح الحلبي، الكافي في الفقه: ١٠٤.

٢- المرتضى، الذريعة ٢: ٥٧٦.

٣- انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام ٤: ٤٥٨؛ والشنقيطي، أضواء البيان ٣: ٤٥٧ - ٤٥٨؛ والمرتضى، الذريعة ٢: ٥٧٨؛ والطوسي، العدة ٢: ٥٧٥؛ وقد رفض الطوسي هذا القول إلا أنه نصّ على تبنيّه له في كتاب الخلاف ١: ٥٧٠؛ ولعله عدل عن رأيه في أحد الكتابين إلى الآخر، وراجع: العيني، عمدة القارى ٩: ٢٥١؛ والشيرازي، التبصرة: ٢٤٢ - ٢٤٣؛ والإسنوي، التمهيد: ٤٣٩.

ص: ٧٤

في موضع لزم أن نضعها فيه (١).

إلا أنّ هذه الملاحظة يمكن لأنصار الاتجاه الأول تفاديها بالقيّد الذي وضعوه في نظريتهم، وهو قيد إلا ما خرج بالدليل، بحيث يدعى أنّ الكثير من هذه الموارد العادية يتيقّن بعدم لزوم التأسى بها، وهو ادّعاء يلقي قدرًا كبيرًا من الصّحة، انطلاقًا من السيرة الإسلامية المتصلة ومن استلزام التكليف بما لا يُطاق.

الاتجاه الثاني:

ما ذهب إليه أهل الظاهر وبعض الشافعية وأبو بكر الصيرفي والقفال والقاضي أبو حامد، فيما نسب إليهم، وتبنّاه بعض علماء الإمامية، من أنّ أفعال النبي تقع على الندب والاستحباب إلا ما خرج بالدليل (٢).

والذي يبدو مستنداً لهذا الفريق هو آية التأسى بعد حملها على الاستحباب (٣)، وسيأتى الحديث عن طبيعته دلالة الآية وأمثالها هنا.

الاتجاه الثالث:

القول بحمل فعله صلى الله عليه وآله على الإباحة، إلا ما خرج بالدليل.

الاتجاه الرابع:

ما اختاره المحقق الحلّي في معارج الأصول وأبو إسحاق الشيرازي في التبصرة، ونسب إلى أكثر الشافعية، وأبي بكر الدقاق وأكثر المتكلمين، من التوقف في المسألة وعدم البت فيها (٤)، وكأن المبرّر في ذلك تساوى الاحتمالات التي تفسّر لنا فعله (٥).

وقد ذهب بعضهم كالإسنوي إلى أنّه كلّما أمكن حمل فعل نبوي على العبادة أو العادة حمل على العبادة؛ معلّين ذلك بغلبة التعبد في أفعاله (٦)، مع أنّ التعبد لا

١- انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام ٤: ٤٧١؛ وابن عربي، الفتوحات المكية ٢: ١٦٥ دار صادر.

٢- انظر: ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام ٤: ٤٥٨؛ والنبد في أصول الفقه الظاهري: ٧٠؛ والنراقي، مستند الشيعة ١٩: ٢٤٧؛ وهو الظاهر من علي بن يونس العاملي، الصراط المستقيم ٣: ٢٩١؛ والشيخ الطوسي، التبيان ٨: ٣٢٨؛ والجصاص، أحكام القرآن ٣: ٤٦٥-٤٦٦؛ والشيرازي، التبصرة: ٢٤٢.

٣- انظر: الشيرازي، التبصرة: ٢٤٣، وقد ردّ عليه في الصفحة التالية.

٤- انظر: المحقق الحلّي، معارج الأصول: ١٧٠؛ والشيرازي، التبصرة: ٢٤٣.

٥- المحقق الحلّي، معارج الأصول: ١٧٠؛ والشيرازي، التبصرة: ٢٤٢، وانظر: هذه الأقوال عند الجصاص في الفصول في الأصول ٣: ٢١٥.

٦- الإسنوي، التمهيد: ٤٤٠.

ص: ٧٥

يساوق عبادية الفعل؛ فإن الرسول يمكنه أن ينوى قصد القربة من الأكل والشرب وغيرهما فيصير في فعله هذا متعديداً، كما يمكن ذلك لأي متشرع آخر، دون أن يعنى ذلك عبادية هذا الفعل أو ذاك، فلا ملازمة بين التعبد قلّة وكثرة وبين عبادية الفعل الذى صدر منه.

والصحيح

أن الفعل على حالتين:

الأولى:

أن لا تُحرز جهته ولا ملابساته، بل يظلّ غامضاً لا نفهمه ولا ندرك وجهه، فهنا لا يُستفاد منه شيء، على بحثٍ سيأتى.

الثانية:

أن نفهمه ونحرزه، فهنا يجب التأسي، وهذا التأسي مشروطٌ بأمرين كما ذكر الطوسى والمرضى وغيرهما (١):

أحدهما:

صورة الفعل، فإذا صلّى على كيفية معينة فلا معنى للتأسي إلا بالإتيان بالصورة عينها بما تحويه من أجزاء وشرائط، نعم، إذا أحرزنا من دليلٍ خارجي أن بعض الأجزاء أتى به النبي على وجه الاستحباب لم يكن في مخالفة الصورة مخالفةً جزئيةً ضرراً؛ لما سيأتى فى الأمر الثانى، فيكون التعديل حاصل الجمع بين حجية الفعل وحجية الدليل الآخر الدالّ على التعديل.

ثانيهما:

وجه الفعل، بمعنى أن نقوم بالفعل على الوجه والمنطلق الذى قام النبي صلى الله عليه وآله بالفعل على أساسه، فلو صدر الفعل من النبي صلى الله عليه وآله على وجه الوجوب وبيته كان معنى ذلك وجوب الفعل، ومؤداه أنه لو أتى بالفعل لكان الاقتداء غير حاصل إلا على نية الوجوب، وهكذا لو أتى النبي صلى الله عليه وآله بالفعل على وجه الاستحباب لم يحصل التأسي إلا بالإتيان على الوجه عينه، وهكذا.

١- راجع: المرضى، الذريعة ٢: ٥٧٢-٥٧٣؛ والطوسى، العدة ٢: ٥٦٩-٥٧٠؛ والمحقق الحلى، معارج الأصول: ١٦٩؛ والجصاص، الفصول فى الأصول ٣: ٢١٥-٢١٧؛ والعلامة الحلى، تهذيب الوصول: ١٧٥-١٧٦؛ والإسنوى، زوائد الأصول: ٣٢١؛ والشيرازى، التبصرة: ٢٤٤.



ص: ٧٦

نعم، محض قيام النبي صلى الله عليه وآله بفعل ما لا يدل على أزيد من إباحة الفعل؛ لأن القيام بالفعل متساوي النسبة إلى احتمال الوجوب والاستحباب والإباحة بالمعنى الأخص، بل الكراهة إذا لم يناف صدورها العصمة، ومعه فيقع الفعل مجملاً لا حكاية فيه عن شيء، فلا يستفاد منه سوى الجامع، وهو جواز الفعل بالمعنى الأعم المقابل للحرمة، ومن الواضح أن الأفعال تخالف الأقوال من حيث الصمت في الدلالة فيها، فليس فيها إطلاق وعموم وفق ما يراه العرف والعقلاء، ولهذا لا يؤخذ منها سوى الدلالة المتيقنة، فتدرج في الأدلة اللبئية لا اللفظية، من هنا نبقى فيها مع الجامع إلا مع قيام دليل.

وهذا الدليل هو ما نسميه قرينة الفعل، التي تخرجنا من حد الإباحة إلى حد الوجوب أو الاستحباب.. ولا ضابط لهذه القرينة، بل هي تابعة لمناسبات المسألة وظروفها، فالأمر العبادي يدل عادة على الاستحباب في الحد الأدنى (١)؛ وذلك لأخذ قصد القرينة فيه، وهي - أي القرينة - إما متفرعة على وجود أمر مسبق أو لا أقل على المحبوبة والمرغوبة والحسن، مما يوجب ظهوراً عند الفقيه في الاستحباب، وإلا كانت العبادة بدعة.

وتكرار فعل ضمن ظروف قد يعطى الاستحباب أيضاً، وربما أعطى الوجوب، بحسب الشواهد الحافة، وربما لا يعطى أي شيء، ومعه فالفعل في أزيد من دلالة الإباحة بالمعنى الأعم يحتاج إلى قرينة خاصة لا ضابط أصولي لها بشكل قاطع، بل تبقى خاضعة للموارد الفقهية المختلفة من جهة، ولسعة نظرية العصمة عند الفقيه المتكلم من جهة أخرى.

وعليه، فتحقيق صورة الفعل ووجهه هو ما يحقق مصداق الأتباع والتأسي، ولا يرى العرف والعقلاء غير ذلك تأسيًا، فلا يقول العرف أنني - لو أتيت بفعل أتاه النبي صلى الله عليه وآله على نحو الوجوب أتيت على نحو الاستحباب - تأسيت بالنبي كما هو

١- إنما قلنا: بالحد الأدنى، لذهاب بعضهم كما يظهر إلى الوجوب، كما نص على أنه ظاهر المذهب المالكي أبو الوليد الباجي في كتاب المنهاج في ترتيب الحجج ٢٠: ١٢٨؛ وذكر القرافي في شرح تنقيح الفصول: ٢٢٦، نسبة هذا القول إلى مالك والأبهرى وابن القصار والباجي وبعض الشافعية، نعم، نسب للشافعي نفسه استفادة الاستحباب، وإلى القاضي أبي بكر وعن الإمام مالك وأكثر المعتزلة الوقف.

ص: ٧٧

واضح؛ وعليه فإذا دلّ الفعل على الإباحة جاز الفعل والترك، وكذا إذا دلّ على الاستحباب جاز الترك، أما الفعل فلا يبد أن يطابق الكيفية، من هنا فعندما نقول:

صورة الفعل نقصد الكيفية التي أتى بها النبي على تقدير إرادتنا الإتيان بالفعل، لا الإتيان بالترك على تقدير جوازه. ومعنى ما قلناه هو عدم التمييز بين العبادات وغيرها، فما قيل (١) من جريان قانون التأسى هذا في العبادات فقط لا غير، لا وجه له؛ لعدم وجود ميزة خاصة تميّزها عن غيرها في هذا القانون.

وعلى خط الفعل عينه، يأتي الترك، فترك النبي صلى الله عليه وآله لأمر ما لا يدلّ - بدايةً - سوى على جواز الترك بمعنى عدم الوجوب، إلا إذا قامت قرينه على الحرمة أو الكراهة.. فيؤخذ بها، وتمام ما قلناه في الفعل يجرى في الترك، لكن بحسبه، ومن هنا يعلم أنه لو دلّ دليل على فعل النبي لأمر وتركه له معاً في زمانين، ولم تُحرز خصوصية لزمان أو حال فرضت الفعل تارةً والترك أخرى، دلّ ذلك على الجواز بالمعنى الأخص، بناءً على عدم تركه المستحب أو فعله المكروه، أو دلّت على سقوط الحرمة والوجوب معاً، وهذا معطى إضافي يقدّمه لنا الفعل أيضاً.

ومن هذا كله، ظهر أن حجية الفعل تعبّر عن درجة من الكشف عن الحكم الشرعي أنقص مما في الأدلة اللفظية بكثير، فلا معنى للقول بوجوب فعل كل ما فعله أو استحبابه ليتحقق مفهوم التأسى كما ذهب إليه - وفق ما تقدّم - بعض أصوليي أهل السنة؛ فإن وجوب الإتيان بفعل صدر عن النبي على وجه الاستحباب سيغدو وجوباً ثانوياً، أي وجوب التأسى لمحض التأسى، مع أن المراد من التأسى استطراق الفعل النبوي لمعرفة أحكام الله في حقنا لا لمحض التأسى، فإنّ هذا هو الظاهر من الأدلة؛ إذ يفهم من القرآن ونصوصه أن النبي صلى الله عليه وآله سبيل لمعرفة

١- راجع: الإسنوي، زوائد الأصول: ٣٢١؛ وانظر ما تقدّم.

ص: ٧٨

أحكام الله تعالى الثابتة بقطع النظر عنه، فيكون فعله وقوله سبباً لتحديدنا عليها أو لاكتشافها في حقنا بعد أن ثبتت سلفاً، لا ظهور تكليف في حقنا بعد معرفة فعل النبى اسمه التأسى، حتى لو لم يكن في الواقع حكم للأمر في حد نفسه، ومعه فالفعل النبوى طريق وكاشف كالقول لا غير.

أنواع الفعل النبوى وحالاته

ونستعرض هنا بعض أنواع الفعل النبوى، وحكمها، مدخلاً لفهم الموضوع وإشكالياته:

١- الأفعال الجبليّة

النوع الأول:

ما كان من أفعال الجبلّة الطبيعيّة، كحركات البدن والقيام والقعود والأكل والشرب والنوم واليقظة و..

وربما نقف هنا أمام ثلاثة اتجاهات أو مسارات في التعاطى مع الأفعال الجبليّة، وهى:

الاتجاه الأول:

إنّ هذا النوع من الأفعال لا يدلّ على أزيد من الإباحة، وقد ادعى الاتفاق على ذلك (١)، حتى مع تكرره كثيراً طيلة حياته، وهذا هو التعاطى الصحيح مع هذا اللون من الأفعال؛ إذ جبليته وطبيعيته تمنعان عن افتراض أو الجزم بمدرك آخر لصدور هذه الأفعال، فوجود الجبلة يمكنه أن يفسّر لنا ظهور هذه الأفعال بل وتكرارها البالغ هذا، نعم يحتمل وجود أمر آخر، لكن محض الفعل وتكراره هنا لا يعطينا دلالة، فنبقى مع القدر المتيقن وهو الإباحة بالمعنى الأعم، ومحض الاحتمال لا يقدم شيئاً.

الاتجاه الثانى:

ما نقله القاضى أبو بكر الباقلانى - فيما نقل عنه - من ذهاب

١- نصّ على استفادة الإباحة أبو يحيى الأنصارى الشافعى فى غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ١٦٣؛ والخضرى بك، أصول الفقه:

ص: ٧٩

جماعه هنا إلى استجباب الاقتداء، ونقل ذلك الغزالي أيضاً وغيره (١)، كما نسب ذلك إلى عبد الله بن عمر وتتبعه هذه الظواهر من النبي صلى الله عليه وآله، كما تفيد كتب الحديث والسنن (٢)، وتبناه الزركشى فى تشنيف المسامع (٣)، وغيره (٤). ولعله الظاهر من الشهيد الأول؛ حيث حمل الفعل على الشرعى (٥).

ولم يظهر وجه لهذا الاتجاه سوى دليل التأسي الذى بينا أمره آنفاً، وهو لا يفيد هنا سوى الإباحة؛ لعدم إحراز صدور الفعل عن النبي على غير وجه الطبيعة أو على أى وجه شرعى، وقد شرطنا فى التأسي تحقيق وجه الفعل إلى جانب صورة الفعل، ولعله لذلك أو غيره تردّد فى مسألة دوران الفعل بين الجبلى والشرعى مثل ابن اللحام فى المختصر (٦)، وإن حكم غيره بالاستجباب.

الاتجاه الثالث:

وهو الاتجاه الذى يرى عدم إمكان الاستفادة التشريعية من الأفعال الجبليّة، كما أشرنا لدى البحث عن تعريف مصطلح السنّة فى دراسة أخرى، وقد طرح هذه الفكرة فى الأفعال العادية الأعم ظاهراً من الجبليّة، الشيخ البهائى (١٠٣٠ هـ) فى زبدة الأصول (٧)، ثم تبناها الشيخ عبد الله المامقانى (٨) فى القرن الرابع عشر الهجرى، ولا مبرر لذلك ما دام يمكن توظيف هذا الفعل الجبلى فى إثبات عدم التحريم فى الحد الأدنى، أى الاستفادة الإباحة كما بينا، فلا يصح قول بعضهم بأنه لا يتبع النبى فى شىء فى هذه الأفعال (٩).

- ١- انظر: أبو يحيى الأنصارى الشافعى، غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ١٦٣.
- ٢- راجع فى ذلك كله: إرشاد الفحول ١: ١٩٨؛ ومحمد مصطفى شلبى، أصول الفقه الإسلامى: ١١٢؛ وابن حجر، فتح البارى ١٠: ٣؛ والمباركفورى، تحفة الأحوذى ٥: ٧٩.
- ٣- نقلًا عن التحرير للحنبلى المرادوى ٣: ١٤٥٦.
- ٤- انظر: أبو يحيى الأنصارى الشافعى، غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ١٦٣.
- ٥- الشهيد الأول، القواعد والفوائد ١: ٢١١-٢١٢؛ القاعدة رقم: ٦١؛ والسيورى، نضد القواعد الفقهية: ١٥٦.
- ٦- ابن اللحام، المختصر فى أصول الفقه: ٧٤.
- ٧- البهائى، زبدة الأصول: ٨٧.
- ٨- المامقانى، مقباس الهداية ١: ٦٨-٦٩.
- ٩- انظر: عبد الكريم النملة، الجامع لمسائل أصول الفقه: ١٣٦.

ص: ٨٠

## ٢- الأفعال الجبليّة ذات الهيئات الخاصّة

النوع الثاني:

ما كان من أفعال الجبليّة على هيئة مخصوصه، كما لو كانت له هيئة خاصية في قعوده يداوم عليها، أو طريقة خاصه في أكله وشربه يداوم عليها كذلك، فالإقتداء هنا ليس في أصل القعود بل في الهيئة الخاصه، وهذا ما يميّز هذا النوع عن النوع الأوّل. وقد ذهب الشوكاني هنا وجماعه إلى إفادة الندب، وحكى عن أكثر المحدثين (١)، إلا أنّ الأصح عدم إفادة الاستحباب هنا إلا نادراً، إذ كما يمكن أن يكون الطبع مقتضياً لأصل القعود، كذا يقتضى المزاج قعوداً خاصاً، فنحن نرى الناس تعتاد- بحكم الطبع أيضاً والمزاج- على طريقة خاصه في الأكل دون أن يكون ذلك ناشئاً عن وجهه نظر عقائديه أو ثقافيه، والخصوصيه وإن كانت محتمله إلا أنّه لا دليل على المنطلق الديني في فعل النبي صلى الله عليه وآله هنا، ما لم تقم قرينه أو شاهد خاص على ذلك. نعم، يتصوّر بعضهم أن تمام ما يفعله النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام نابع عن الكمال

١- الشوكاني، إرشاد الفحول ١: ١٩٩.

ص: ٨١

المطلق الإنساني، فإذا وجدت رواية تدلّ على أنّه شوهد أحد الأئمة عليهم السلام يطعم أولاده موزاً حكموا باستحباب إطعام الموز للأطفال، وكأنه لا مباح في حياة المعصوم، أو كأن تمام الأفعال صادرة في انتقائها على وجه ديني، مع أنّ الأمور الطبيعية هنا لا تنافي العصمة ولا غيرها حتى لو تكررت، وما هو غير ذلك فهو المحتاج إلى دليل، إذ هو مجرد احتمال يستأنس به الذهن المتشرعي عادةً. من هنا، كانت أهميته دراسة مسألة الأفعال؛ لكثرة الخطأ والاشتباه الذي يقع فيها لدى استنباط الأحكام الشرعية.

## ٣- الأفعال الحكومية الولائية

النوع الثالث:

ما صدر على نحو القرار الحكومي الولائي، أو على نحو القضاء، وهنا حالات:

الحالة الأولى:

أن يُحرز السبب وتبين العلّة، كأن نعرف أن عقاب النبي صلى الله عليه وآله لزيد من الناس كان لسرقته مالماً، وأنه لا- توجد خصوصيات أخرى، أو نحرز أن أمر النبي صلى الله عليه وآله بالحرب والجهاد كان لكذا وكذا، ولا توجد خصوصيات خافية، وهنا من الواضح أنه يمكن التمسك بالفعل لإفادة الجواز والإباحة، إلا مع قرينة على أكثر من ذلك، لعدم وجود احتمالٍ آخر ما دام الفعل لا يلحق بطبائع التصرفات.

الحالة الثانية:

أن نُحرز أنّ هناك عناصر أخرى في الموضوع لكنها لم تصلنا بالتأكيد، وهنا لا يمكن الحكم وفق الفعل النبوي في شيء إلا على نحو الجامع، كأن نقول: يجوز كذا وكذا في بعض الحالات غير المحددة المعالم، لا أكثر، وإفادة ما هو أزيد يحتاج إلى قرينة خاصة، كما هو واضح.

الحالة الثالثة:

أن تحرز العناصر الدخيلة، لكن يستظهر أنّ الحكم النبوي لم يصدر على نحو الحكم الإلهي، بل بالعنوان الولائي الثانوي، الكثير ظهوره عادةً في قضايا الحكم والسياسة والسلم والحرب، فهنا يؤخذ الحكم بهذا العنوان وتُحصر قيوده.

الحالة الرابعة:

أن تحصل حالة شك، فلا نعرف هل هذه هي تمام الخصوصيات أو توجد خصوصيات أخرى؟ أو يشك في أنّه هل الخصوصية الفلانية دخيلة أو ليست بدخيلة؟ وهذا من أهم مباحث تاريخية السنّة، التي

ص: ٨٢

درسناها مفصلاً فى موضع آخر.

والفرق بين الحالة الثانية والحالة الرابعة أنه فى الثانية يوجد يقين بوجود عناصر أخرى مجهولة لدينا، على خلاف الحالة الرابعة فهى حالة شك، لانحرز فيها ما كنا أحرزناه فى الحالات الثلاث الأولى من سمات وخصوصيات.

٤- الأفعال العادية والعرفية

النوع الرابع:

الفعل العادى، ونقصه به ما صدر على أساس العادات والأعراف آنذاك، كأنواع اللباس ونحوها، أو أنواع التزين وقص الشعر و.. أو أنواع الطبابة وطرائقها و..

وهذا النوع من الأفعال إن قام شاهد على خصوصية دينية فيه أخذ بهذا الشاهد وبمقدار دلالاته، وإلا أفاد الإباحة فى ظرف تلك العادات، إذ لا- نحرز أنه كان سيفعلها لو تغيرت عادات المجتمع أم لا، إلا- مع شاهد إضافي، من هنا يكون دليل الفعل صامتاً يفيد الإباحة المقيدة، إذ هى القدر المتيقن من الدليل اللبى هنا.

٥- الأفعال النبوية العبادية

النوع الخامس:

الفعل العادى، وهو الذى يظهر للعرف أنه طقس من الطقوس أو عبادة من العبادات، وقد قلنا سابقاً: إنه فى مثل هذا اللون من الأفعال يستفاد الاستحباب، وقد بينا ذلك، بل قد يستفاد الوجوب فى بعض الحالات، إذا قام شاهد إضافي.

الفعل النبوى ومسألة الخصوصية

لا شك عند المسلمين فى أن هناك تشريعات دينية اشترك فيها النبى صلى الله عليه و آله مع غيره من المسلمين مثل الصلاة والصيام، وأن هناك أفعالاً كانت من مختصاته، كوجوب صلاة الليل عليه كما قيل (١)، وهذا التنوع للفعل النبوى على أساس

١- انظر: المحقق النجفى، جواهر الكلام ٢٩: ١٢٦؛ والحلى، شرائع الإسلام ٢: ٤٩٧.

ص: ٨٣

الخصوصية وعدمها يفتح أمام البحث الأصولي نافذة كبيرة على توظيف الفعل النبوي في الاجتهاد الفقهي، وقد أدى هذا الموضوع إلى سجلات بين علماء أصول الفقه الإسلامي، ونحاول هنا رصد البحث والخروج بموقف ما منه في ضوء المعايير الأصولية. يقع الفعل النبوي- من حيث مسألة الخصوصية وعدمها- على أنحاء بالنسبة إلينا، هي:

النحو الأول:

الفعل الخاص المحرز الخصوصية، حيث ذهب جمهور المسلمين إلى أن هناك أفعالاً للنبي صلى الله عليه وآله ثبتت له بخصوصه، كالزواج من أكثر من أربع نساء، ووجوب السواك، وتحريم نكاح الإماء بالعقد، أو وجوب صلاة الليل عليه.. وقد صُنفت كتب عديدة مختصة برصد خصائص النبي صلى الله عليه وآله أبرزها: الخصائص الكبرى للسيوطي، كما استعرضتها كتب أخرى مثل «الشفاء» للقاضي عياض اليعقوبي، والوفا لابن الجوزي، وكذلك كتاب خصائص النبي صلى الله عليه وآله لأحمد بن محمد القمي (٣٥٠ هـ) (١) و.. وعادة ما كانت تبحث في باب النكاح من علم الفقه الإسلامي عند الشيعة والسنة، على أساس أن أكثرها- من الثابت فيها- إنما هو في هذا الباب على ما أشار إليه الشيخ النجفي (٢). وقد اتخذت مواقف إزاء هذا النوع من الأفعال، أبرزها:

- ١- انظر: النجاشي: ٨٩-٩٠؛ وإسماعيل باشا البغدادي، إيضاح المكنون ١: ٤٣٠، وهدية العارفين ١: ٦٣؛ والطهراني، الذريعة ٧: ١٧٥.
- ٢- النجفي، جواهر الكلام ٢٩: ١١٩؛ والشهيد الثاني، مسالك الأفهام ٧: ٦٩؛ وانظر ما ذكره في الفقه الإسلامي حول خصائصه: الكركي، جامع المقاصد ١٢: ٥٢-٦٦؛ والعلامة الحلبي، تحرير الأحكام الشرعية ٣: ٤١٧-٤١٩؛ والشهيد الأول، ذكرى الشيعة ٢: ٢٨٧-٢٨٨؛ والشهيد الثاني، مسالك الأفهام ٧: ٦٩-٨٤؛ والشيخ محمد علي الأنصاري، الموسوعة الفقهية الميسرة ١: ٣٥٤-٣٦٢؛ ومحمد بن يوسف المواق، مختصر خليل ٥: ٩٨؛ والحطاب الرعيني، مواهب الجليل ٥: ٤-١٨؛ والبهوتي، كشاف القناع ٥: ٢٣-٣٨؛ والصالحى الشامى، سبل الهدى والرشاد ١٠: ٢٧٤-٢٩٢، وهو أكثر من ذكر الخصائص، فقد استعرض ٢١٣ خاصية له، ثم ذكر مئات الخصائص الأخرى له في أمته و..



ص: ٨٤

الموقف الأول:

إنّ هذا النوع من الأفعال لا ينفع في باب الحجية؛ حيث لا يُستفاد منه حكمٌ شرعيّ لعامة المسلمين، بعد إحراز خصوصيتها وعدم قابليتها للتعميم، وإلا لو كان يتسنى تسريه الحكم لغير النبي لكان ذلك خلف كونه خاصاً به صلى الله عليه وآله، وهذا هو الموقف الصحيح؛ لما قلناه وسيأتي.

الموقف الثاني:

ما ذكره الشيخ أبو شامة المقدسي (٦٦٥ هـ) من التمييز بين ما أبيض للنبي صلى الله عليه وآله وما كان واجباً عليه أو حراماً، ففي الأول كالزيادة على الأربع، ليس لأحد الاقتداء به، وفي الثاني يستحب الاقتداء في الواجب كصلاة الوتر، وترك المحرم كما قيل في أكل ذى الرائحة الكريهة (١).

وهذا الكلام غير واضح؛ لأنه إذا كان واجباً عليه أو مستحباً فلا معنى للاقتداء به، إذ إن دلّ دليل خاص على حكم المسألة في حقنا كان المتبع هو هذا الدليل، فقد يكون حراماً علينا ما كان واجباً عليه، وإذا لم يقم دليل، فإن أريد وجوب الاقتداء أو استحبابه فلا مدرك له سوى دليل التأسّي، وهو إما لا- نقول به من رأس كدليل لفظي، أو كما بينا مشروط بتحقيقه بصورة الفعل ووجهه، ومن الواضح هنا أنّه بعد إحراز الخصوصية لا يمكن أن نقوم بالفعل على وجهه؛ لأنه إذا كان الفعل مستحباً عليه صلى الله عليه وآله لم يكن معنى لإتياننا به على نحو الوجوب، فهو خلف شرطية الوجه، وهكذا لو كان واجباً عليه لا- معنى لاستحباب الاقتداء؛ لانخراط شرطية الوجه، وأما مع اتحاد الوجه بأن يكون واجباً عليه وحكمنا بوجوب الاقتداء أو مستحباً عليه وحكمنا بالاستحباب، فهو:

أ. مضافاً إلى صيرورة دليل التأسّي دالاً على الوجوب والاستحباب وهو خلاف الظاهر منه عرفاً، إن لم نقل بالاستحالة على تقدير القول بتباين مفهومى الوجوب والاستحباب، مع القول باستحالة استخدام اللفظ الواحد في أكثر من معنى، وكلامنا هنا في وجوب أو استحباب التأسّي، لا في وجوب التأسّي الذي قد ينتج وجوب هذا الفعل أو استحباب ذاك، فهما أمران متغايران.

١- انظر: الشوكاني، إرشاد الفحول ١: ١٩٩-٢٠٠.

ص: ٨٥

ب. إنه خُلف الخصوصية؛ إذ بعد افتراض اختصاص النبى صلى الله عليه وآله بحكم كيف يمكن القول بثبوت عين الحكم على غيره على نفس الصورة والوجه؟ فما معنى الخصوصية حينئذٍ، إلا خصوصية الخطاب لا خصوصية الحكم؟ ولا يُدرى يلتزم به هنا أم لا؟! الموقف الثالث:

ما ذهب إليه إمام الحرمين الجوينى فى البرهان، من أنه لا يوجد ما يمنع عن الاقتداء، كما ليس هناك نقل لفظى أو معنوى يفيد اقتداء الصحابة بالنبى صلى الله عليه وآله فى هذه الأمور، لهذا كان الأرجح التوقف. وهذا الكلام ظهر الجواب عليه مما قدّمناه فى مناقشة ما نُسب إلى أبى شامة المقدسى؛ وذلك:

أ. كيف يُطلق القول بعدم وجود ما يمنع عن الاقتداء إذا أراد الشمول لما أبيع له، فإنّ المباح له لا معنى لصيرورته من خصوصياته إلا أن يكون حراماً على غيره، وإلا كان خلف كونه خاصاً به، ومع حرمة على غيره، كيف يقال فى هذا القسم: إنه لا يوجد ما يمنع عن الاقتداء به فيه؟!

ب. أما فى غير المباح، كما فى الحرام عليه أو الواجب أو المستحب، فلا معنى للقول بعدم وجود ما يفيد اقتداء الصحابة؛ لأنّه حتى لو لم يصلنا ما يفيد الاقتداء منهم، ينبغى أن لا يظلّ حكمنا مقصوراً على ما جاء فى سيرتهم، بل المطلوب مراجعة دليل التأسى وما هو مقدار دلالتة؟ فإذا كنّا نعتقد - كما اعتقد بعضهم - أنّ دليل التأسى شامل لمثل ذلك، كان لوحده كافياً فى المقام، سواء بلغنا أنّ الصحابة اقتدوا به فيها أم لم يصلنا شيء.

وعليه، فالصحيح هنا هو الموقف الأوّل، وهو إخراج هذه الأفعال عن دائرة حجية الفعل النبوى، من هنا لا تدخل فى تعريف السنّة النبوية (١).

النحو الثانى:

الأفعال النبوية العامة التى يُحرز مشاركة النبى للمسلمين فى

١- انظر حول الخلاف فى دخولها فى تعريف السنّة النبوية: طه جابر العلوانى، أصول الفقه الإسلامى: ١٥.

ص: ٨٦

أمرها وحكمها، كوجوب الصلاة اليومية والصوم والحج .. فإن هذه الأفعال، لا ريب في حجيتها- بناءً على حجيتها الفعل- ما دنا أحرزنا فيها عدم الخصوصية لأن فعل النبي لها إنما هو فعل لها بما هو فرد من آحاد المسلمين؛ فيكون لفعله دلالة على الموقف منها بالنسبة لغيره من آحادهم.

ومن هذا النوع ما جاء من الأفعال على سبيل التعليم والبيان، مثل ما لو صلى النبي صلى الله عليه وآله أمام المسلمين بغرض تعليمهم الصلاة، مما يسمّى بالأفعال البيانية، أو لو صدر أمرٌ لفظي بالتأسي بالنبي في فعلٍ ما، نحو ما جاء في الصلاة.

النحو الثالث:

الأفعال النبوية التي لا يُحرز فيها لا الخصوصية ولا العمومية، فهل تشملها أدلة حجية الفعل النبوي؟ فلو تزوج النبي من أكثر من أربع نساء، وشككنا شكاً حقيقياً في الخصوصية، فهل يمكن التمسك بدليل حجية الفعل للشمول لهذا المورد أم لا؟

ويسمى هذا النوع من الأفعال في عرف الأصوليين بالأفعال المجردة، أي تلك التي تتجرد عن قرينة الخصوصية والعمومية معاً، إلى جانب التجرد عن سائر ألوان الفعل، بحيث أحرزنا خروجها عن الأفعال الجلية ونحوها.

وهذا البحث مع جريانه في حق النبي صلى الله عليه وآله قد لا يجري في حق أهل البيت عليهم السلام؛ لعدم وجود خصائص معتد بها لهم، كما يصرح بذلك بعض علماء الإمامية (١)، إلا ما

١- يفهم من السيد الشيرازي، الفقه ٤٧: ١١٣؛ ويفهم من بحثهم في خصائص النبي أن هذه الخصائص لا تجرى في حق الأئمة عليهم السلام، حيث ناقشوا في بعضها بانتقاضها بالإمام عليه السلام؛ فانظر على سبيل المثال: الشهيد الثاني، مسالك الأفهام ٧: ٧٢؛ وقد لاحظنا في دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام أنهم ذكروا الكثير من خصائص الأئمة عليهم السلام ولم يذكروا شيئاً يرجع إلى ما يرتبط ببحثنا، رغم استقصائهم في البحث عادةً، فقد ذكروا مثل وجوب الاعتقاد بإمامتهم، ووجوب محبتهم، ووجوب طاعتهم، والصلاة عليهم، واحترام أسمائهم، والتوسيل والتبرك بهم، والتسمي بأسمائهم، وما يتصل ببعض مسائل صلاة الجمعة والعيدين والجهاد الابتدائي.. وكلها خصائص لا علاقة لها بما نبهته هنا، كما لا يخفى، فانظر: موسوعة الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام ١: ١٨٣-٢٠٢.

ص: ٨٧

قيل من بعض الأمور، مثل جواز الجنابة لعل عليه السلام و.. في المسجد وما شاكل ذلك (١)، إلا أن مراجع خصائص النبي صلى الله عليه وآله في باب النكاح من مصنفات الفقه الإمامي تؤكد لنا أن السائد بين الإمامية عدم وجود خصائص شرعية لهم، اللهم إلا خصائص في مقام الإمامة والولاية، وهذا بحث آخر، وأما بعض الكتب المسماة بخصائص الأئمة عليهم السلام فهي تحتوى - ككتاب خصائص الأئمة للشريف الرضى - على درر كلماتهم وروائع مقالاتهم (٢) لا أنها تذكر الخصائص بالمعنى الفقهي والأصولي الذى نبحت عنه هنا، نعم، الخصائص التكوينية كالعصمة والعلم والكرامات و... خارج عن إطار بحثنا، وهذا من القضايا الخارجة عن الإطارات التشريعية.

وعلى أية حال، فقد حصل انقسام بين العلماء المسلمين فى هذه المسألة، وحصيلة مهم اتجاهاتهم ترجع إلى موقفين: الموقف الأول:

إن ما دلّ على لزوم أو استحباب التأسى بالنبي صلى الله عليه وآله يشمل الفعل المجرد، سيما إذا علمنا أن النبي صلى الله عليه وآله فعل الفعل على نحو الوجوب أو الاستحباب أو.. فيحكم بوجوب التأسى فى هذا الفعل على مبنى من يوجب التأسى مطلقاً إلا ما خرج بدليل، كما تقدم، أو يحكم بالاستحباب تبعاً لمن قال به، وهناك من تحدّث عن الحمل على الوجوب عملاً لا اعتقاداً، ونسب ذلك إلى مشايخ سمرقند (٣).

الموقف الثانى:

عدم شمول دليل التأسى لمثل هذا النوع من الأفعال، على

- ١- نصّ الإمام الخميني على قلّة مختصات الأئمة عليهم السلام فى كتاب الاجتهاد والتقليد: ٥٤؛ ولعله أراد مثل صلاة الجمعة والعيدين والجهاد الابتدائي و... مما لا يدخل فى المختصات التى نبحت فعلاً عنها؛ وحول مسألة الجنابة لمحمد وعلى و... راجع: وسائل الشيعة ٢: ٢٠٧-٢٠٨؛ كتاب الطهارة، أبواب الجنابة، باب ١٥، ح ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ٢١؛ وراجع: مستدرک الوسائل ١: ٤٥٩-٤٦٢.
- ٢- انظر كلام الشريف الرضى نفسه فى مقدّمه الكتاب: ٣.
- ٣- نسب ذلك إليهم أبو الثناء الماتريدى، كتاب فى أصول الفقه: ١٥٤؛ وانظر القول بالوجوب عند الأنصارى الشافعى، غاية الوصول شرح لبّ الأصول: ١٦٣، ذاكراً فى المصدر عينه وجود القول بالندب.

ص: ٨٨

أساس احتمال كونه من خصائص النبي صلى الله عليه وآله، فتحمل على الإباحة، لأنها المتيقنة، كما ذهب إلى ذلك مشايخ العراق فيما ينسبه إليهم الماتريدي (١).

الموقف الثالث:

التوقف في المسألة نظراً لتعارض الأدلة (٢).

الموقف الرابع:

إخراج هذا النوع من الفعل النبوي عن دائرة المجال التشريعي، بمعنى أنه شرعاً لا- يكون لنا إلا- بدليل خاص، وهذا ما نسب إلى الكرخي، بل إلى عموم الأشعري، وتبناه أبو إسحاق الشيرازي في اللمع، دون التبصرة (٣)، وقد علل الأنصاري الشافعي بأنه الأحوط (٤).

وفي الحقيقة، فما يذهب إليه الدكتور محمد سليمان الأشقر (٥) من اضطراب كتب أصول الفقه في نسبة الأقوال هنا إلى رجال المذاهب السنية، حقيقة واقعة، فقد نسب إلى الإمام مالك والشافعي وأحمد بن حنبل (٦) القول بالوجوب والاستحباب والإباحة، ولعل من أسباب هذا الاضطراب- كما يقول الأشقر أيضاً- أن بحثاً أصولياً سنياً هنا انقسم إلى قسمين:

الأول: تحديد صفة الفعل المجرد في حق النبي صلى الله عليه وآله، بمعنى أن هذا الفعل هل صدر عن النبي صلى الله عليه وآله على نحو الوجوب أو الاستحباب أو الإباحة؟ أي ما هو حكم هذا الفعل في حق النبي صلى الله عليه وآله؟  
الثاني: تحديد الحكم أمام المكلفين، بمعنى هل يشملهم دليل التأسي على نحو الوجوب أو الندب أم لا؟

١- أبو الثناء الماتريدي، كتاب في أصول الفقه: ١٥٣-١٥٤؛ والأنصاري الشافعي، غاية الوصول: ١٦٣.

٢- راجع: أبو يحيى الأنصاري الشافعي، غاية الوصول شرح لب الأصول: ١٦٣؛ ولعله مراد السيد الصدر في الحلقة الثانية: ١٥٥-١٥٦.

٣- انظر: الشيرازي، اللمع: ١٤٤؛ والتبصرة: ٢٤٠؛ والجصاص، الفصول في الأصول ٣: ٢١٥؛ والإسنوي، زوائد الأصول: ٣٢١.

٤- الأنصاري الشافعي، غاية الوصول: ١٦٣.

٥- محمد سليمان الأشقر، أفعال الرسول ١: ٣٢٧.

٦- لمزيد من الاطلاع، انظر: ابن اللحام، المختصر في أصول الفقه: ٧٤؛ حيث أشار إلى وجود روايتين عن أحمد في ذلك هما: الوجوب والندب.

ص: ٨٩

وقد وقع خلط واضطراب في معرفة أن جهابذة المذاهب السنيّة كانوا يبدوون موقفاً على الصعيد الأول أم الثاني. وعلى أيّة حال، نذكر هنا ما يمكن أن يشكّل عائقاً عن الاستدلال بهذا النوع من الأفعال النبويّة، وهو احتمال الخصوصية، فلعلّ الفعل من خصائص النبيّ صلى الله عليه وآله، ومعه لا معنى للاقتداء به فيه، من هنا، توقف فريق في حجّيّة الفعل النبوي المجرد؛ لاحتمال حرمة الفعل علينا وهو واجب عليه صلى الله عليه وآله، أو العكس، فحتى القول بالإباحة لا معنى له.

وهنا:

أ. تارةً نسقط حجّيّة الفعل على أساس احتمال كون تمام أفعاله صلى الله عليه وآله خاصيّة به، وهذا الاحتمال سبق أن ضعّفناه في البحث القرآني، وفاقاً لابن حزم والسيد الصدر، حيث قلنا: إن آية التأسّي بنفسها دليلٌ على بطلان هذا الاحتمال؛ إذ ستصبح لغواً مع افتراض كون تمام أفعاله إلا نادراً من خصائصه، حتى لو لم نجعلها دليلاً على حجّيّة السنّة بالشكل المتداول، فإنّها على أيّ حال تجعل السائد في حياته صلى الله عليه وآله مورداً للتأسّي به، وهو مفهوم لا- ينسجم مع افتراض الخصوصية الشمولية المدّعاة في هذا الافتراض.

ص: ٩٠

ولعله من هنا ردّ أبو إسحاق الشيرازي وغيره على من قال بعدم إمكان الأخذ بأفعال النبي إلا بدليل، بالتمسك بآية الأسوة ورجوع الصحابة إلى أفعاله فيما أشكل عليهم (١).

ب. وأخرى نسقط حجّية الفعل على أساس أننا لا نعرف ظروف صدوره؛ فيعود كالمجمل، وهذا الاحتمال ألمحنا إليه آنفاً وناقشناه، وقد عالجه عند الحديث عن تاريخية السنّة في دراسة أخرى.

ج. وثالثة نشك في فعل ما أنه من خصائصه أو لا؟ وهذا هو محلّ البحث، وقد أجب هنا عن شبهة الخصوصية بأمور: أولاً:

ما تداول بين أصوليي أهل السنّة كالآمدي، وابن الهمام .. من أنّ التحقيق أنّ خصائص النبي صلى الله عليه وآله نادرة، ومعه فأى مورد نضع إصبعنا عليه يكون احتمال العمومية فيه كبيراً جداً نسبةً لاحتمال الخصوصية، ومعه فيحمل على الأعم الأغلب (٢).  
إلا- أنّ الغزالي (٥٠٥ هـ) الذي يرى الأصل في عدم تعميم فعل الرسول لغيره، رفض هذا الاستدلال؛ على أساس أنه لا دليل يفرض الحمل على الأغلب، ويمثل الغزاليّ لذلك باشتباه أخت الرجل بعشرة أجنبيات، فهل يعتبرهنّ حلالاً عليه لقانون الأعم الأغلب؟ (٣).  
وقد أجاب الدكتور محمد سليمان الأشقر عن كلام الغزالي بأنّ الطرف الآخر يدعى ندرة الخاص لا قلته، فالنسبة ليست العُشر، بل لو أراد التشبيه لشبهه باحتمال وجود أخته بين نساء بلدٍ أو مدينه، وهنا يحكم الفقهاء بجواز نكاحه لإحداهنّ في هذه الحال، لا بالحرمة كما يريد الغزالي (٤).

١- الشيرازي، اللمع: ١٤٤.

٢- انظر: الأشقر، أفعال الرسول ١: ٣٣٤.

٣- الغزالي، المستصفى من علم الأصول ٢: ٢٢٦.

٤- الأشقر، أفعال الرسول ١: ٣٣٥.

ص: ٩١

والذي ينبغي التعليق به هنا أنه:

١- يلزم في الشك هنا أن لا يكون شكاً حقيقياً له معطياته، ففي مثل حالة الشك الافتراضى تتوفر معطيات إجراء حساب الاحتمال؛ ذلك أنه عندما نضع يدنا على فعلٍ نبوى، ونشك أنه من خصوصياته شكاً افتراضياً فإننا نقيس نسبة خصائص أفعاله إلى ما هو العام المشترك منها، وستكون النسبة، بعد سير أبواب الفقه والأخلاق والتشريع، نسبة ضئيلة جداً، سيما بقرينه ما سيأتى مما يجعل عدم الخصوصية فى عداد المطمان به عقلائياً، وإن لم يحصل يقين عقلى بذلك، والاطمئنان حجة عقلانية ممضاة شرعاً، بل هى العلم فى اللسان العربى تشملها- لا أقل- بعض نصوص العلم الواردة فى الكتاب والسنة.

أما مع وجود شك حقيقى قائم على معطيات تحقّق شكاً، فإن هذا الإجراء لحساب الاحتمال سوف يضعف، وذلك أن معطيات الشك هذه سوف تقف بوجه الكثرة الكمية لصالح الاحتمال الآخر، وقد تعيق تكوين اطمئنان بعدم الخصوصية. فالمفترض فى معالجة هذا الموضوع الجمع بين العنصر الكمي ودرجة احتمال الخصوصية المنطلقة من معطيات، فلا صحّة لإطلاق كلام الآمدى ولا أبى حامد الغزالى.

٢- لا نريد الخوض فى تحديد خصائص النبى صلى الله عليه وآله، إلا أن إطلاقةً عابرةً عليها تفضى إلى الشك فى ثبوت كثيرٍ منها، حتى بلغ بها بعضهم- كالمحقق الحلى- الخمسة عشرة خصوصية (١)، ذلك أن الكثير من الخصائص إنما ورد بروايات ضعيفة السند لم تصحّ، ولم نجد مع الأسف من اهتمّ بجديّة- إلا- نادراً- بتحقيق حال هذه الخصائص، وإنما أطلقت دون نقد متنى أو سندی للمصادر التى اعتمد عليها، وهذا

١- انظر: الحلى، شرائع الإسلام ٢: ٤٩٧؛ وراجع: الأشقر، أفعال الرسول ١: ٣٣٤.



ص: ٩٢

ما يبسط مسألة خصائص النبى صلى الله عليه و آله، ويضعفها أكثر فأكثر، كما أن بعض من ذكر خصائص للنبي تعرّض لخصائص تكوينية، كأن يبصر وراءه كما يبصر أمامه، وتعرّض لخصائص ترجع إلى حقوقه على المسلمين، كأن لا يرفعوا أصواتهم فوق صوته، وحرمة سؤال زوجاته إلا- من وراء حجاب و... ولهذا ينخفض كثيراً العدد الكبير الذى ذكره الصالحى الشامى والسيوطى والعلامة الحلى فى التذكرة لخصائص النبى صلى الله عليه و آله بعد إخراج غير الثابت، وما كان من التكوينيات، وما كان من حقوقه على أمته. ثانياً:

ما ذكره أبو شامة المقدسى من أن لازم هذا الكلام- أى التوقف عند احتمال الخصوصية- هو التوقف فى أكثر الأحكام الشرعية، الأمر الذى تناقضه سيرة السلف وفقهاء الأمصار (١)، وقد أضاف المازرى إلى هذا الكلام أن سيرة الصحابة انعقدت على اتباع الرسول صلى الله عليه و آله فى أفعاله، فإذا شككنا فى شرعية خطوتهم هذه لشككنا فى أمور أخرى عرفنا شرعيتها من سيرتهم، مثل القياس وخبر الواحد، وفيه ما فيه (٢).

ويجاب عن ذلك:

أ. إنه لا يلزم من رفع اليد عند احتمال الخصوصية التوقف فى أكثر الأحكام، فهذا الافتراض غير مطابق للواقع؛ لأن أكثر الأحكام على الإطلاق مأخوذ من الأدلة اللفظية من كتاب وسنة، وليس موقوفاً التعرّف عليه على الفعل النبوى، ففى هذا الكلام نوع من التهويل. ب. حتى لو استلزم ذلك التوقف المذكور لا يكون ذلك دليلاً على إلغاء احتمال الخصوصية منطقياً، فهذا أشبه بمنطق الغاية تبرّر الوسيلة، وقد وقع فى مثل هذا الأمر بعض أصولى الإمامية، فقالوا بانسداد باب العلم والعلمى بالأحكام، لكن الانسداد لم يجعلهم يقولون بحجية خبر الواحد أو يتنازلون عن مبررات نظريتهم فى التشكيك بحجية الظهور لغير المشافهين أو المقصودين بالإفهام، كما حصل مع

١- انظر: الأشقر، أفعال الرسول ١: ٣٣٥.

٢- المصدر نفسه.

ص: ٩٣

الميرزا القمي (١)، فالمفترض بالمازري والمقدسي اتباع نهج القمي في نظريته في باب الانسداد؛ حيث ظلّ وفيّاً لهذه النظرية حتى النهاية، بقطع النظر عن الموقف من نظريته نفسها.

ويمكن القول بأنّ هذا النوع من المعالجة سائد في أوساط بعض العلماء؛ إذ يقال لك: يلزم على هذا القول الفلاني عدم بقاء حجر على حجر، وكأنّ المطلوب إبقاء الأحجار على بعضها ولو من دون أساسٍ علمي.

ج. وأما الاحتجاج بسيرة الفقهاء، فليست بدليلٍ يحتج به، فسيرتهم إما إجماع أو شهرة أو سيرة متشعّبة، ولا بد من تحقّق الشروط فيها بناءً على الحجية، لا- إطلاق التمسك بسيرة الفقهاء، كأنها دليل حاسم مطلقاً، مع أننا لا نعرف هذه السيرة، فلعلّهم أخذوا بالعمومية لأنهم لم يشكوا، فيما حصل عندنا شك، ولا نحرز انعقاد سيرة لهم في حال الشك كما هو المطلوب هنا.

د. أما الاستدلال بسيرة الصحابة كما فعله المازري، فسيرتهم فعلٌ لا إطلاق فيه، ولو ثبت اقتداؤهم به لدلّ على المقدار المتيقن، وهو حالة العلم بعدم الخصوصية، وليس بأيدينا مورد يكشف عن انعقاد سيرتهم- بوصفها ظاهرة- على إلغاء احتمال الخصوصية عند الشك، فهذا ما نريده هنا، لا مبدأ اقتدائهم بالنبي صلى الله عليه وآله.

ثالثاً:

ما ذكره الشيخ محمد رضا المظفر- متابعاً في أصل الفكرة بعض العلماء المحققين كصاحب الجواهر (٢)- من أنّ مقتضى عموم أدلّة الاشتراك أن يكون النبي مكلفاً بما كلفنا نحن به إلا ما خرج بالدليل، فهو بشرٌ مثلنا تجرى عليه أحكامنا، فنطبّق عليه قاعدة التمسك بالعام في الدوران في التخصيص بين الأقل والأكثر (٣).

١- انظر: نظريات القمي في القوانين المحكمة ١: ٢٢٧-٢٣٩، ٢٢٤.

٢- انظر: النجفي، جواهر الكلام ٢٩: ١٢٩.

٣- المظفر، أصول الفقه ٢: ٦٧.

ص: ٩٤

وهذا الكلام يلاحظ عليه، أنه:

أ. إذا كان يريد التمسك بعمومات الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنة، فهذا بنفسه طارداً لاحتمال الخصوصية؛ إذ ما دام النص عاماً لجميع الناس فيتمسك بعمومه للشمول للنبي وغيره، فليس هناك حاجة لقاعدة الاشتراك ولا غيرها، مع أن فرضنا عدم وجود مدرك آخر غير الفعل النبوى.

ب. وإذا كان يريد أن يتمسك بقاعدة الاشتراك في مورد حكم لفظي ظاهره التوجه إلى النبي، ولا نعلم أنه موجه إلينا أم لا؟ فهو ضعيف؛ لأن الحديث ظاهر في النبي ولا ظهور له في غيره، فلا يكون قادراً على الشمول لغيره، وقاعدة الاشتراك: إما دليلها لبي مثل الإجماع والسيرة المتشرعية فلا يحرز انعقادها في هذا المورد، وهذا النوع من الشكوك؛ لأن ظاهر كلام الأصوليين والفقهاء اشتراك الأحكام بين الرجل والمرأة والعبد والحرّ والماضين واللاحقين، ولا يوجد فيها ما يدل على اشتراكها بين النبي وغيره عند الاحتمال، وإما دليل لفظي، وقد راجعنا الأدلة اللفظية ولم نجد فيها إطلاقاً لهذه الصورة، فهي واردة في الحاضر والغائب وفي الرجل والمرأة وفي اللاحق والسابق، وليس فيها مورد يوجه فيه الخطاب للنبي، ولا نعرف أنه من مختصاته أم لا.

ج. وأما إذا أريد أننا أمام الفعل النبوى، لا أمام دليل لفظي، ولا ندرى هل يفعل ذلك لحكم خاص به أم شامل له ولنا؟ فهذا أجنبي عن نصوص قاعدة الاشتراك لمن راجعها، وقد أتينا على بحث هذه القاعدة مفصلاً في مباحث تاريخية السنة النبوية، وأثبتنا هناك ضعف تمام روايات هذه القاعدة من الناحية السندية بهذا اللحاظ لها لابتتام دوائرها.

وبهذا يظهر أن حجية الفعل النبوى تظل سارية حتى في حال الشك الافتراضى وفق ما قلناه، بل بعض حالات الشك الحقيقى أيضاً، لا

ص: ٩٥

مطلق الحالات.

الدور الدلالي للأفعال

كما الأقوال، تلعب الأفعال دوراً دلالياً أيضاً، فكما تدل على الإباحة قد تدل على ما هو أزيد منها، كما أشرنا سابقاً، وذلك نوجزه (١) ضمن نقاط:

أ. تشرح الأفعال أحياناً المراد من الألفاظ (٢)، إذ هي تجسيد للنص اللفظي وتطبيق له، فتصلح مبيناً لمجمل القول، بل رأى بعضهم كالمحقق الحلبي أنه أكثر بياناً، كما لو تردد نص بين إفادة الوجوب والاستحباب، ثم أحرزنا ترك النبي صلى الله عليه وآله في مورد ما للفعل المطلوب دون وجود عذر في المقام، فهذا يكشف عن الاستحباب وعدم الوجوب وإلا لما تركه النبي صلى الله عليه وآله، وهكذا لو تردد نص لفظي بين الحرمة والكراهة ثم فعله النبي صلى الله عليه وآله، فهذا يكشف عن الكراهة، لعدم صدور الحرام منه. وقد نقل الآمدي في الإحكام عما وصفها بالطائفة الشاذة، وكذا صاحب فواتح الرحموت عمن أسماهم بالشرذمة (٣)، أن الفعل لا يكون بياناً، مستنداً للنقل كخبر:

صلوا كما رأيتموني أصلي، والعقل أيضاً، والظاهر أن المراد بهذه الطائفة الكرخي وبعض الشافعية، كما نسب إليهم ابن اللحام في المختصر (٤)، وغيره (٥).

ومن أبرز ألوان بيان الفعل ما يسمّى بالأفعال البيانية، كتعليمه الصلاة والحج

١- لأن بحثنا ليس في باب الدلالات بهذا المعنى، وإنما يتعرض لها في محلّه من مباحث التعارض وأمثالها.

٢- أشار لذلك سريعاً بعضهم، مثل الشيخ حسن، معالم الدين: ١٥٧؛ والمرتضى، الذريعة ١: ٣٣٩-٣٤٢ وج ٢: ٥٨٦؛ مستدلاً بالإجماع على بيانية الفعل؛ والشاطبي، الموافقات ٣: ٢٧٥؛ وأبي الوليد الباجي، كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج: ٢٠؛ وأبي الثناء الماتريدي، كتاب في أصول الفقه: ١٥٣؛ ومحمد مصطفى شلبي، أصول الفقه الإسلامي: ١٠٩؛ ومصطفى الزلمي، أصول الفقه الإسلامي: ٣٢؛ ومحمد أبو زهرة، أصول الفقه: ١١٤؛ وعبد الكريم النملة، الجامع لمسائل أصول الفقه: ١٣٦؛ والمحقق الحلبي، معارج الأصول: ١٥٩-١٦٠ و ١٧٣؛ والأنصاري، فواتح الرحموت ٢: ٨٢؛ وابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام ٤: ٤٥٨؛ والشيرازي، التبصرة: ٢٤٧؛ والعلامة الحلبي، تهذيب الوصول: ١٦٣؛ وذكر الشيخ البهائي أن بيانية الفعل للمجمل من النص هي ما ذهب إليه الأئمة كثيراً فيما بيانية القول إجماعية، فانظر له: زبدة الأصول: ١٤٥.

٣- الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام ٣: ٢٤؛ وعبد العلي الأنصاري، فواتح الرحموت ٢: ٨٢.

٤- ابن اللحام، المختصر في أصول الفقه: ١٦٧.

٥- الفراء، العدة في أصول الفقه ١: ٣٦٢.

ص: ٩٦

بالعمل والممارسة.

ب. قد تشرح الأفعال طبيعته التشريعية من حيث كونه إلهياً ثابتاً أو حكومياً ولائياً، وقد مثل بعضهم (١) لذلك بفكرة الخمس في أرباح فاضل المؤمنة؛ حيث فهم من عدم جبي النبي صلى الله عليه وآله الأخماس أن نصوص الوجوب الواردة فيما بعد عن الأئمة عليهم السلام إنما جاءت تشريعات ولائية لا إلهية ثابتة، وإلا لما تركها النبي صلى الله عليه وآله، وبقطع النظر عن صوابية المثال، فلا شك في أن الأفعال تساعد على ذلك أحياناً.

ج. تقوم الأفعال - خلافاً لما نسب إلى الكرخي (٢) - أحياناً بدور التخصيص أو التقييد، كما لو صدر عام أو مطلق ثم وجدنا النبي صلى الله عليه وآله يخالفه في مورد له اعتباراته وحيثياته، فهنا قد يستكشف الفقيه التخصيص وأمثاله إذا توفرت العناصر المطلوبة (٣). والذي يفهم من القاضي أبي يعلى الفراء أن حجته من رفض تخصيص العموم بالفعل، هي الشك في اختصاص الفعل بالنبي أو عمومته لغيره، مما تعرضنا له سابقاً، بحيث بنوا على عدم إمكان التخصيص بالشك (٤)، وهذا إشكال مبنائي خاص بحالة الشك التي قلنا: إنها لا تعطل الاستدلال بفعل النبي صلى الله عليه وآله إلا في بعض الحالات، لا تمامها. من هنا، إذا بدا أن هناك تعارضاً بين القول والفعل أمكن تطبيق قواعد الجمع

١- علي حب الله، دراسات في فلسفة أصول الفقه: ٥٩٨.

٢- ابن عقيل الحنبلي، الواضح في أصول الفقه ٣: ٣٩٤؛ والسيد المرتضى، الذريعة ١: ٣٠٦؛ والآمدى، الإحكام في أصول الأحكام ٢: ٥٣٠.

٣- انظر في تخصيص الفعل وتقييده: القرافي، العقد المنظوم في الخصوص والعموم: ٦٨١-٦٨٧؛ ونفائس الأصول ٣: ١٦-٢٠؛ وابن اللحام، المختصر في أصول الفقه: ١٥١؛ ناسباً له إلى أئمة المذاهب، وابن عقيل الحنبلي، الواضح في أصول الفقه ٣: ٣٩٤-٣٩٦؛ وأبا يعلى الفراء، العدة في أصول الفقه ١: ٣٠٧، ٣٦١-٣٦٢؛ والشيرازي، اللمع: ١٤٤-١٤٦؛ والأنصاري، فواتح الرحموت ١: ٦٠٥-٦٠٦؛ والآمدى، الإحكام في أصول الأحكام ٢: ٥٣٠-٥٣٢.

٤- القاضي الفراء، العدة في أصول الفقه ١: ٣٦٢.

ص: ٩٧

العرفى بينهما طالما لم يكن ذلك غريباً عن الذوق العرفى، فما ذكره بعض (١) من أن تعارض القول والفعل يقع دائماً لصالح القول، بحيث ينبغى تفسير الفعل على أساس القول، انطلاقاً من أن الفعل مجملٌ فى دلالته فيقتصر فيه على القدر المتيقن، فيما الأصل فى القول البيان.. كلام صحيح، طالما لم يمكن الجمع بينهما، لا مطلقاً، إضافةً إلى أن القدر المتيقن نفسه قد يكون هو المعارض للقول، فلا معنى للاستناد إلى الإجمال الموجود فى الأفعال كى نقدم الأقوال عليها دائماً.

هذا، وهناك من تحدت عن أن تأخر الفعل عن القول يعنى نسخه له (٢)، إلا- أن الفعل ليس نسخاً للأحكام ولا من أساليبه عرفاً وعقلائاً، اللهم إلا فى ظروف نادرة، لجريان الاحتمالات فيه.

- ١- لاحظ: المحقق الحلى، معارج الأصول: ١٧٤؛ واختار فيه التوقف فى المسألة؛ والشيرازى، اللمع: ١٤٦؛ والتبصرة: ٢٤٩؛ ومحمد حسين فضل الله، كتاب الجهاد: ٢٤٦، الهامش رقم: ١.
- ٢- انظر على سبيل المثال: ابن حزم، الإحكام فى أصول الأحكام ٤: ٤٦٨-٤٦٩.

ص: ٩٨

د. قد تساعد الأفعال على تحديد الحكم الوضعي (١)، وليس التكليفي فقط، كأن يمسّ النبي زوجته فيتوضأ أو ينام فيتوضأ، إذ ذلك في بعض الأحيان يكشف عن الناقضية والبطلان، أو نجدّه يوجه الذبيحة إلى القبلة حال الذبح، ولا يأكل من ذبيحة غير مستقبله، فنستفيد الشرطي، أو يجعل يساره للبيت حين الطواف فنستفيد الشرطي أيضاً، إذا التقت القرائن. وبهذا تكون الأفعال دالة حيناً بالمطابقة وأخرى بالتضمّن وثالثة بالالتزام.

لكن الإنصاف مع ذلك كله أن دائرة الاستفادة المذكورة من الأفعال قليلة جداً؛ لكون الدلالة صامتة؛ فتحتاج إلى حشد شواهد غير عادية، ولهذا نُصّ على عدم العموم في دلالة الأفعال (٢)، فأن يمسّ النبي زوجته ثم يتوضأ ليس دليلاً على الناقضية، لاحتمال الاستحباب في ذلك، أو صدور ناقض آخر منه هو الذي أوجب عليه الوضوء، لهذا صرّح الأصوليون كالشاطبي بقصور دلالة الفعل، لتعدد الاحتمالات والأسئلة حوله، وصعوبة تبين أجوبتها منه لوحده. نعم، انضمام الفعل إلى القول يمنحه قوةً ودلالةً (٣).

١- انظر: الشاطبي، الموافقات ٣: ٢٩٩-٣٠٠.

٢- الجصاص، الفصول في الأصول ١: ٣٦.

٣- الشاطبي، الموافقات ٣: ٢٧٨-٢٧٩ و ٢٨٣؛ وانظر تفصيل دلالات الأفعال عنده في المصدر نفسه: ٢٨٠-٢٨٥.

## إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله

السيد محمود المدني

تمهيد

يتفق جميع المسلمين، والشيعة منهم على الأخص، على أن النبي محمداً صلى الله عليه و آله بن عبد الله هو أفضل مخلوقات الله سبحانه وأشرفهم على الإطلاق (١).

وقد حرص علماء الدين على مَرَّ العصور الإسلامية على تدوين وكتابة كل النواحي المتعلقة بسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله، وذلك للغور في بحور عظمته، بحيث لم تتسن كتابة سيرة أى نبي آخر أو أى شخصية تاريخية بهذا الشكل المفصل الدقيق.

واليوم، وبعد مضي أربعة عشر قرناً، يُمكننا الاطلاع حتى على أسماء وسائل النبي صلى الله عليه و آله وأدواته بشكل دقيق، إضافة إلى تاريخ ولادته وهجرته وجهاده ووفاته وعدد زوجاته، ذلك كله نجده ماثلاً أمامنا في النصوص التاريخية.

إلا- أن ذلك لا- يعنى- بالضرورة- عدم جدوائية إجراء أى تحقيق أو بحث في المجالات المذكورة، فلا- زال هناك مجال واسع للتحقيق الأمر الذى يتطلب من المفكرين والعلماء الغوص والبحث عن كنوز تلك السيرة العطرة. وما موضوع إيمان

١- راجع الكافي ١: ٤٤٠، عن علي عليه السلام: ما برء الله نسمة خيراً من محمد صلى الله عليه و آله.



ص: ١٠٠

وتوحيد آباء وأجداد النبي صلى الله عليه و آله وإلا- واحداً من تلك الكنوز التي يُمكن الحصول عليها من قبل الفرق الإسلامية المختلفة، وقد كان، وما يزال، موضوع جدال بين تلك الفرق، وما فتئ البعض من المُعرضين يعتمد تلك البحوث والدراسات منشأ لإثارة الاختلافات والطعون.

وستنطرق في بحثنا هذا، بصورة موجزة لكن دقيقة، إلى الموضوع المذكور، وسنقوم أولاً بالإشارة إلى النظريات المتعددة ذات العلاقة بموضوعنا، ثم نقوم ببيان النظرية التي استقرَ عليها رأى الموالين لآل البيت عليهم السلام وأنصارهم، مع بيان الأدلة على تلك النظرية.

النظريات

أ نظرية الشيعة:

يعتقد الموالون لآل البيت عليهم السلام بأن أجداد الرسول صلى الله عليه و آله جميعهم كانوا مؤمنين، مُستندين في ذلك إلى ما استقوه من الأئمة الأطهار عليهم السلام. وقد تمكّن بعضهم من إظهار إيمانه علناً، فَعَرَفُوا لدى المحيطين بهم بهذه الخصيصة، إلا أن بعضهم الآخر ظلّ يخفى إيمانه بالرّغم من رسوخ إيمانه هذا في السرّ، إذ يرجع السبب في ذلك إلى الفترة الحرجة التي كان يمرّ بها وتفضيلهم اتباع التقيّة في حينها.

فقد كتب المحدث الكبير أبو جعفر على بن الحسين بن بابويه المشهور بالصدوق رحمه الله والمتوفى في (٣٨١ هـ)، كتب بهذا الصدد يقول:

«في آباء النبي صلى الله عليه و آله، اعتقادنا فيهم أنهم مسلمون من آدم إلى أبيه عبد الله» (١).

وأما الشيخ المفيد رحمه الله فيوضح ما قاله الصدوق، بقوله:

«آباء النبي صلى الله عليه و آله إلى آدم عليه السلام كانوا موحدين على الإيمان بالله حسب ما ذكره

ص: ١٠١

أبو جعفر (الصدوق)، وعليه إجماع عصابة الحق» (١).

ويقول الشيخ المفيد في كتاب آخر له:

«واتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله صلى الله عليه و آله من لدن آدم إلى عبد الله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجل، موحدون له» (٢).

أما شيخ الطائفة، الطوسي رحمه الله - المتوفى سنة ٤٦٠ هـ - فكتب يقول:

«ثبت عند أصحابنا أن آباء النبي صلى الله عليه و آله إلى آدم كلهم كانوا موحدين، لم يكن فيهم كافر، وحجتهم في ذلك إجماع الفرقة المحقة، وقد ثبت أن إجماعها حجة، لدخول المعصوم فيها، ولا خلاف بينهم في هذه المسألة».

وكتب المفسر الشيعي الجليل أبو علي الطبرسي رحمه الله - المتوفى سنة ٥٤٨ هـ - كذلك - في معرض تفسيره للآية الشريفة «يا أبت لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ...» (٣)

وبيانه لهذا الأمر، وأن هذا الخطاب موجّه إلى جدّ النبي إبراهيم عليه السلام لأئمه، وإنما اسم والد إبراهيم عليه السلام الحقيقي هو (تارخ) - كتب يقول:

«لإجماع الطائفة على أن آباء نبينا صلى الله عليه و آله إلى آدم كلهم مسلمون موحدون، ولما روى عنه صلى الله عليه و آله ...» (٤).

أما العلامة محمّد باقر المجلسي رحمه الله - المتوفى سنة ١١١١ هـ - فكتب يقول:

«اتفقت الإمامية رضوان الله عليهم على أن والدی الرسول صلى الله عليه و آله و كل أجداده إلى آدم عليه السلام كانوا مسلمين ... ولعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية أو مصلحة دينية» (٥).

وقال في مكان آخر: «تضافرت الروايات وإجماع الشيعة على إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله» (٦).

١- المصدر نفسه.

٢- أوائل المقالات: ٥١.

٣- مريم: ٤٥.

٤- مجمع البيان: ٣: ٥١٦.

٥- بحار الأنوار ١٥: ١١٧.

٦- المصدر نفسه: ١١٩.

ص: ١٠٢

وقد اشتهر الشيعة بهذه العقيدة، وعُرفوا بها، حتى علق الفخر الرازي في تفسيره على هامش الآية الشريفة «وإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ...»  
(١)

بقوله:

«المسألة الرابعة: قالت الشيعة: إن أحداً من آباء الرسول وأجداده ما كان كافراً، وأنكروا أن يقال: إن ولد إبراهيم كان كافراً» (٢).  
ب- نظرية أهل السنة:

ويعتقد بعض علماء أهل السنة كذلك بإيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله وتوحيدهم، حيث ذكر العلامة الألوسي البغدادي (المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ) على هامش تفسير الآية الشريفة «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» (٣)  
ما يلي:

«أبو نعيم عن ابن عباس أنه رضى الله عنه فسّر التقلب فيهم بالتنقل في أصلابهم حتى ولدته أمه على الصلاة، وجوز على حمل التقلب على التنقل في الأصلاب أن يراد بالساجدين المؤمنون، واستدل بالآية على إيمان أبيه عليه السلام كما ذهب إليه كثير من أجله أهل السنة، وأنا أخشى الكفر على من يقول فيهما (رضى الله تعالى عنهما) على رغم أنف القارئ وأضر به بصد ذلك...» (٤).  
وذكر في مكان آخر ما يلي:

«والذي عول عليه الجم الغفير من أهل السنة أن آزر لم يكن والد إبراهيم، وادّعوا أنه ليس في آباء النبي كافر أصلاً، والقول بأن ذلك قول الشيعة كما ادعاه الإمام الرازي ناشئ من قلّة التبع» (٥).

١- الأنعام: ٨٤.

٢- تفسير الكبير ١٣: ٣٨.

٣- الشعراء: ٢١٩.

٤- روح المعاني ١٩: ١٣٧.

٥- تفسير روح البيان ٧: ١٩٤.

ص: ١٠٣

أما الكتاني، فقد ذكر في كتاب (النظم المتناثر) ما نصّه:

«أحاديث أن جميع آبائه عليه السلام وأمّهاته كانوا على التوحيد لم يدخلهم كفر ولا عيب ولا رجس ولا شى مما كان عليه أهل الجاهلية ... ذكر الباجور ... أنها بالغه مبلغ التواتر» (١).

وينبغي أخيراً، وليس آخراً، أن نشير إلى العالم الكبير والموثوق لدى أهل السنه، عنيت به جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (المتوفى سنة ٩١٠هـ)، الذى يعتقد بإيمان أجداد النبى صلى الله عليه و آله بكلّ ماللكلمه من معنى، لابل أكد ذلك فى الكثير من مؤلفاته؛ ففى كتاب (مسالك الحنفاء)، قام السيوطى بالاستدلال بالقرآن الكريم والروايات المتوافرة، ناقلاً كذلك عن الفخر الرازى الذى أكد على هذه المسأله فى كتابه (أسرار التنزيل) (٢).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الفخر الرازى لم يؤمن بهذه المسأله فى تفسيره ولم يُشر إلى صحّتها، بل ادّعى الإجماع على أن بعض أجداد النبى صلى الله عليه و آله لم يكونوا مؤمنين موحدّين (٣).

أما الكتب التى ألفها السيوطى بهذا الشأن، أى التأكيد على إيمان آباء النبى صلى الله عليه و آله فهى:

١- مسالك الحنفا فى نجاه آباء المصطفى.

٢. الدرج المنيفة فى الآباء الشريفة.

٣. المقالة السندسية فى النسبة المصطفوية.

٤. التعظيم والمنه فى أن أبوى رسول الله فى الجنة.

٥. السبيل الجائيه فى الآباء العلية.

٦. نشر العلمين فى إثبات عدم وضع حديث إحياء أبويه صلى الله عليه و آله وإسلامهما

١- النظم المتناثر: ٢٠٢.

٢- مسالك الحنفاء: ١٧.

٣- التفسير الكبير ١٣: ٤٠.

ص: ١٠٤

على يديه (١).

وكتب المحقق المعاصر جعفر مرتضى العاملي يقول: «صرح الماوردي والرازي في كتاب أسرار التنزيل، والسنوسي والتلمساني كذلك، صرحوا بإيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله الكرام» (٢).

وقد وقف بعض علماء السنة بشدة وحزم بوجه من كفر أجداد النبي صلى الله عليه وآله، حيث نقل جلال الدين السيوطي عن أستاذه قائلاً: «سئل القاضي أبو بكر بن العربي: ما تقول فيمن يدعى أن أبا النبي صلى الله عليه وآله في النار؟! قال: ملعون من يقول هذا، لقول الله سبحانه: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...» (٣)، ولا أذى أعظم من أن يقال عن أبيه صلى الله عليه وآله: إنه في النار» (٤).

وقد نقل السيوطي عن أبي نعيم الإصهاني قوله:

«أتى إلى عمر بن عبد العزيز كاتب كان أبوه كافراً، فقال عمر في شأنه: لو كان من أبناء المهاجرين لكان أفضل. فأجاب الكاتب: لقد كان أبو النبي صلى الله عليه وآله كافراً أيضاً! فغضب عمر بن عبد العزيز لذلك وقال: لا ينبغي لمثل هذا أن يعمل في ديوان الخلافة أبداً!» (٥).

ونُقِلَ عن شيخ الإسلام الهروي قوله: «قال عمر بن عبد العزيز لسليمان بن سعد: إن عاملنا في المكان الفلاني كان أباً لك كافراً. فأجاب سليمان: وكان أبو النبي صلى الله عليه وآله كافراً أيضاً! فغضب عمر بن عبد العزيز لذلك بشدة وأمر بعزله عن الديوان في الحال!» (٦).

ورغم أن العجلوني - المفسر والمحدث المعروف - كان يعتقد بذلك، فقد

١- نقلًا عن بحار الأنوار ١٥: ١٢٤؛ الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله ٢: ١٨٦.

٢- الصحيح من سيرة النبي صلى الله عليه وآله ٢: ١٨٦.

٣- الأحزاب: ٥٧.

٤- الدرر المنيفة: ١٧.

٥- المصدر نفسه: ١٨.

٦- المصدر نفسه: ١٩.

ص: ١٠٥

كتب يقول:

«و قد أُلّف كثير من العلماء فى إسلامهما شكر الله سعيهم منهم الحافظ السخاوى، فإنه قال فى المقاصد: قد كتبت فيه جزءاً» (١).

ثم نسب هذا الاعتقاد إلى عدّة أخرى، إذ قال:

«و هذا المسلك مال إليه طائفة كثيرة من حفاظ المحدثين وغيرهم، منهم ابن شاهين، والحافظ أبوبكر البغدادي، والسهيلي، والقرطبي،

والمحب الطبرى، وغيرهم» (٢).

وكتب السيوطي:

«قد أخرج ابن حبيب فى تاريخه من ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعه ومضر وخزيمة وأسد على ملّة إبراهيم، فلا تذكرهم إلا

بخير ... وفى روض الأنف حديث: لا تسبوا إلیاس فإنه كان مؤمناً».

وفى دلائل النبوة لأبى نعيم:

«إن كعب بن لؤى أوصى ولده بالإيمان بالنبي صلى الله عليه و آله وكان ينشد إعلاناً:

ياليتى شاهد نجواه دعوته إذا القريش تبقى الحق خذلاناً» (٣).

وفى مقابل هذه الجماعة، يعتقد الكثير من أبناء أهل السنة أنّ جميع أجداد النبي صلى الله عليه و آله كانوا كافرين! (٤).

أدلة النظرية الشيعية:

استند علماء الشيعة- فى إثبات إيمان أجداد الرسول صلى الله عليه و آله- إلى القرآن الكريم وإلى السنة والعقل والإجماع والشواهد

التاريخية الأخرى.

١- كشف الخفاء: ٦٢.

٢- كشف الخفاء: ٦٥.

٣- المقامة السند سيئة: ٩.

٤- راجع التفسير الكبير ١٣: ٤٠؛ تفسير المنار ٧: ٥٤٥.

ص: ١٠٦

الأدلة القرآنية:

١- قوله تعالى: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ».

وردت روايات كثيرة- من طريق علماء الشيعة وأهل السنة- أن المراد من هذه الآية هو انتقاله صلى الله عليه و آله في الأصلاب والأرحام المؤمنة الموحدّة.

وفيما يلي نورد نصين دالّين لإثنتين من مفسري الشيعة الكبار وآخرين لأهل السنة حول ذلك:

يقول الشيخ الطوسي: «في رواية أخرى عن ابن عباس: أن معناه أنه أخرجك من نبي إلى نبي حين أخرجك نبياً... وقال قوم من أصحابنا: إنه أراد تقلّبه من آدم إلى أبيه في ظهور الموحدين، لم يكن فيهم من يسجد لغير الله» (١).

وكتب الطبرسي يقول: «قيل: معناه تقلّبك في أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً، عن ابن عباس في رواية عطا وعكرمة، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام» (٢).

ويُحتمل أن تكون الرواية التي أشار إليها الطبرسي هي نفس الرواية التي أوردها علي بن إبراهيم القمي في تفسيره بسند متصل إلى الإمام الباقر عليه السلام، وهذا نصّها:

«عن أبي جعفر عليه السلام: قال: «الذي يريك حين تقوم و تقلّبك في الساجدين» قال: في أصلاب النبيين» (٣).

أو قد يكون مُشيراً إلى رواية أبي الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام التي قال فيها:

سألنا الإمام الباقر عليه السلام حول تفسير الآية الشريفة: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»؟

فأجاب:

«يرى تقلّبه في أصلاب النبيين من نبي إلى نبي حتى أخرجته من صلب أبيه من

١- التبيان ٨: ٦٨.

٢- مجمع البيان ٤: ٢٠٧.

٣- تفسير القمي؛ وتفسير البرهان ٣: ١٩٢.

ص: ١٠٧

نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام (١)».

وقد نقلت روايات مشابهة لما ذكرنا عن طريق أهل السنن بأسناد مختلفه، وسوف نوردها في الأدلة الروائية فيما بعد إن شاء الله.

وقال السيوطي في (الدر المنثور):

«وأخرج ابن أبي العدني في مسنده واليزار وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن مجاهد في قوله: «وَتَقَلَّبُكَ

فِي السَّاجِدِينَ» قال:

من نبي إلى نبي أخرجت نبياً» (٢).

«وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل، عن ابن عباس في قوله: «وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال: ما زال النبي يتقلب

في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه» (٣).

وقد أورد بهذا الخصوص روايات أخرى، سنذكرها في الأدلة الروائية فيما بعد.

أما أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، فقد كتب يقول: «وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال ابن عباس: في أصلاب الآباء: آدم

ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً» (٤).

وقد نسب الفخر الرازي التفسير المذكور إلى الشيعة حيث قال:

«واعلم أن الرافضة ذهبوا إلى أن آباء النبي كانوا مؤمنين، وتمسكوا في ذلك بهذه الآية فقالوا: أو قوله تعالى: «وَتَقَلَّبُكَ فِي

السَّاجِدِينَ»، يحتمل الوجوه التي ذكرتم، ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى نقل روحه من ساجد إلى ساجد كما نقوله نحن وإذا

احتمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل؛ ضرورة أنه لا منافاة ولا رجحان...» (٥).

١- تفسير القمي؛ مصدر سابق، تفسير البرهان ٣: ١٩٣، ح ٥.

٢- الدر المنثور ٥: ٩٨.

٣- المصدر نفسه.

٤- جامع الأحكام في القرآن ١٣: ١٤٤.

٥- التفسير الكبير ٢٤: ١٧٣.



ص: ١٠٨

وأورد الحلبي بالتفصيل في (السيرة) جميع الروايات التي دلت على هذا المضمون (١).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العلماء قد ذكروا احتمالات أخرى ووجه ثانية في تفسير الآية الشريفة المذكورة، كتقلبه صلى الله عليه و آله في الليل للتعرف على أحوال أصحابه، أو تقلبه صلى الله عليه و آله في صلاة الجماعة بين الساجدين والمصلين، أو تقلب بصره صلى الله عليه و آله وملاحظته المصلين أثناء الصلاة، وغير ذلك. لكن مع قبول تلك الاحتمالات، لا ينفي بها المعنى الأول - وهو إيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله -، لأننا نعلم أن الآية الشريفة في القرآن الكريم تحتل المعاني المتعددة بحيث تكون كلها صحيحة، وقد ترد روايتين بخصوص آية واحدة، تذكرا لها معانٍ ومقاصد مختلفة ومتنوعة، ولهذا ورد في الأحاديث: أن القرآن ذو بطون (٢).

ولهذا، فلا يخرج عن السياق كون المعنى المقصود من الآية الكريمة إيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله، أو المعنى الوحيد للآية الذي دل عليه شخص الرسول الكريم صلى الله عليه و آله وأهل بيته المعصومين، أو على الأقل أحد المعاني أو البطون المتعددة لها، والتي بينها النبي صلى الله عليه و آله وأهل بيته، وهم المفسرون الحقيقيون للقرآن والثقل الأصغر.

٢- قوله تعالى: «رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ... رَبَّنَا وَايِّتْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ...» (٣).

وقوله تعالى: «رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ» (٤).

١- السيرة الحلبيّة ١: ٢٩.

٢- راجع: الميزان ٣: ٧٤؛ روى هذا المضمون مستفيضاً من العامة والخاصة.

٣- البقرة: ١٢٨.

٤- إبراهيم: ٤٠.

ص: ١٠٩

وقوله تعالى: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ...» (١).

في الآيتين الأولتين، هناك دلالة صريحة وواضحة على طلب إبراهيم عليه السلام من ربه أن يجعل في ذريته جماعة مسلمة، وبالنظر إلى حرف الجرّ (من) في الآيتين المذكورتين، نلاحظ أن الطلب المُشار إليه لا يشمل إلا فئة مُعَيَّنة من ذرية إبراهيم عليه السلام، وهو ما تَمَّت الإستجابة إليه في الآية الثالثة.

وبعبارة أكثر وضوحاً إنَّ الدَّعاء المذكور لم يكن حصرياً على وُلد إبراهيم المباشرين، بل كان ممتداً إلى زمان خاتم الأنبياء، ويكفي أن نذكر تكلمة الآية الأولى و هي: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ...» لتأكيد ذلك، وقد وردت روايات عديدة بطرق الشيعة وأهل السنة تفيد اعتبار النبي صلى الله عليه وآله نفسه مصداقاً لتلك الدعوة (٢).

وعلى هذا، لا- غرو في إفادة تلك الآيات هذا المعنى بشكل واضح، وهو وجود جماعة مسلمة على الدوام في ذرية إبراهيم عليه السلام.

والآن لنضع هذه المقدمة القرآنية إلى جانب الروايات العديدة، والتي جاء فيها عن النبي صلى الله عليه وآله:

«أنا من خير سلالة وأشرف عصابة».

فإذا قلنا: إنَّ النبي صلى الله عليه وآله قد انحدر من أسرة كافرة- ولو لجيل واحد-، فإما أن نقرّ بعدم وجود فئة مؤمنة في ذلك الزمان، وهو ما يتناقض مع المقدمة القرآنية المستنتجة من الآية؛ وإما أن نقرّ بوجود الفئة المؤمنة لكن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن في أحسنها أو أشرفها، مُنكرين بذلك المقدمة الثانية والروايات النبوية، أو الإقرار بأفضليته الكافر على المؤمن وهو ما لا يتناسب والآية الشريفة «وَلَعَجِدُ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ...» (٣).

وعلى هذا، وبعد دحضنا للاحتتمالات الثلاثة السالفة لا نجد مفرّاً من الاعتراف بكون جميع أجداد النبي صلى الله عليه وآله مؤمنين.

١- الزخرف: ٢٨.

٢- راجع الميزان ١: ٢٨٦؛ روح المعاني ٢: ٣٨٦.

٣- البقرة: ٢٢١.

ص: ١١٠

ولتأكيد ماقلناه نقوم بعرض بعض تلك الروايات في بحث الأدلة الروائية إن شاء الله، لكننا نشير هنا إلى نماذج: الترمذى في صحيحه بإسناده قال: «جاء العباس إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فكأنه سمع شيئاً، فقام النبي صلى الله عليه و آله على المنبر فقال: من أنا؟ فقالوا: أنت رسول الله عليك السلام.

قال: أنا محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب، إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً» (١).

القندوزى عن الترمذى والطبرانى والبيهقى وأبونعيم الحافظ بإسنادهم عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: إن الله خلق الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً... وجعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً (٢).

الإمام أحمد بن حنبل، بإسناده عن أبي هريرة: إن النبي قال: بعث من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه. (٣) الأدلة الروائية

روايات الشيعة:

١- الكليني: «بأسانيده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: نزل جبرئيل على النبي فقال:

يا محمد، إن ربك يقرئك السلام، ويقول: إننى قد حرمت النار على صلب أنزلك، وبطن حملك وحجر كفلك...» (٤).

٢- الطوسى: «بسنده إلى جابر بن عبد الله الأنصارى، عن النبي صلى الله عليه و آله - حديث:-

إن الله تعالى لما أحب أن يخلقنى خلقنى نطفة بيضاء طيبة فأودعها صلب ابن آدم، فلم يزل ينقلها من صلب طاهر إلى رحم إلى نوح وإبراهيم عليهما السلام، ثم كذلك إلى

١- صحيح الترمذى ٥: ٢٤٤، ح ٣٦٠٨؛ ينابيع المودة ١: ١١.

٢- ينابيع المودة ١: ١٤؛ وعن الثعلبى أيضاً بتفاوت يسير عن حذيفة بن اليمان وسلمان، المصدر نفسه ١: ١٥.

٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢: ٣٧٣؛ السيرة الحلبية ١: ٢٧؛ ينابيع المودة ١: ١٥.

٤- الكافى ١: ٤٤٦، ح ٢١.

ص: ١١١

عبدالمطلب فلم يصيبني من دنس الجاهلية ...» (١).

٣- الطبرسي: «بإسناده عن علي بن أبي طالب عن النبي صلى الله عليه و آله: يا علي، إن عبدالمطلب كان لا يستقسم بالأزلام، ولا يعبد الأصنام، ولا يأكل ما ذبح على النصب، ويقول: أنا علي دين أبي إبراهيم عليه السلام» (٢).

٤- قال أميرالمؤمنين علي عليه السلام في صفات المرسلين:

«فاستودعهم في أفضل مستودع، وأقرهم في خير مستقر، تناسختهم كرائم الأصلاب إلى مطهرات الأرحام، كلما مضى سلف قام منهم بدين الله خلف، حتى أفضت كرامه الله سبحانه وتعالى إلى محمد صلى الله عليه و آله فأخرجه من أفضل المعادن منبتاً، وأعز الأرومات مغرساً من الشجرة التي صدع منها أنبياءه، وانتجب منها أمناه، عترته خير العتر، وأسرته خير الأسر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حرم وبسقت في كرم، لها فروع طوال وتمر لا ينال» (٣).

١- أمالي الطوسي ٤٩٩: ١٠٩٥.

٢- مكارم الأخلاق: ٤٦٨.

٣- نهج البلاغة، الخطبة ٩٤.

ص: ١١٢

٥- الصدوق، بإسناده عن علي عليه السلام: «والله ما عبد أبي ولا جدى عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط. قيل له: فما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلون إلى البيت على دين إبراهيم متمسكين به» (١).

٦- الصدوق بإسناده المتصل عن جابر بن يزيد الجعفي، عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال سئل رسول الله صلى الله عليه وآله: أين كنت و آدم في الجنة؟ قال: كنت في صلبه هبط إلى الأرض وأنا في صلبه، وركبت السفينة في صلب نوح، وقذف بي في النار في صلب أبي إبراهيم. لم يلتق أبوان على سفاح قط. لم يزل ينقلني في الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، هادياً مهدياً» (٢).

٧- الصدوق، بإسناده عن أبي ذر قدس سره قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «خلقت أنا وعلى بن أبي طالب من نور واحد... فلم يزل ينقلنا الله عزوجل من أصلاب طاهرة إلى أرحام طاهرة...» (٣).

روايات السنّة:

٨- الطبراني بإسناده عن ابن عباس: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» قال: «من نبى إلى نبى حتى أخرجت نبياً» (٤).

٩- الهيثمي بإسناده عن ابن عباس: «من صلب نبى إلى صلب نبى حتى صرت نبياً» (٥).

١٠- النويرى عن الرسول: «لما خلق الله آدم أهبطني في صلبه إلى الأرض»

١- كمال الدين: ١٧٤ ح ٣٢.

٢- تفسير البرهان ١٣: ١٩٢، ح ٢.

٣- تفسير البرهان ٣: ١٩٢، ح ٣.

٤- المعجم الكبير ١١: ٢٨٧؛ السيرة الحلبية ١: ٤٧.

٥- مجمع الزوائد ٧: ٨٦.

ص: ١١٣

حملنى فى صلب نوح بالسفينه، وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم، ثم لم يزل ينقلنى من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجنى من أبوين لم يلتقيا على سفاح قط (١).

١١- السيوطى: أخرج البيهقى وابن عساكر من طرق مالك عن الزهري عن أنس: أن النبى صلى الله عليه و آله قال: «ما افترق الناس فرقتين إلا جعلنى الله فى خيرهما، فأخرجت من بين أبوى فلم يصبنى شىء من عهد الجاهلية، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم، حتى انتهيت إلى أبى وأمى فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً (٢)».

١٢- أخرج ابن سعد: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «والله ما افترق فرقتان منذ خلق الله إلا كنت فى خيرهما».

١٣- الرازى: ومما يدل أيضاً على أن أحداً من آباء محمد ما كان من المشركين قوله صلى الله عليه و آله: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات»، وقال تعالى:

«إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» وذلك يوجب أن يقال: إن أحداً من أجداده ما كان من المشركين (٣).

١٤- الحلبي: عن ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه و آله: إن الله خلقنى حين خلقنى جعلنى من خير، ثم حين خلق القبائل جعلنى من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلنى من خير أنفسهم، ثم خلق البيوت جعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً (٤).

١٥- الهندي: قال: «كنت وآدم فى الجنة فى صلبه وركب بى السفينة فى صلب أبى نوح، وقذف بى فى النار فى صلب إبراهيم، لم يلتق أبواى قط على سفاح، ولم يزل الله ينقلنى من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة، صفى، مهدى، لا يتشعب

١- نهاية الإرب ١: ٣٦٢؛ الخصائص الكبرى ١: ٣٢ بتفاوت يسير.

٢- الخصائص الكبرى ١: ٣٨.

٣- التفسير الكبير ١٣: ٣٩.

٤- السيرة الحلبية ١: ٤٦.

ص: ١١٤

شعبتان إلاً كنت في خيرهما» أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس (١).

١٦- الترمذى: روى بإسناده أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم فى خير فرقههم، وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير قبيلته، ثم تخير البيوت فجعلنى

فى خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» (٢).

١٧- نقل القندوزى عن الطبرانى بإسناده، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«لم أزل خياراً من خيار» (٣).

١٨- نقل ابن أبى الحديد عن الرسول صلى الله عليه وآله أنه قال:

«نقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية» (٤).

وقال صلى الله عليه وآله كذلك: «أنا ابن الأكرمين» (٥).

أدلة الروايات

تنقسم الروايات التى أوردناها إلى خمس مجاميع، هى:

أ الروايات التى تدل صراحةً على إيمان أجداد رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا مجال للخوض فيها؛ مثل الروايتين رقم (٣) و (٥).

ب الروايات التى تدل على أنه صلى الله عليه وآله قد انتقل عبر الأصلاب والأرحام الطاهرة؛ مثل الروايات رقم (٢)؛ ٦؛ ٧؛ ١٠؛ ١٣؛

١٥؛ و (١٨). ويحمل البعض معنى (الطهارة) على أنها طهارة من الزنا والسفاح، إلا أن هذا رأى خاطئ بدليل كون الشرك هو أنجس

النجاسات، وهو ما صرح به القرآن الكريم بقوله تعالى: «إِنَّمَا

١- كنز العمال ٦: ١٠٦؛ الدر المنثور ٥: ٩٨ بتصرف.

٢- سنن الترمذى ٥: ٥٤٤، ح ٣٦٠٧؛ ينابيع المودة، القندوزى ١: ١١.

٣- ينابيع المودة ١: ١٥.

٤- شرح نهج البلاغة ٧: ٦٣.

٥- المصدر نفسه: ٦٤.

ص: ١١٥

الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» (١).

لذا، فيجب حمل الطهارة في تلك الروايات إما على كونها تضمّ جميع المصّاديق، أو على المرتبة العُلّيا والمصداق الأظهر كذلك، وهي الطهارة من الشرك؛ وخصوصاً تطرّق بعض الروايات بصورةٍ منفصلةٍ إلى عفاف آباء الرسول صلى الله عليه و آله وأمهاته، بعد بيان طهارتهم، وهو ما يدلّ على كون هاتين المسألتين منفصلتين عن بعضهما البعض. وقد تمّ نقل وتوارد هذه الروايات، باستثناء ما ذكرنا، في مصادر أخرى لن نتطرّق إليها لمراعاة الإيجاز.

كتب الشيخ الطوسي يقول:

«روى عن النبي صلى الله عليه و آله أنه قال: «نقلني الله من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات لم يندسني بدنس الجاهلية»، وهذا الخبر لا-خلاف في صحته، فبيّن النبي أنّ الله نقله من أصلاب الطاهرين فلو كان فيهم كافر لما جاز وصفهم بأنهم طاهرون، لأنّ الله وصف المشركين بأنهم أنجاس فقال: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ» (٢)» (٣).

وقال الألويسي في تفسيره الكبير، بعد نقله لتلك الرواية:

«وتخصيص الطهارة بالطهارة من السفاح لا دليل له يعوّل عليه، والعبارة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب» (٤).

ت الروايات التي تدلّ على أنّ الله سبحانه قد أقرّ النبي صلى الله عليه و آله في أفضل الزمر وأشرف الأسر، إضافةً إلى عدم خلوّ الأرض من الجماعات المؤمنة، ولو كان النبي صلى الله عليه و آله قد انحدر من أسرة كافرة وصُلب مُشرك، فمعنى ذلك أنّه لم يكن صلى الله عليه و آله من أفضل الأسر ولا أشرفها.

١- التوبة: ٢٨.

٢- التوبة: ٢٨.

٣- التبيان ٤: ١٧٥.

٤- تفسير روح المعاني ٧: ١٩٥.



ص: ١١٦

نُقِلَ عن جلال الدين السيوطي أنه استدلل بالروايات المذكورة على الشكل التالي:  
«بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه».

من ناحية أخرى، هناك بعض الروايات تدل على وجود سبعة أُنْفَارٍ أو أكثر من المسلمين المؤمنين في الأرض في كل زمان، كما روى عبد الرزاق ابن منذر، بسند صحيح على شرط الشيخين، عن أمير المؤمنين عليه السلام، ما يلي:  
«لم يزل على وجه الأرض سبعة مسلمون فصاعداً، ولولا ذلك لهلكت الأرض ومن عليها».  
ونقل الإمام أحمد بن حنبل بسند صحيح على شرط الشيخين (كذلك) عن ابن عباس، قال:  
«ما خلقت الأرض من بعد نوح من سبعة، يدفع الله بهم عن أهل الأرض».

والآن، لو وضعنا هاتين المقدمتين معاً وجنباً إلى جنب، سنستنتج إما أن أجداد الرسول صلى الله عليه و آله جميعاً كانوا ضمن الزمرة المسلمة، وهي النتيجة المطلوبة التي نتوخاها، أو أن ندعى بأن أجداده صلى الله عليه و آله كانوا مُشْرِكِينَ، وفي هذه الحالة لا بد لنا من أن نقول بأن الآخرين لم يكونوا مُشْرِكِينَ، وكان هؤلاء أفضل وأشرف من أجداد النبي صلى الله عليه و آله، وهو ما لا يتفق والحديث النبوي الشريف، أو أن ندعى أن أجداد النبي صلى الله عليه و آله بالرغم من كونهم مُشْرِكِينَ، إلا أنهم كانوا أفضل من المسلمين، وهو ما يتنافى وما صرح به القرآن الكريم:

«وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ...» (١)

إذن، نستنتج من كل ذلك، بأن أجداد النبي صلى الله عليه و آله كانوا مؤمنين ومُفْضِلِينَ على أهل زمانهم (٢).

١- البقرة: ٢٢١.

٢- راجع: حياة النبي وسيرته ١: ٥٣.

ص: ١١٧

ث- وهناك روايات أخرى تقول بأنّ النبيّ صلى الله عليه و آله قد انتقل بين أصلاب الأنبياء، مثل الروايتين (٥) و (٦).

والآن، هل يُمكن القول بأنّ جميع آباء وأجداد الرسول صلى الله عليه و آله كانوا أنبياء؟

فى البدء، يجب الانتباه إلى أنّ هناك بوناً شاسعاً بين كلمتى: (نبي) و (رسول)، فقد تُطلق كلمة (نبي) أحياناً على الراعى والحارس لشريعة الرسول؛ إذن، يُمكن القول بأنّ مراد هذه الآية هو أنّ آباء وأجداد الرسول صلى الله عليه و آله كانوا يُراعون واجباتهم الدينيّة وأنهم كانوا مُحافظين ورُعاة شريعة ودين الأنبياء والمرسلين الذين سبقوهم، وإن لم يُومروا فى الظاهر بتبليغ تلك الحقائق. كتب العلامة المجلسي يقول:

«اتفقت الإمامية على أنّ والدى الرسول وكل أجداده إلى آدم كانوا مسلمين، بل كانوا من الصديقين، إما أنبياء مرسلين أو أوصياء معصومين، ولعل بعضهم لم يظهر الإسلام لتقية أو لمصلحة دينية» (١).

ويُمكن أن تُحمّل تلك الروايات على الغلبة، أى يغلب انتقال النبيّ صلى الله عليه و آله فى أصلاب الأنبياء.

ج الروايات التى تصرّح بأنّ الصلب الذى جاء منه النبيّ صلى الله عليه و آله يُحرّم على جهنم، الرواية رقم (١) التى تدلّ بوضوح على إيمان جدّ النبيّ صلى الله عليه و آله، بل وأجداده صلى الله عليه و آله جميعاً- بعد الأخذ بنظر الاعتبار الآيات الشريفة فى القرآن التى صرّحت بدخول المشركين جهنم وتعرّضهم للعذاب، مثل الآية (٧٣) من سورة الأحزاب، والآية (٦) من سورة الفتح، والآية (٦) من سورة البينة.

الإجماع

ص: ١١٨

يُعتبر إيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله أمراً مُجمَعاً عليه لدى الشيعة، حيث صرّح بعض علماء الشيعة بهذا الإجماع. وقد ذكرنا في السطور السابقة وأثناء بياننا لنظريّة الشيعة، كلام المحدث الكبير الشيخ الصدوق، والمتكلم والفقير الأجل الشيخ المفيد، وشيخ الطائفة الطوسي، والمفسّر الكبير الطبرسي، والمحدث المعروف العلامة المجلسي رحمهم الله، حول مسألة الإجماع على إيمان آباء الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، ونكتفي بهذا القدر من النقل عنهم.

العقل

اتجه البعض إلى الاستدلال العقلي لإثبات إيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله، ويعتقدون، وكما برهن عليه في علم الكلام، بوجوب زوال الأمور التي تنفّر الناس من النبي ودعوته، وأنها لا ينبغي أن تتواجد في النبي، وكفر الآباء أحد تلك الأمور. ولهذا، ومن أجل إبقاء شرف مقام النبوة وجلب اهتمام الناس إليها وعدم تنفّرهم من النبي ومما يدعو إليه، يتوجب على النبي أن يولد من أبوين لا يُعرّف عنهما الكفر. ويُمكن بالتالي وضع هذا الكلام في إطار سائر الاستدلالات المؤيدة لما نقول. وهذا ما أيده أبو الفتوح الرازي (١).

وفي حاشية السيرة الحلبية عن الفخر الرازي، نقرأ ما يلي:

«إنّ أبوي النبي صلى الله عليه و آله كانا على الحنيفة، دين إبراهيم، كما كان زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه، بل إنّ آباء الأنبياء ما كانوا كفّاراً، تشريفاً لمقام النبوة، وكذا أمّهاتهم...» (٢).

وكتب الماوردي في (أعلام النبوة) ما يلي:

«لما كان الأنبياء صفوة عباده وخيرة خلقه لما كلفهم من القيام بحقه والإرشاد لخلقهم، استخلصهم من أكرم العناصر واجتباهم بمحكم الأوامر، فلم يكن لنسبهم من قدح ولمنصبهم من جرح؛ لتكون القلوب أصفى والنفوس لهم أوطأ... إنّ الله

١- تفسير روح الجنان ٤: ٤٦١.

٢- السيرة الحلبية ١: ٦٢.

ص: ١١٩

استخلص رسوله من أطيب المناكح، وحماه من دنس الفواحش، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزهة» (١).

الشواهد التاريخية

يتفق جميع المؤرخين على وجود جماعات موحّدة بين العرب قبل الإسلام، حيث كانوا يُعرفون أحياناً ب (الحنفاء)، وأحياناً أخرى ب (الموحدين). ومن بين أولئك الذين وردت أسماؤهم في صفحات التأريخ هم: ورقه بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، والنابغة الجعدى، وقس بن ساعدة الإيادي، وآخرين غيرهم (٢).

وقد تمّ ذكر أسماء بعض أجداد النبي صلى الله عليه و آله ضمن هذه الجماعة من الحنفاء والموحدين، وسيدنا عبد المطلب هو أحد أولئك المذكورين.

ولعلّ أبلغ شاهد على إيمان هذا الرجل العظيم هو دوره وكلامه ودعاؤه في حادثه أصحاب الفيل، وكذلك استسقاؤه برسول الله صلى الله عليه و آله والاستشهاد بكلماته وأبياته الشعرية.

روى المحدث الكبير الكليني عن الإمام الصادق عليه السلام، والمؤرخ المشهور اليعقوبى عن رسول الله صلى الله عليه و آله ما يلى:

«إن الله يبعث جدى عبدالمطلب أمّةً واحدةً فى هيئته الأنبياء وزى الملوك» (٣).

ويقول اليعقوبى بخصوص سيدنا عبد المطلب:

«عبد المطلب يومئذ سيد قريش غير مدافع ... رفض عبادة الأصنام ووحد الله عزوجل ووفى بالنذر ...» (٤).

ونقل محمد بن يوسف الشامى عن أستاذه، حول إيمان أمّ النبي صلى الله عليه و آله ما يلى:

١- المصدر نفسه.

٢- راجع: آيتى، تاريخ النبى: ١٣-١٩.

٣- الكافى ١: ٤٤٦، ح ٢٢، ٢٣ و ٢٤؛ وتاريخ اليعقوبى ٢: ١٤.

٤- تاريخ اليعقوبى ٢: ١٠.

ص: ١٢٠

«ظفرت بأثر يدل على أنها (أم النبي صلى الله عليه و آله) ماتت موحدّة ... إذ ذكرت دين إبراهيم وبعث ابنها بالإسلام ونهيه عن عبادة الأصنام ... وهذا القدر كاف في التبري من الكفر ... فقد كانوا جماعة تحنّفوا وهو التوحيد، فلا بدع أن تكون أم النبي منهم ... وشاهدت في حمله وولادته من آياته الباهرة، ورأت النور الذي يخرج منه، قالت لحليمه حين جاءت وقد شق صدره: أخشيتما عليه من الشيطان؟ كلاً والله ما للشيطان عليه سبيل، وإنه لكائن لابني هذا شأن. وقدمت به المدينة وسمعت كلام اليهود فيه وشهادتهم له بالنبوة، فهذا كله يؤيد أنّها تحنّف في حياتها...».

ثم يواصل محمّد بن يوسف الشاميّ حديثه، حيث يسرد الروايات المخالفة لذلك، ويعمد إلى إضعافها (١).

وكتب ابن أبي الحديد حول إيمان سيّدنا عبد الله وسيّدنا عبد المطلب وآخرين، يقول:

فأمّا الذين ليسوا بمطلّة فالقليل منهم، وهم المتألّهون أصحاب الورع والتحرّج عن القبائح، كعبد الله وعبد المطلب وابنه أبي طالب، وزيد بن عمرو بن نفيل؛ وقسّ بن ساعدة (٢).

وفي هذا الصدد، قال الفخر الرازي في ذيل الآية الشريفة: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ ...»: وقد أشكلوا على أنه لم يكن في زمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله من العرب من هو بمسلم، وكذلك من غير العرب في ذريّة إبراهيم عليه السلام وإسماعيل عليه السلام.

ثمّ يُجيب الفخر الرازي على ذلك بقوله:

«قال القفال: إنّه لم يزل الرسل من ذرية إبراهيم وقد كان في الجاهلية زيد بن عمرو بن نفيل وقس بن ساعدة، ويقال: عبد المطلب بن هاشم جدّ رسول الله صلى الله عليه و آله، عامر بن الظرب، كانوا على دين الإسلام يقرون بالإيداء والإعادة والثواب

١- السيرة النبوية ٢: ١٢٦.

٢- شرح ابن أبي الحديد ٢: ١٢٦.

ص: ١٢١

والعقاب، يوحدون الله تعالى، ولا يأكلون الميتة ولا يعبدون الأوثان» (١).

أما فيما يتعلق بعظمة سيدنا (هاشم)، أحد أجداد النبي صلى الله عليه و آله، فقد بين العديد من المؤرخين شواهد تشير إلى مجده وعظمته وجوده وكرمه، وكذلك إيمانه الراسخ، وتوحيده البين.

ومن جملة تلك الشواهد، الخطبة التي كان يلقاها في بداية شهر ذى الحجة من كل عام.

كتب الحلبي في (السيرة) ما يلي:

«كان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف، وإذا أهل هلال ذى الحجة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها، ويخطب ويقول في خطبته: يا معشر قريش! إنكم جيران بيت الله تعالى، أكرمكم الله تعالى بولايته، وخصيكم بجواره دون بني إسماعيل، وإنه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه...».

ثم كان يكرّر من قوله: «لقد هيأت من المال أحله وأطيه؛ فلم يأت عن ظلم ولا قطع رحم ولا غضب، ولو كان بمقدورى لأخذت جميع النفقات على عاتقي، ولكن قوموا أنتم الآن بعزل أموالكم وأطيها لهذا الأمر المهم...» (٢).

وقد ورد ذكر هذه الخطبة في مصادر أخرى مع اختلاف بسيط (٣).

ولإثبات إيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله الآخرين، طبقاً للشواهد التاريخية، يُمكن الاستناد إلى جملة منها، والتي تبين شيوع دين التوحيد في أرض مكة قبل (عمرو بن لحي)، وهكذا يتضح إيمانهم طبقاً لتلك الشواهد التاريخية.

يقول الحلبي:

«تظافت نصوص العلماء على أن رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحي، فهو أول من غير دين إبراهيم وشرع للعرب الضلالات»

(٤).

١- التفسير الكبير ٤: ٦٨.

٢- السيرة الحلبي ١: ٧.

٣- راجع: السيرة النبوية، السيد أحمد زيني دحلان: ١٩؛ السيرة النبوية، لابن هشام: ١: ١٤٣.

٤- المصدر نفسه: ١٠.

ص: ١٢٢

وقد ورد هذا المضمون عن رسول الله صلى الله عليه و آله كذلك (١).

وقد عرفت العرب قبل زمان الرسول صلى الله عليه و آله شعار (لبيك) على النحو التالي:

«لبيك، اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...».

وواضح تماماً أن شعار كل الناس كان شعار التوحيد والدين الواحد وعبادة الإله الواحد ونبذ الأصنام، وأن رؤساء القوم وكبراءهم كانوا من التابعين لهذه الطريقة وذلك المسلك، وأن أجداد رسول الله صلى الله عليه و آله غالباً ما كانوا من كبار القوم ورؤساء العشيرة.

وقد نُقل عن (كعب بن لؤي)، الجد الآخر للنبي صلى الله عليه و آله، والذي عاش قبل النبي صلى الله عليه و آله بخمسة قرون، نُقل عنه ما يلي:

---

١- المصدر نفسه.

ص: ١٢٣

فكانت القریش إلى كعب، ثم يعظم ويدكرهم بمبعث النبى، ويعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه ويقول: سيأتى لحرمكم نبأ عظيم، وسيخرج منه نبى كريم ينشد أبياتاً آخرها:

على غفلة يأتى النبى محمد فيخبر أخباراً صدوق خيرها (١)

وكتب السيوطى يقول:

«قد أخرج ابن حبيب فى تاريخه من ابن عباس قال: كان عدنان ومعد وربيعه ومُضَرُّ وحزيمه وأسد على ملة إبراهيم، فلا تذكرهم إلا بخير... وفى الروض الأنف حديث: لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً» (٢).

الأدلة المخالفة

ولإثبات كفر آباء النبى صلى الله عليه و آله، استند البعض إلى جملة من الآيات والروايات، وسنقوم أدناه ببحث ودراسة بعض تلك الأدلة:

١- الآيات الدالة على كفر أبى النبى إبراهيم عليه السلام:

«وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدِهِ وَعَدَاهَا إِنِّي أَتَّبِعُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...» (٣).

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَ اتَّخِذْ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أُرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٤).

«وَإِذْ كَرِهَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا\* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» (٥).

وتواصل الآيات الأخيرة (من سورة مريم) حيث تشير إلى وعد إبراهيم لأبيه (آزر) بالاستغفار له، وتشير الآية (٨٦) من سورة الشعراء إلى إنجاز إبراهيم

١- السيرة الحلبية: ١٥؛ السيرة النبوية، زينى دحلان ١: ٩؛ وورد مضمون ذلك فى نهاية الإرب ١: ٣٣.

٢- المقامة السندسية: ٩.

٣- التوبة: ١١٤.

٤- الأنعام: ٧٤.

٥- مريم: ٤١-٤٢.



ص: ١٢٤

لوعده تجاه أبيه، حيث تقول الآية الشريفة: «وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِينَ».

وقد فسّر بعض المفسرين هذا العمل دعاءً ظاهرياً، حيث تشير تكلمة الدعاء المذكور إلى كونه (أى الأب) كان ضالاً، وأنه لن يفلح يوم القيامة: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

وتخبرنا الآية الشريفة (١١٤) في سورة التوبة أن إبراهيم وبعد تأكده من إصرار أبيه على الكفر والضلال، تبرأ منه قائلاً: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ\* وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِثْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ».

وتتضمن تلك الآيات شواهد وقرائن تدلّ على حدوث كل تلك الأمور في بداية حياة النبي إبراهيم عليه السلام، حيث تشير التكلمة في الآية الشريفة قائلة: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (١).

ويُخبرنا القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام لما اعتزل قومه و تبرأ منهم، و هبه الله سبحانه الذرية «فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ...» (٢).

إلا أن النبي إبراهيم عليه السلام وفي أواخر سنّ عمره الشريف، وبعد نبائه للكعبة الشريفة، دعا لأبيه إذ قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ»؛ «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ...» (٣).

وبالاستناد إلى ما قيل، يتضح لنا بجلاء أن الشخص الأول الذي أطلق عليه لقب (الأب) يختلف عن الشخص الثاني الذي سُمي ب (الوالد)، وذلك لأن القرآن يُخبرنا بصريح العبارة بأنه ليس من صفات الأنبياء أن يدعو للكفار، وأن الاستغفار الذي قام به إبراهيم عليه السلام عندما كان في مُقتبل العُمر لم يكن إلا عن موعده وعدّها

١- الشعراء: ٨٣.

٢- مريم: ٤٩.

٣- إبراهيم: ٤١.

ص: ١٢٥

إبراهيم عليه السلام لأبيه، وهو دعاء صوري كما قلنا (١).

ويبين هذا الاستدلال القرآني بوضوح على أن المقصود بكلمتي: (أبي) و (أبت) ليس أبا إبراهيم. إضافة إلى هذا، هناك العديد من الشواهد والقرائن التاريخية التي أشار إليها المفسرون، نذكر منها على سبيل المثال:

يقول شيخ الطائفة الطوسي:

«قال الزجاج: لاخلاف بين أهل النسب أن اسم أبي إبراهيم تاريخ، والذي في القرآن يدل على أن اسمه آزر ... والذي قاله الزجاج يقوى ما قاله أصحابنا أن آزر كان جدّه لأمه أو كان عمّه؛ لأن أباه كان مؤمناً...».

ثم يعرض بعد ذلك بعض الأدلة على إيمان والد إبراهيم، مشيراً إلى وجود أدلة عند الشيعة لا يذكرها من لا يخرج عن تفسير الآيات (٢).

أما المفسر الكبير الطبرسي فيذكر شبيهه كلام الطوسي (٣).

وذكر العلامة الآلوسي في تفسيره:

«والذي عول عليه الجمّ الغفير من أهل السنّة أن آزر اسمّ لعمّ إبراهيم، وجاء إطلاق الأب على العم في قوله تعالى: «أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِنَبِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...» وعن محمد بن كعب القراظي أنّه قال: الخال والد، وتلا هذه الآية، وفي الخبر: ردّوا على أبي العباس».

ثم قام ببيان الاستدلال القرآني السابق بالتفصيل، وفي معرض توضيحه للآية الشريفة: «رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ...» قال:

«فإنه يستنبط من ذلك أن المذكور في القرآن بالكفر هو عمّه، حيث صرح في الأثر الأول أن الذي هلك قبل الهجرة هو عمّه، ودلّ الأثر الثاني على أن الاستغفار

١- مجمع البيان ٢: ٣٢٢.

٢- التبيان ٤: ١٧٥.

٣- مجمع البيان ٢: ٣٢٢.

ص: ١٢٦

لوالديه كان بعد هلاك أبيه بمدّة مديدة، فلو كان الهالك هو أبوه الحقيقي لم يصح منه هذا الاستغفار أصلاً فالذى يظهر أن الهالك هو العم الكافر المعبر عنه بالأب مجازاً، وذلك لم يستغفر له بعد الموت، وأن المستغفر له إنما هو الأب الحقيقي وليس بآزر، وكان في التعبير بالوالد في آية الاستغفار وبالأب في غيرها إشارة إلى المغاير؛ ومن الناس من احتج على أن آزر ما كان والد إبراهيم بأن هذه دالة على أنه شافهه بالغلظة والجفاء ومشافهه الأب بالجفا لا يجوز» (١).

وقد بين الفخر الرازي كذلك هذا الاستدلال في (التفسير الكبير)، الجزء (٢٤)، صفحة (١٧٤)، والجزء (١٣)، صفحة (٣٨).  
أما السيوطي، فقد أورد في تفسيره ما يلي:

«أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبي جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي قال: اسم أبيه تاريخ، وأخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ»، قال: ليس آزر أباه ... وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس ... يقول: إنَّ أبا إبراهيم لم يكن اسمه آزر، وإنما اسمه تاريخ» (٢).

واستدل الحلبي أيضاً في سيرته بالآية الشريفة: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» على إيمان آباء النبي صلى الله عليه و آله، حيث قال: «لا يقال: يعارض جعل الساجدين عبارة عن المؤمنين أن من جملة آباءه آزر والد إبراهيم وكان كافراً لأننا نقول: أجمع أهل الكتابين على أن آزر كان عمه، والعرب تسمى العم أباً، كما تسمى الخالة أمّاً، فقد حكى الله عن يعقوب أنه قال: آبائي إبراهيم وإسماعيل، ومعلوم أن إسماعيل إنما هو عمه».

ثم بين الحلبي أن إبراهيم كان قد استغفر لأبيه في أواخر عمره، مما يدل على أن (آزر) لم يكن أباً لإبراهيم (٣).

١- تفسير روح البيان ٧: ١٩٥.

٢- الدر المنثور ٣: ٢٣.

٣- السيرة الحلبيّة ١: ٢٩.

ص: ١٢٧

## الروايات المخالفة

نقل مُسلم في صحيحه حادثه، حيث قال: «سأل أحد أصحاب النبي صلى الله عليه و آله عن وَضع أبيه الكافر، فأجاب النبي صلى الله عليه و آله: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» (١).

وذكر حماد بن سلمة ضمن سلسلة سند تلك الروايات، وهو شخص قال عنه علماء الرجال الكثير فيما يتعلق بحفظه ودقته في نقل الرواية، وقالت عنه جماعة:

«وقع في أحاديثه مناكير دسها ربيعة في كتبه» (٢).

أما المشكلة الأخرى التي توجد في هذه الرواية، فهي أنه، وبموجب هذا الحديث، يُعتبر كل الذين عاشوا في ما يُسمى ب (الفترة) من أصحاب النار، في حين يقول القرآن الكريم بصراحة: «... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (٣).

وما أجمل ما أشار إليه السيوطي في أبياته الشعرية التي سنورها في نهاية المطاف، حيث بين زيف ما ادعى بكفر آباء النبي صلى الله عليه و آله وأن الجميع، سواء منهم الشافعية أو الأشاعرة، يؤمنون بأن كل من عاصر الفترة لم يكن الله ليعذبه، بل هم مغفور لهم، لأنهم لم يتمكنوا من معرفة الوحي أو الدين الحق ولم تصلهم أخبار الأنبياء، وليس ذلك لإصرارهم على الكفر على الإطلاق (٤).

وقد بين العجلوني كذلك هذا الاستدلال في (كشف الخفاء)، قائلاً:

لقد ذهب المتكلمون والأشاعرة وعلماء الأصول كافة إلى المغفرة لمن عاش قبل البعثه ومات، إضافة إلى الأدلة الكثيرة الدالة على إيمان أجداد النبي صلى الله عليه و آله،

١- صحيح مسلم؛ صفة الصفوة ١: ١٧٢؛ مجمع الزوائد ١: ٣١٥.

٢- المصادر نفسها.

٣- الإسراء: ١٥.

٤- كشف الخفاء ١: ٦١.

ص: ١٢٨

وكذلك الروايات الدالة على أن الله يعيد أب النبي صلى الله عليه وآله وأمه إلى الدنيا كي يؤمنوا. (١) وهناك رواية أخرى تشبه تلك، حيث ذكر بعضهم أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أمي وأمك في النار» (٢)، ولا حاجة بنا للجواب على هذه الرواية نظراً إلى أننا استوفينا الجواب على الرواية الأولى، فيكون الجواب على هذه الرواية واضحاً وجلياً.

وذكر الثعالبي في معرض بيانه وتفسيره للآية الشريفة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...» (٣)

ما شرحه: أن (عدي بن حاتم) سأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن وضع أبيه (حاتم الطائي) خصوصاً أنه كان من أهل الكرم والجد، وأنه كان يُعيل الفقراء والمساكين والمحرومين. فأجابه النبي صلى الله عليه وآله: إن أباك وأبي إبراهيم الخليل في النار! فنزلت الآية الشريفة: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...».

وفي هذه الرواية كذلك إشكالات كثيرة في مختلف الوجوه، وآثار الوضع والدرس والتحريف بائنه فيها بشكل لا يقبل الجدل. أمّا وجوه الإشكال فيها فأولاً، وكما أورد محقق الكتاب في حاشيته، أن هذه الآية لا تنطبق بأي شكل من الأشكال على والد النبي صلى الله عليه وآله أو (حاتم الطائي)، لأنهما لم يكونا في عصر الإسلام حتى يُقال عنهما: كفرا وصدًا عن سبيل الله، ولم يورد أي واحد إليهما هذا الإتهام. وواضح تماماً أن الآيات إنما تشير إلى من كان يُعاصر الإسلام وزمن البعثة النبوية الشريفة وكانوا في صفّ المُحاربين لله ولرسوله.

أمّا الأمر الثاني، فقد أثبتنا فيما سبق، وبالأدلة الدامغة، أن والد إبراهيم الخليل عليه السلام لا يدخل النار، وأن (آزر) كان جد إبراهيم لأمه أو عمه، ولهذا، فلو ثبت أصل الرواية، لجاز إطلاق لفظه (الأب) على العم، وهو أبو لهب.

وتوجد هناك روايات أخرى بهذا الصدد تمّ ذكرها في الكتب بالتفصيل، وجرى عليها البحث والنقاش، ولم نورد هنا خوفاً من الإطناب.

لكن مما يُثير العجب، أن الفرق والأديان جميعاً تسعى إلى بيان فضائل ومناقب الأنبياء وكذلك الأشخاص الذين تعتبرهم أولياء لله سبحانه، وتبالغ في تحسين صورهم، وحتى المحدثين المسلمين يسعون في كتب الفضائل وخاصة ما

١- المصدر نفسه.

٢- مجمع الزوائد ١: ٣١٣.

٣- الجواهر الحسان ٣: ١٩٤.

ص: ١٢٩

يتعلق منها بالصحابه، بالذود عن مناقبهم واستنكار واستهجان الطعن بهم، لكننا مع ذلك نجد طائفةً أخرى تنسب العيب الأكبر - وهو الشرك والكفر - إلى أجداد رسول الله صلى الله عليه و آله، رغم وجود الأدلة والشواهد التي تفتد ذلك، وتجاهد في سبيل إثبات ذلك على أولئك الأظهار. بل وإن البعض يكتفى بالنقل عن بعض المؤرخين لإثبات إيمان الحنفاء، من أمثال ورقة بن نوفل ونظرائه. والحق أنه ليس هناك ما يمكن قوله بشأن مخالفة كل تلك الأدلة والشواهد، والإصرار على معاندة الحقيقة فيما يتعلق بإيمان آباء الرسول صلى الله عليه و آله. وأى دليل أو برهان يمتلكه من لا يُقر لأولئك بالإيمان؟

وأخيراً، نورد الأبيات الشعرية الرائعة التي أنشدها العالم السنّي الكبير (جلال الدين السيوطي)، والتي تؤكد من خلالها على إيمان أجداد الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، مُشيراً كذلك إلى الأدلة المتعلقة بتلك المسألة، ومُجيباً على بعض التهم والافتراءات حول ذلك.

وأما الأبيات الشعرية فهي:

إن الذي بعث النبي محمداً أنجى به الثقلين مما يجحف  
 ولا وأبيه حكم شائع أبداه أهل العلم فيما صنّفوا  
 فجماعة أجروهما مجرى الذي لم يأت خير الدعاء المسعب  
 والحكم فيمن لم تجئه دعوة أن لا عذاب عليه حكم مؤلف  
 فبذاك قال الشافعية كلهم والشعرية ما بهم متوقف  
 وبسورة الإسراء فيها حجة و بنحو ذا في الذكر آى تعرف  
 ولبعض أهل الفقه في تعليقه معنى أرق من النسيم وألطف  
 إذ هم على الفقر الذي ولدوا ولم يظهر عناد منهم وتخلّف  
 ونحا الإمام الفخر رازى الورى معنى به للسامعين تشنف  
 قال الأولى ولدوا النبي المصطفى كل على التوحيد إذ يتحفف  
 هو من آدم إلى أبيه عبد الله ما فيهم أخو شرك ولا مستنكف  
 فالمشركون كما بسورة توبه نجس وكلهم بطهر يوصف

ص: ١٣٠

و بسورة الشعراء فيه تقلّب في الساجدين فكّلهم متحنف  
هذا كلام الشيخ فخرالدين في أسرار هطلت عليه الأزرف  
فيجراه رب العرش خير جزائه و حباه جنات النعيم تزخرف  
فلقد تدّين في زمان الجاهلية فرقة دين الهدى وتفوا (١)  
و جماعة ذهبوا إلى إحيائه أبويه حتى آمنوا لا خوفوا  
هذا مسالك لو تفرد بعضها لكفى فكيف لها إذا تتآلف  
و بحب من لا يرتضيها صمء أدباً ولكن أين من هو منصف

---

١- نقلًا عن كتاب كشف الخفاء، العجلوني.

## سيرة المصطفى صلى الله عليه و آله

حسن الحاج

«اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» (١).

لقد بعث الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه و آله رحمةً للناس جميعاً «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». (٢) «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...» (٣) (٣).

وختم الله به الأنبياء والرسول

«مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ...» (٤).

وقضى ببقاء واستمرار رسالته إلى نهاية الدنيا وحلول يوم القيامة. كما أن الرسول محمداً صلى الله عليه و آله هو اللبنة الأخيرة في مشروع البناء العظيم الذي يمثل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لبناته. وقد أخبر صلى الله عليه و آله بأنه اللبنة الأخيرة وأنه الذي ختمت

١- الأنعام: ١٢٤.

٢- الأنبياء: ١٠٧.

٣- سبأ: ٢٨.

٤- الأحزاب: ٤٠.



ص: ١٣٢

به الأنبياء والرسل، حيث قال: «متلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأجمله إلا موقع لبنه من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (١).

إن اختيار الرسول محمد صلى الله عليه وآله للرسالة كان بمشيئة الله تعالى الذى خلق الناس جميعاً، وهو العليم بذواتهم وخصائص كل منهم فوق اختياره على عبده ذى الخصائص والملاكات المناسبة لرسالته تعالى دون غيره من العالمين، يقول تعالى فى كتابه المجيد:

«وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» (٢).

يقول الألوسى فى تفسير هذه الآية: إن منصب الرسالة ليس مما ينال مما يزعمون من كثرة المال والولد وتعاضد الأسباب، وإنما ينال بفضائل نفسانية ونفس قدسية أفاضها الله تعالى بمحض الكرم والجود على من كمل استعداده. ونص بعضهم على أنه تابع للاستعداد الذاتى وهو لا يستلزم الإيجاب الذى يقول به الفلاسفة؛ لأنه سبحانه إن شاء أعطى وإن شاء أمسك، وإن استعد المحل (٣).

لهذا فقد اختار الله لدينه الذى ختم به كل رسالاته مكاناً ملائماً، واختار لحملة خير أمة أخرجت للناس، كما اختار أعظم رجالها رسولاً ونبياً صلى الله عليه وآله بملاكات وخصائص جعلته خير من يتلقى الوحي ويبلغه للناس ويتحمل فى سبيل ذلك كل اضطهاد وعنت، كما هى سنة الله مع كل رسالاته ورسالته..

ولولا أن النبوة اصطفاة وإحسان لقلنا إن الرسل بصفاتهم يستحقونها كسباً، لكن جمهور المسلمين أجمعوا على أن الرسالة لا تكتسب فلا بد أن يخلق الله لها استعداداً خاصاً عند صاحبها بحيث يجعله أهلاً لحملها وإبلاغها، وبعد ذلك يصطفيه للرسالة.. (٤)

١- صحيح البخارى، المناقب، باب خاتم النبيين ٢: ٢٧٠.

٢- القصص: ٦٨.

٣- الألوسى، روح المعانى ٨: ١٢٢.

٤- الدكتور أحمد غلوش، الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها: ١١٤.

ص: ١٣٣

لقد خلقه الله وهياًه وكفل الله له التربية السليمة حتى يكون أهلاً لتحمل أمانة الرسالة وتبليغها، وحتى يصطفيه الله تعالى مرّ بمرحلتين: مرحلة نشأة وتهيته، ومرحلة تكليف وإبلاغ.

وأنا، وقبل أن أتحدث هنا في هذه المقالة عن عوامل استعداد الرسول صلى الله عليه و آله لحمل الرسالة الخاتمة وإبلاغها إلى الناس كافة، أقول: وإن كان لهذه العوامل أثر في بناء الرسول صلى الله عليه و آله روحياً ونفسياً وجسماً وبناء ملاكاته- كما يذكرون- إلا أن الإعداد الرباني المختص به دون العالمين والصناعة السماوية الخاصة له أيضاً دون العالمين والعناية الفائقة به من قبل الله تعالى دون العالمين، يبقى كل هذا هو الأساس في بنائه وهو العامل الرئيس في إعداده؛ لأنه النبي المعد والرسول المهيؤ لحمل الأمانة العظمى والرسالة الكبرى التي تحتاج إلى إناء خاص وبوتقة تصهرها فيه ويصهرها هو الآخر، فيكون النموذج التطبيقي الأول لها والمبلغ الأول لها والمسؤول عنها مسؤوليه كاملة أمام الله وأمام الناس جميعاً، ولا يحصل هذا إلا مع توفر الصفات والمقومات التي تضيفها السماء عليه...

ص: ١٣٤

ومع هذا، فإن هذه المقالة تتعرض لتلك العوامل المؤثرة في بنائه صلى الله عليه وآله حتى نكون على علم بما يتوفر عليه صلى الله عليه وآله من أصل ونسب كريم ونشأة حسنة وخصائص طيبة، صاغت مرحلة نشأته وبنائه النفسى والجسمى أيضاً: نسبه وأصله

كان رسول الله صلى الله عليه وآله من بنى هاشم، وهم سادات قريش وأشرفها، وقد عرفوا أنهم سلالة طيبة وعائلة كريمة.. امتازوا على غيرهم من قبائل العرب بخصائص فريدة وشمائل نادرة تركت بصماتها عليه صلى الله عليه وآله.

ولعلماء الوراثة كلام يدور حول تأثير كل شخص بما يحمله نسبه من خصائص جسمية وعقلية وفكرية وعقيدية...

«ولا تكون الوراثة عاملاً هاماً في نقل الصفات الحسية فحسب، وإنما كذلك عن طريقها تنتقل الصفات الأدبية كالأمزجة والميول والغرائز، والصفات العقلية كالذكاء والبلادة وحسن تقدير الأمور أو سوء أو شدة الانتباه أو ضعفه إلى غير ذلك من صفات يكون لها الأثر الأقوى في تكوين أخلاق المرء وتكييفها وطبعها بطابع معين خيراً كان ذلك الطابع أو شراً حسناً أو قبيحاً».

روت أم المؤمنين عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل عليها مسروراً تبرق أسارير وجهه فقال: «ألم تسمعى ما قال المدلجى لزيد وأسامة ورأى أقدامهما فقال: إن بعض هذه الأقدام من بعض» (١).

وهو الذى تدل عليه الآية: «وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا\* إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَتْلُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا» (٢).

١- الدكتور محمد البيطار، فى العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع: ٢٤٠؛ وصحيح البخارى، كتاب المناقب، باب صفة

النبي ٢: ٢٧٢.

٢- نوح: ٢٦-٢٧.

ص: ١٣٥

وابن كثير في تفسير هذه الآية يقول: أى فاجراً فى الأعمال كافر القلب، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً..

«فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» (١).

وقوله صلى الله عليه وآله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء».

على الفطرة: على معرفته الله فليس هناك واحد إلا ويقرّ بأن له صانعاً وإن سماه بغير اسمه أو عبد غيره.

جدعاء: مقطوعة الأطراف (٢).

وبهذا يثبت أن الولد يتأثر بأبويه من ناحية الجسم والبنية، والعقل والذكاء، والفكر والعقيدة، قليلاً أو كثيراً، سلباً أو إيجاباً، وذلك بإرادة الله وقدرته.

إذا عرف هذا ننظر إلى نسب رسول الله صلى الله عليه وآله ومدى تأثره به.

لقد هيأت العناية الربانية سلسلة ممتازة من الآباء والأجداد للنبي صلى الله عليه وآله ليرث منها أديباً عظيماً وشمائلاً جميلة...

وقد وردت فى هذا المضممار نصوص كثيرة تدل على أن نسب النبي صلى الله عليه وآله هو أفضل النسب.

ففى تفسير الآية: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ» (٣).

عن مجمع البيان... وقيل: معناه وتقلبك فى أصلاب الموحدين من نبي إلى نبي حتى أخرجك نبياً عن ابن عباس فى رواية عطا

وعكرمة، وهو المروى عن أبى جعفر وأبى عبد الله صلوات الله عليهما، قالاً: فى أصلاب النبيين نبي بعد نبي حتى

١- الروم: ٣٠.

٢- صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: كل مولود على الفطرة ٤: ٢٠٤٧؛ و غريب الحديث لابن الجوزى ٢: ١٩٩؛ و النهاية فى غريب الحديث لابن الأثير ١: ٢٤٧.

٣- الشعراء: ٢١٩.

ص: ١٣٦

أخرجه من صلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم..

وعن وائل بن الأَسقع قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم».

وقد أشار النووي إلى أن بنى هاشم أفضل العرب لا يدانيهم في الأفضلية إلا بنو المطلب، مستدلاً بهذا الحديث (١).

ويقول المبارك فوري عند شرحه لهذا الحديث: قوله: «إن الله اصطفى» أى اختار. يقال: استصفاه واصطفاه، إذا اختاره وأخذ صفوته، والصفوة من كل شيء خالصه وخياره (٢).

وعن العباس بن عبد المطلب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إن الله خلق الخلق فجعلنى من خير فرقهم وخير الفريقين، ثم خير القبائل فجعلنى من خير القبيلة، ثم خص البيوت فجعلنى من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً» (٣).

أى: أصلاً، إذ جئت من طيب إلى طيب إلى صلب عبد الله بنكاح لا سفاح (٤).

وشهادة أعدائه دليل على مكانته صلى الله عليه وآله عند قومه، فقد ورد في قصة أبي سفيان وهو مشرك ومن ألد أعدائه آنذاك مع هرقل ملك الروم عندما وجّه هذا الأخير لأبي سفيان عدداً من الأسئلة حول الرسول صلى الله عليه وآله ونسبه وكان من بينها: كيف نسبه فيكم؟

قال أبو سفيان: هو فينا ذو نسب.

ثم قال هرقل في آخر القصة: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب

١- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وآله ٤: ١٧٨٢؛ والترمذى فى سننه، أبواب المناقب عن رسول الله صلى الله عليه وآله، باب ما جاء فى فضل النبي صلى الله عليه وآله ٥: ٢٤٥؛ وشرح النووي على صحيح مسلم ١٥: ٣٦.

٢- تحفة الأحوذى شرح جامع الترمذى ١٠: ٧٤.

٣- أخرجه الترمذى فى سننه فى أبواب المناقب، باب ما جاء فى فضل النبي صلى الله عليه وآله، انظر ٥: ٢٤٤.

٤- انظر: تحفة الأحوذى ١٠: ٧٦.

ص: ١٣٧

فكذلك تبعث الرسل في أنساب قومها.. (١) يقول النووي: أى فى أفضل أنسابهم (٢)

ومما يدل على ذلك أيضاً ما جاء على لسان مفوض مشركى قريش عتبة بن أبى ربيعة مع رسول الله صلى الله عليه و آله، حيث قال عند افتتاح كلامه مع الرسول: يا ابن أخى إئتك منا حيث قد علمت من السطة- أى عن أوساطهم حسباً ونسباً، أو الشرف- فى العشيرة، والمكان فى النسب...

وتشهد هاتان القصتان بما للرسول صلى الله عليه و آله من منزلة عظيمة فى النسب عند قومه لإقرار أعدائه وأعداء رسالته حيث لم يستطيعوا أن يخفوا هذه الحقيقة مع أنهم كانوا يتهمونه بتهم باطلة، مرة بالسحر، ومرة بالجنون، ومرة بالشعر والكهانة. ومع هذا لم ينقل إلينا عن أحدهم تهمة واحدة يقدحون بها الرسول صلى الله عليه و آله من جهة النسب، كما أن النصوص الأخرى التى أوردناها تدل على أن العرب أفضل الناس من ناحية النسب، وأن الرسول صلى الله عليه و آله من أفضلها نسباً. فقد كان صلى الله عليه و آله من سلالة ذرية طيبة وعائلة كريمة وأسرة نبيلة فى الصفات والخصائص سالحة فى أخلاقها وسيرتها، محمودة فى خصالها، ربيعة فى شمائلها، متميزة فى رجالها وسيادتها، فبنو هاشم سادة قريش، بل سادة الدنيا، فهم كما يقول الجاحظ: «ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلى العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كل جوهر كريم، وسر كل عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، والمعدن الفهم، وينبوع العلم...» (٣)

حقاً هذه سنة الله فى اختيار رسله جميعاً كما جاء فى قول هرقل السابق.

يقول الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: الظاهر أن إخبار هرقل

١- صحيح البخارى، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه و آله ١: ٨؛ وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب كتاب النبى صلى الله عليه و آله إلى هرقل ليدعوه إلى الإسلام ٣: ١٣٩٤؛ واللفظ للبخارى.

٢- شرح النووي على صحيح مسلم ١٢: ١٠٥.

٣- انظر: زهرة الآداب: ٥٩.

ص: ١٣٨

بذلك بالجزم كان على العلم المقرّر فى الكتب السالفه.

والحكمه فى ذلك- كما قال النووى- أنه أبعد من اتتحاله الباطل وأقرب إلى انقياد الناس له؛ لأن الناس يأنفون من الانقياد إلى رجل وضع من جهه، وكذلك الوضع لا تسوّى نفسه له قيادة الناس من جهه أخرى (١).

ولهذا كان لنسب رسول الله صلى الله عليه و آله ذى الأصلاب الشامخه والأرحام المطهره تأثير كبير ورائع على شخصيته تاره وعلى قومه أخرى..

وقول عمه أبى طالب لرسول الله صلى الله عليه و آله حينما أراد إظهار دعوته وكان هذا فى السنه الرابعه من البعثه النبويه المباركه يلقى الضوء الساطع على منزله نسبه:

يا ابن أخى! إنك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً، والله لا يسلقك لسان، إلا سلقته ألسن حداد، واحتدمته سيوف حداد، والله لتدلن لك العرب، ولقد كان أبى يقرأ الكتب جميعاً، ولقد قال: إن من صلبى لنبياً، لوددت أنى أدركت ذلك فأمنت به، فمن أدركه من ولدى فليؤمن به.

كما أن لرضاعته فى بنى سعد آثاره عليه صلى الله عليه و آله، فبنو سعد قبيله معروفه عند العرب فى طبيعتها وسموّ خلقها، وقد أسلم أبوه من الرضاعه على يدى رسول الله صلى الله عليه و آله، وهو الحارث بن عبد العزى.. حينما قدم إلى رسول الله صلى الله عليه و آله بمكه حين أنزل عليه القرآن، فقالت له قريش: ألا تسمع يا حارث ما يقول ابنك هذا؟

فقال: وما يقول؟

قالوا: يزعم أن الله يبعث الناس بعد الموت، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه ويكرم من أطاعه، فقد شئت أمرنا وفرّق جمعنا.

فأتاه فقال: أى بنى، مالك ولقومك يشكونك، ويزعمون أنك تقول: إن الناس

١- انظر فى هذا كله: تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤: ٩١؛ وحسن الألبانى هذه القصة فى تعليقه على فقه السيره للغزالي. انظر هامش الصفحة: ١١٣؛ وفتح البارى شرح صحيح البخارى ١: ٣٦؛ وشرح النووى على صحيح مسلم ١٢: ٣٥.

ص: ١٣٩

يبعثون بعد الموت، ثم يصيرون إلى جنه ونار؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا أزعم ذلك، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت لقد أخذت بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم. فأسلم الحارث بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان يقول حين أسلم: لو قد أخذ ابني بيدي فعرفتني ما قال لم يرسلني إن شاء الله حتى يدخلني الجنة.

«هذا النسب له أثره في رسول الله وكان له أثر فيمن يبلغهم رسول الله شريعة الله، أما أثره في رسول الله فقد شب عليه الصلاة والسلام مرفوع الرأس رغم يتمه لا يعرف الذل ولا الخنوع، جريئاً في إعلان رأيه، تملأ الثقة نفسه، أما أثره فيمن دعاهم رسول الله إلى الإيمان والانضواء تحت راية الإسلام فإن أكبر شخصية في العرب لا تجد غضاضة من الانضواء تحت راية الإسلام، وقبول محمد صلى الله عليه وآله رسولاً وحاكماً؛ لأنهم يعترفون بأن محمداً صلى الله عليه وآله من أعرق بيوت قريش نسباً» (١).

إن هذا الأمر واضح وإن من يعارضه من قومه لم يكن ذلك لأصله ولسببه، ولا طعناً أو رفضاً لشخصيته، وإنما المعارضة مبنية لردع ما يدعوههم إليه.

«فَانَّهُمْ لَا يُكذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» (٢).

ومما يؤيد ذلك ما جاء على لسان أبي جهل عدو الله وعدو رسوله، إذ قال للنبي صلى الله عليه وآله: قد نعلم يا محمد أنك تصل الرحم وتصدق الحديث ولا تكذبك، ولكن نكذب الذي جئت به فأنزل الله عز وجل:

«قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» (٣).

إذن، فالمانعة القرشية ورفضها وعنادها، لم يكن موجهاً لشخص الرسول صلى الله عليه وآله ولا لخلقه وأدبه وسيرته فيهم، بل كان موجهاً إلى ما حملة من رسالته

١- انظر: محمد قلعت، التفسير السياسي للسيرة.

٢- الأنعام: ٣٣.

٣- المصدر نفسه، وانظر: الحاكم، المستدرک ٢: ٣١٥؛ وابن كثير، تفسير القرآن العظيم ٤: ٩١.



ص: ١٤٠

وما جاء به من دعوة وما طالبهم به من الدين، وهو ما يدل عليه ما ذكرناه من آيات وأقوال وما يفيدته منطوق قول أبي جهل السابق. لقد عرضوا عليه كل شيء: المال والجاه والسلطان والسيادة والملك والمغريات الأخرى إن ترك دعوته هذه ودينه هذا كلياً أو جزءاً منه كحل وسط..

وهذا قوله صلى الله عليه وآله لعمه أبي طالب رداً على ما قدمته قريش له من دنيا:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته..». وأما ما عرضه عتبة بن ربيعة موفد قريش على رسول الله صلى الله عليه وآله: «... وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فزقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مألماً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا...

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وآله يستمع منه قال: أفد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم.

قال: فاسمع مني.

قال: أفعل.

فراح رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ له سورة فصّلت: «حم\* تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ\* كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ\* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ\* وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ...»

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى

ص: ١٤١

السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك (١).

فعاد من حيث أتى بعد أن خاب مسعاه كما خابت جهودهم من قبل وباءت بالفشل الذريع..

إن عرض هذه الأمور عليه يدل على اعترافهم بسمو مكانته النسبية عندهم ورفع أخلاقه وهو يتيم بنى هاشم، وهو الصادق الأمين كما يعرفونه، لهذا قدموا له كل ذلك ومنها السيادة عليهم، وإلا- فهم يأنفون- كما عرف عنهم ذلك- أن يخضعوا للوضع مهما كان الأمر الذي يتمسك به، وخاصة إذا جاء بأمر يخالف عاداتهم وتقاليدهم، مثل ما جاء به رسول الله صلى الله عليه و آله من الدين الحنيف والدعوة إلى التوحيد ونبد الشرك والأوثان، وما كان سائداً في مجتمع مكة من عادات قذرة وتقاليدهم جاهلية ومظالم..

نشأته وتربيته

هناك مراحل كثيرة مرّت بها حياة الرسول صلى الله عليه و آله قبل بعثته نبياً ورسولاً، أشارت إليها آيات من سورة الضحى، وهى نعم عظيمة حظى بها رسول الله صلى الله عليه و آله:

«أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى» «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» «وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى»

فبعد أن ولد النبي صلى الله عليه و آله عام الفيل، ولد يتيماً حيث مات أبوه وهو فى بطن أمه وقيل: إنه مات بعد ولادته بمدة قليلة، وقد سخر الله له جده عبد المطلب فأواه ورباه، ثم ماتت أمه وهو ابن ست سنوات، ولهذا لم يتنعم بحنين الأبوين، و مات جده عبد المطلب وهو ابن ثمان سنوات.. (٢) وبعد وفاة جده عبد المطلب، قيس الله له عمه أبا طالب وهو أخو والده

١- السيرة النبوية ١: ٢٩٣-٢٩٤.

٢- انظر: سيرة ابن هشام ١: ١٥٦، وما بعدها.

ص: ١٤٢

عبد الله لأمه وأبيه، فأحسن تربيته وراح يبذل كل ما فى وسعه فى رعايته فى زمن طفولته وشبابه، وكذلك بعد البعثة حيث دافع عنه دفاعاً عظيماً أمام ضغوط قريش ومؤامراتهم. وهناك معنى آخر فى الآية «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى»: ألم يجدك واحداً مثل لك فى شرفك وفضلك فأواك إلى نفسه واختصك برسالته، من قولهم درة يتيمة إذا لم يكن لها مثل قال:

لا ولا درة يتيمة بحر تتلألاً فى جؤنة البياح

الجؤنة: سلة مستديرة مغطاة أدماء يجعل فيها الطيب والثياب.

وقيل: فأواك أى جعلك للأيتام بعد أن كنت يتيماً وكفياً للأنام بعد أن كنت مكفوفاً، عن الماوردى..

«وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» فيها أقوال سبعة يذكرها صاحب مجمع البيان، نكتفى بأربعة منها:

وجدك ضالماً عما أنت عليه الآن من النبوة والشريعة، أى كنت غافلاً عنهما فهداك إليهما.. ونظيره «مَا كُنْتُ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ» (١).

وقوله «وَإِنْ كُنْتُ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ» فمعنى الضلال على هذا هو الذهاب عن العلم، مثل قوله: «أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى».

ثانياً: وجدك متحيراً لا تعرف وجوه معاشك فهداك إلى وجوه معاشك...

ثالثاً: وجدك لا تعرف الحق فهداك إليه بإتمام العقل ونصب الأدلة والألطف حتى عرفت الله بصفاته بين قوم ضلال مشركين...

رابعاً: وجدك ضالاً فى شعاب مكة فهداك إلى جدك عبد المطلب، فروى أنه صلى الله عليه و آله ضلّ فى شعاب مكة وهو صغير

فرآه أبو جهل وردّه إلى جده عبد المطلب، فمنّ الله سبحانه بذلك عليه، إذ ردّه إلى جده على يد عدوه، عن ابن عباس.

رابعاً: وجدك مضلواً عنك فى قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك

ص: ١٤٣

وأرشدهم إلى فضلِكَ والاعتراف بصدقك، والمراد إنك كنت خاملاً لا تذكر ولا تعرف فعرفك الله حتى عرفوك وعظموك.  
«وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنِي»

أى فقيراً لا مال لك، فأغناك بمال خديجته والغنائم، وقيل: فأغناك بالقناعة ورضاكَ بما أعطاك، عن مقاتل. واختاره الفراء قال: لم يكن غنياً عن كثرة المال لكن الله سبحانه أرضاه بما آتاه من الرزق وذلك حقيقة الغنى... (١) فبعد أن واجه صلى الله عليه وآله حياة كدح صعبة وشاقة حيث عاش طفولته يتيماً وشبابه فقيراً، هداه الله تعالى فاتجه إلى غار حراء للعبادة و ترك قومه وما يعبدون من دون الله...

فلقد كان صلى الله عليه وآله في صباه يشتغل برعاية الغنم كما هو سنّة الأنبياء، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وآله كان يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط، وهو صلى الله عليه وآله القائل: «ما بعث الله نبياً إلّا ورعى الغنم». فقال له أصحابه: وأنت؟

١- الطبرسي، مجمع البيان، الآية.

ص: ١٤٤

فقال: «نعم كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة».

قراريط: مفردها قيراط وهو جزء من أجزاء الدينار، وهو نصف عشر في أكثر البلاد، وأهل الشام يجعلونه جزءاً من أربعة وعشرين. والياء فيه بدل الراء فإن أصله من قراط (١).

فكان صلى الله عليه وآله يعتمد على نفسه في فترة مبكرة من عمره الشريف. وإضافة إلى عمله هذا كان مع عمه أبي طالب إلى الشام للتجارة.

أخرج الترمذى عن أبي موسى الأشعري قال: «خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي صلى الله عليه وآله في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبط فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب...» (٢).

هذا ما ورد في فترة صباه.

وأما بعد بلوغه، فقد ورد أيضاً أنه كان صلى الله عليه وآله يذهب إلى الشام للتجارة بأموال خديجة (رضى الله عنها) قبل اقترانه بها. يقول ابن إسحاق: وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء وتجعله لهم، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وآله ما بلغها من صدق حديثه وعظيم أمانته وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار مع غلام لها يقال له: ميسرة، فقبله رسول الله صلى الله عليه وآله و آله منها وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام (٣).

فقام صلى الله عليه وآله بوظيفته في تجارة السيدة خديجة خير قيام حتى كانت سبباً في زواجه

١- انظر النهاية في غريب الحديث ٤: ٤٢؛ و صحيح البخارى فى كتاب الإجارة، باب رعى الغنم على قراريط ٢: ٣٢٣٣.

٢- سنن الترمذى ٥: ٥٢٠.

٣- سيرة ابن هشام ١: ١٧٨-١٨٨.

ص: ١٤٥

إياها إثر رجوعه من ذلك السفر بعدما عرضت نفسها عليه بناءً على ما رآته فيه من صدق وأمانة، وما سمعته من ميسرة في شأن الرسول صلى الله عليه و آله من خيرٍ طوال مرافقته له في تلك الرحلة الميمونة.

يقول ابن كثير في السيرة: «فلَمَّا أخبرها ميسرة ما أخبرها بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه و آله فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم إننى قد رغبت فيك لقرابتك وسطتك [أى شرفك] في قومك وأمانتك وحسن خلقك وصدق حديثك، ثم عرضت نفسها عليه، فلَمَّا قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه و آله، ذكره لأعمامه فخرج معه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد، فخطبها إليه فتزوجها عليه الصلاة والسلام. وبعد اقترانه صلى الله عليه و آله بخديجة أم المؤمنين رضى الله عنها استغنى بمالها عن الكسب والضرب في الأرض؛ لأنه لم يرد في كتب السيرة أنه زاول نشاطاً اقتصادياً بعد ذلك، بل ورد أنه كان يذهب إلى غار حراء ليتعبد فيه فترة يرجع بعدها إلى خديجة ليتزود بمتلها، حتى جاءه الملك بأول آيات من القرآن، وهى صدر العلق من قوله تعالى: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» (١)

إلى قوله تعالى: «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٢).

عن عائشة أنها قالت: «أول ما بدئ رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ.. إلى قوله: «عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (٣). قال قتادة في هذه الآيات: «كانت هذه هي منازل رسول الله صلى الله عليه و آله قبل أن

١- العلق: ١.

٢- العلق: ٥.

٣- السيرة النبوية ١: ٢٦٣؛ وأخرجه البخارى في صحيحه: باب بدء الوحي على رسول الله صلى الله عليه و آله ١: ٦.

ص: ١٤٦

يبعثه الله عز وجل» (١).

وقد ذكر أكثر المفسرين هذه المراحل التي مرّ بها الرسول صلى الله عليه و آله عند تفسيرهم هذه الآيات من سورة الضحى، إلّا أنهم يذكرون في كل مرحلة عدّة أقوال محتملة ومعان متقاربة لا يتسع لذكرها هذا المقام؛ لأن القصد هنا ليس ذكر أقوال المفسرين قاطبة وإنما ذكر ما يشير إلى هذه المراحل.

سيد قطب في معنى هذه الآيات يقول: «لقد ولدت يتيماً فأواك إليه وعطف عليك القلوب.. ولقد كنت فقيراً فأغنى الله نفسك بالقناعة كما أغناك بكسبك ومال أهل بيتك خديجاً (رضى الله عنها) عن أن تحسّ الفقر أو تتطلع إلى ما حولك من ثراء. ثم لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد منحرفة السلوك والأوضاع فلم تطمئن روحك إليها ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً، لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرّفوا وبدّلوا وانحرفوا وتاهوا، ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك وبالمنهج الذي يصلك به.

والهداية من حيرة العقيدة وضلال الشعاب فيها هي المنّة الكبرى التي لا تعدلها منّة، وهي الراحة والطمأنينة من القلق الذي لا يعدله قلق، ومن التعب الذي لا يعدله تعب، ولعلها كانت بسبب مما كان رسول الله صلى الله عليه و آله يعانيه في هذه الفترة من انقطاع الوحي وشماتة المشركين ووحشة الحبيب من الحبيب، فجاءت هذه تذكّره وطمئنه على أن ربه لن يتركه بلا وحي في التيه، وهو لم يتركه من قبل في الحيرة والتهيه...» (٢).

ويفهم من تفسير سيد قطب للآيات الثلاث من سورة الضحى كغيره من

١- تفسير ابن كثير ٤: ٥٢٣.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، الآيات.

ص: ١٤٧

المفسرين أن المراحل الثلاث ليست على ترتيب الآيات من المصحف، حيث إن مرحلة الإغناء مقدمة على مرحلة الهداية. يقول الدكتور محمد عزت دروزة ملخصاً ما ذكره المفسرون في هذا الصدد:

«إن الآية تحتوى إشارة إلى حادث تيهان وقع للنبي صلى الله عليه و آله في طفولته أو في إحدى رحلاته، ورووا في ذلك روايات كما قالوا: إنها تعنى أنه كان غافلاً عن الشريعة التي لا تتقرر إلا بالوحي الرباني، أو أنه كان حائراً في أسلوب العبادة لله، ونفوا عنه أى حال أن يكون ضالاً، أى مندمجاً في العقائد والتقاليد الشركية والنفس لا تظمن إلى رواية تيهان النبي صلى الله عليه و آله مضموناً وسنداً، بل إنها ليست متسقة مع ما تضمنته الآية من من الله على النبي صلى الله عليه و آله بأعظم أفضاله عليه، وتفسير ضال بحائر يحمل معنى الآية على أن المقصود الحيرة في الطريق التي يجب أن يسار فيها إلى الله وعبادته على أفضل وجه. وهو المعنى الذي نراه» (١).

ويبدو أن هناك حكماً فيما مرّ به رسول الله صلى الله عليه و آله من مراحل، وهى أن الله سبحانه وتعالى كان يرّبه ويدربه حتى يستطيع أن يتحمل عبء الرسالة الخاتمة وشؤونها وإبلاغها إلى الناس الذين دب الفساد في كل مفصل من مفاصل حياتهم وصدق قوله تعالى:

«ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» (٢).

يقول صاحب كتاب «دراسة في السيرة» مشيراً إلى الحكمة من تلك المراحل:

«ومن مرارة اليتيم ووحشية العزلة وانقطاع معين العطف والحنان قبس الرسول صلى الله عليه و آله الصلابة والاستقلال والقدرة على التحمل... وبالفقر والحرمان تربي ونما بعيداً عن ترف الغنى وميوعة الدلال.. وعبر رحلته إلى الشام في رعاية عمّه فتح الرسول صلى الله عليه و آله عينيه ووعيه تجاه العالم الذي يتجاوز حدود الصحراء وسكونها إلى حيث المجتمعات المدنية التي تضطرب نشاطاً وقلقاً... وفي رحلته الثانية إلى الشام مسؤولاً عن تجارة للسيدة خديجة تعلم الرسول الكثير الكثير، عمق في حسه معطيات المرحلة الأولى وزاد عليها إدراكاً أكثر لما يحدث في أطراف عالمه العربي من علاقات بين الغالب والمغلوب... كما علمه الانشقاق الأخلاقي عن

١- محمد عزت دروزة، سيرة الرسول صلى الله عليه و آله: ٣٢.

٢- الروم: ٤١.



ص: ١٤٨

الوضع المكي القدرة على مجابهة الأحداث» (١).

والآن لا بد لنا من التحدث عما يتوفر عليه صلى الله عليه وآله من شمائل وصفات انبهر بها مناوئوه قبل أحبائه وأعداؤه قبل أصدقائه، وقد جعلت منه نموذجاً ربانياً رائعاً:

صفاته وأخلاقه

نشأ الرسول صلى الله عليه وآله في محيط جاهلي وبيئة وثنية تعبد فيها الأصنام والأوثان، ويستعبد القوى منهم الضعيف حتى أصبح الظلم أمراً مألوفاً وشيئاً معروفاً، وهو ما تحمله قصائدهم كقول زهير بن أبي سلمى في الصفحة ٨٨ من ديوانه:

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

هذا إضافة إلى عاداتهم الفاسدة وسلوكهم السيء كأداهم البنات خوفاً من العار والفقر، وأكلهم أموال اليتامى بحجة أنهم ضعفاء لا قدرة لديهم على حمل السلاح والدفاع عن الأهل والعشيرة، وأكلهم الربا واستحلاله حتى اختلط عندهم البيع والربا ولا يفرقون بينهما «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا» (٢).

وهذا الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه يصف بدقة للنجاشي ملك الحبشة أثناء الهجرة الثانية إلى الحبشة المجتمع المكي آنذاك فيقول:

«أيها الملك! كُنَّا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنَسْبِي الْجَوَارِ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِمَّا الضَّعِيفِ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِمَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ، فَدَعَا إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَأَنْ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ مِنَ الْأَصْنَامِ، وَأَمْرًا بِصَدَقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصَلَّةِ الرَّحْمِ وَحَسَنِ الْجَوَارِ وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَوَالِ الْيَتِيمِ...» (٣).

١- الدكتور عماد الدين خليل، دراسة في السيرة: ٤٧٤٩، بتصرف قليل.

٢- البقرة: ٢٧٥.

٣- انظر: سيرة ابن هشام.

ص: ١٤٩

هذا وضع الساحة المكية يوم ذاك، وقد حفظ الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وآله من أن يتأثر بأحوال مجتمعه مع أنه شارك مع قومه في بعض الأعمال.

أنشطته صلى الله عليه وآله

هناك أعمال اشترك فيها رسول الله صلى الله عليه وآله مع قومه قبل بعثته، أنشطته لا تخدش نبه ولا تسيء إلى سمعته وأخلاقه الطيبة:

١- حلف الفضول

اشترك صلى الله عليه وآله قبل البعثة في حلف الفضول الذي وقع بين بطون من قريش لدفع الظلم وردّ المظالم إلى أهلها. يروى ابن هشام بسنده عن ابن إسحاق قال:

«تداعت قبائل من قريش إلى حلف فاجتمعوا له في دار عبد الله بن جُدعان لشرفه وسنّه... فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا في مكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلّا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تردّ عليه مظلمته، فسَمّت قريش ذلك الحلف حلف الفضول» (١).

سمى هذا الحلف بالفضول إما نسبةً إلى الأشخاص المتحالفين الثلاثة الذين سمي كل واحد منهم بالفضل أو للسبب الذي من أجله تحالفوا، وهو أن ترد الفضول على أهلها (٢).

ويقول ابن كثير بعد إيراد ذلك الحلف: «وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب وكان أوّل من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب» (٣).

١- انظر حوله ما جاء في سيرة ابن هشام.

٢- انظر السيرة النبوية لابن كثير.

٣- السيرة النبوية ١: ٢٥٩.

ص: ١٥٠

وعلى هذا فكان اشتراكه صلى الله عليه و آله في ذلك الحلف شيئاً مهماً جداً، لأنّ ردّ المظالم إلى أهلها من الأمور المحببة وقد جاء بها الإسلام فيما بعد؛ ولهذا أثنى الرسول صلى الله عليه و آله كما نسب إليه، على ذلك الحلف بعد البعثة:

«لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب لى به حمر النعم ولو دعيت إليه في الإسلام لأجبت» (١).

٢- حرب الفجار:

اشترك رسول الله صلى الله عليه و آله مع قومه في حرب الفجار التي وقعت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان، وكان عمره صلى الله عليه و آله عشرين سنة كما ذكر ابن إسحاق صاحب السيرة..

وسببها كما ذكر ابن هشام في سيرته: أنّ عروة الرحال بن عتبة من هوازن أجار لطيمه (٢) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بن قيس أحد بنى ضمرة: أتجيرها في كنانة؟ قال: نعم وعلى الخلق، فخرج فيها عروة الرحال وخرج البراض لطلب غفلته، حتى إذا كان بتيمن ذى طلال بالعالية غفل عروة فوثب عليه البراض، فقتله في الشهر الحرام؛ فلذلك سمي حرب الفجار.

وكان دوره صلى الله عليه و آله في تلك الحرب أن يردّ على أعمامه نبل عدوهم إذا رموهم بها؛ وقد نسب إليه أنه قال: «كنت أنبل على أعمامى» (٣).

وكان هناك مبرر لاشتراكه، وهو أنّ القتال لم يكن جائزاً في الأشهر الحرم يومذاك، حتى أنّهم إذا أرادوا القتال في الأشهر الحرم أخروها إلى شهر آخر لكي يستحلوا فيها القتال، كما بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن معيياً عليهم:

«إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ» (٤).

١- انظر سيرة ابن هشام.

٢- اللطيم تحمل العطر والبز غير الميرة، انظر: النهاية في غريب الحديث ٤: ٢٥١.

٣- انظر سيرة ابن هشام ١: ١٦٨-١٦٩، بتصرف. وانظر السيرة النبوية لابن كثير ١: ٢٥٦.

٤- التوبة: ٣٧.

ص: ١٥١

وعلى هذا فما دامت تلك الحرب دفاعاً عن انتهاك حرمة الأشهر الحرم فلا بأس في اشتراكه صلى الله عليه وآله فيها. وقد أقرَّ الله ذلك في قوله تعالى:

«إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» (١).

٣- وضع الحجر الأسود:

قام صلى الله عليه وآله بوضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة حين بناء قريش لها بعد ما اختلفت بطونها في ذلك، حيث كانت كل قبيلة تريد أن تنفرد بمزية وضع الحجر الأسود في مكانه، وكادوا أن يقتتلوا لولا مجيء رسول الله صلى الله عليه وآله وحكمه فيهم حكماً يرضى كل الأطراف المتنازعة على ذلك.

عن عبد الله بن السائب قال: كنت فيمن بنى البيت وأخذت حجراً فسوّيته ووضعته إلى جنب البيت.. وأن قريشاً اختلفوا في الحجر حيث أرادوا أن يضعوه حتى كاد أن يكون بينهم قتال بالسيوف فقال: اجعلوا بينكم أول رجل يدخل من الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: هذا الأمين وكانوا يسمونه في الجاهلية الأمين، فقالوا: يا محمد! قد رضينا بك، فدعا بثوب فبسطه ووضع الحجر فيه ثم قال لهذا البطن، ولهذا البطن، غير أنه سمي بطوناً: «ليأخذ كل بطن منكم بناحية من الثوب»، ففعلوا ثم رفعوه وأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله فوضعه بيده (٢).

وما قام به صلى الله عليه وآله يدل على مدى فطنته ورجاحة عقله؛ حيث حلَّ المشكلة بسهولة ويُسر بعدما كادت أن تؤدي إلى إسالة الدماء والحرب، كما أنه يدل على

١- التوبة: ٣٦.

٢- انظر: الحاكم، المستدرک ١: ٤٥٨.

ص: ١٥٢

مكانته صلى الله عليه وآله عند قومه بحيث إنهم رضوا بحكمه دون تردد.

هذه أهم الأعمال التي اشترك فيها قبل البعثة مع قومه، وهي ترفع مكانته وشأنه بين أهله وعشيرته، لأنها من أعالي الأمور ومن مكارم الأخلاق، خصوصاً أن بيئته انتشر فيها الفساد والرذائل التي عصمه الله سبحانه وتعالى منها وأبعده عنها لينشأ خالياً من الدنيا والشوائب.

وقد عثرت على رواية يرويها أبو نعيم في دلائله، بسنده عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهيمون بها إلا مرتين كلتاهما يعصمني الله عز وجل منها، قلت ليلة لفتى من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهلنا نرعاهما: أنظر غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتیان. قال: نعم، فخرجت فجت أدنى دار من دور مكة فسمعت غناء وضرب دفوف وزمراً، فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا - مسّ الشمس ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ففعل، فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مسّ الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: فوالله ما هممت بعدهما بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته» (١).

ولكن مع ما في نفسى من هذه الرواية، إلا أنها تدل بشكل واضح على نزاهته صلى الله عليه وآله عن قضايا الجاهلية وأمورها التي كانت سائدة في المجتمع المكي بعنايه من الله سبحانه، وبجانب ذلك كان صلى الله عليه وآله متصفاً بصفات فاضلة وأخلاق حميدة أقر له بها المؤيدون والمعاندون على السواء.

وقد أوجزت لنا خديجة أم المؤمنين (رضى الله عنها) صفاته وأخلاقه بقولها بعد فرعه إليها من شدة بدء الوحي:

١- أبو نعيم، دلائل النبوة: ٥٤؛ والهيثمي، مجمع الزوائد ٨: ٢٢٦.

ص: ١٥٣

«كلا، أبشر فوالله لا- يخزيك الله أبداً، فوالله إنك تصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل (العيال والثقل) وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق» (١).

وتكسب المعدوم، يقال: فلان يكسب المعدوم إذا كان مجذوذاً محظوظاً أى يكسب ما يحرمه غيره، وقيل: أرادت- أى خديجة رضى الله عنها- تكسب الشيء المعدوم الذى لا- يجدونه مما يحتاجون إليه، وقيل: أرادت بالمعدوم الفقير الذى صار من شدة حاجته كالمعدوم نفسه (٢).

وفى مكارم الأخلاق- نقلًا من كتاب النبوة- عن على عليه السلام أنه كان إذا وصف رسول الله صلى الله عليه و آله يقول: «كان أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفاهم ذمّةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشيرةً، من رآه بديهةً هابه».

وخديجة (رضى الله عنها) أقرب شخصية لرسول الله صلى الله عليه و آله تصفه بهذه الصفات بناء

١- ابن الجوزى، غريب الحديث ٢: ٢٩٣.

٢- غريب الحديث ٣: ١٩١-١٩٢؛ وصحيح البخارى فى كتاب التفسير، باب تفسير سورة العلق ٣: ٢١٨.

ص: ١٥٤

على تجربة دقيقة وممارسة طويلة ابتداء من ائتمانها له أن يتاجر في مالها ثم اقترانها به ومعاشرته فترةً تبلغ خمس عشرة سنة. وشهادة من على عليه السلام هي الأخرى من لسان أقرب شخص لازمه حياته المباركة، يتعلم منه ويأخذ عنه ويتربى بين يديه منذ نعومة أظفاره..

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: لما نزلت:

«وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١)،

خرج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى صعد الصفا، فهتف «يا صباحاه»، فقالوا: من هذا؟

فاجتمعوا إليه، فقال:

«أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟» قالوا:

ما جربنا عليك كذباً، قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»، قال أبو لهب:

تباً لك ما جمعتنا إلا ل هذا ثم قام، فنزلت:

«تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» (٢).

ففى قولهم: ما جربنا عليك كذباً دليل واضح على اتصافه صلى الله عليه وآله بالصدق التام قبل الرسالة بشهادة أعدائه الذين وقفوا فى وجه دعوة السماء على يديه المباركتين.

إنها شهادة من المؤمنين بدعوته صلى الله عليه وآله وهى شهادة حق وصدق أقر بها وبحقيقتها من لم يتبعوا الرسول صلى الله عليه وآله ويؤمنوا بدعوته؛ فقد صدرت من مجموع المشركين ومثلها صدرت من أفرادهم، وقد قالها أبو سفيان وهو مشرك عند هرقل ملك الروم الذى وجه إليه عدة أسئلة تتعلق بأحوال الرسول صلى الله عليه وآله من بينها قول هرقل:

«فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟» قلت: لا، ثم قال هرقل فى آخر القصة لأبى سفيان:

«وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فزعمت أن لا،

١- الشعراء: ٢١٤.

٢- انظر مكارم الأخلاق وصحيح البخارى، كتاب التفسير باب تفسير سورة: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» ٢: ٢٢٢؛ وصحيح مسلم فى كتاب الإيمان، باب «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» ١: ١٩٤.

ص: ١٥٥

فعرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ويكذب على الله» (١).

تلك شهادة المؤمنين والخصوم، تنطق صريحة في أن الرسول صلى الله عليه و آله لم يكذب أبداً قبل البعثة، بل كان صادقاً دائماً. والصدق أساس الفضائل الأخلاقية وعنوان الإنسانية الكريمة، وقد انطبعت شخصية رسول الله صلى الله عليه و آله بها بفضل من الله تعالى ورحمة. وهكذا بقيت الصفات الأخلاقية ومنها الأمانة.

وخير ما يدل على ذلك قصة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة أثناء تجديد بنائها، حينما اختلفت قريش في ذلك حيث أتفقوا على تحكيم أول رجل يدخل من الباب فدخل رسول الله صلى الله عليه و آله وكانوا يسمونه في الجاهلية الأمين، فقالوا: «قد دخل الأمين، فقالوا: يا محمد! رضينا بك» (٢).

وهذه شهادة صدرت من مجموع المشركين وإن لم يكن بينه وبينهم عداوة حين نطقوا بذلك القول؛ لأن ذلك كان قبل البعثة، إلا أنها تشهد على اتصافه صلى الله عليه و آله بالأمانة حتى أصبحت لقباً له.

وعلى هذا نجزم أن الرسول صلى الله عليه و آله كان متصفاً بصفات فاضلة وأخلاق حميدة قبل البعثة اعترف بها أعداؤه وآمن بها أصحابه مع شيوع الظلم والعدوان وسوء الأخلاق في المجتمع المكي يومذاك. وذلك بفضل الله وعنايته ورعايته. أخلاقه بعد البعثة

وأما بعد البعثة فقد كان خلقه صلى الله عليه و آله القرآن كما ورد في حديث عائشة أم المؤمنين حيث قالت: «... فإن خلق نبي الله صلى الله عليه و آله كان القرآن».

وهذه الأخلاق الكريمة كانت سبباً في تقريب قلوب أصحابه رضوان الله

١- انظر صحيح البخارى، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول صلى الله عليه و آله ١: ٨، وصحيح مسلم في كتاب الجهاد، باب كتابه صلى الله عليه و آله إلى هرقل يدعو إلى الإسلام ٣: ١٣٩٤.

٢- الحاكم، المستدرک ١: ٤٥٨.



ص: ١٥٦

عليهم له، ولولا اتصافه بها لما تمكّن من تأثير دعوته عليهم وخاصة في أيامها الأولى في مكة.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى تأثير اتصافه صلى الله عليه و آله بالأخلاق الفاضلة على أصحابه بقوله تعالى:

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ» (١).

وكما أن الأخلاق الفاضلة لها تأثير كبير على الأصحاب، كذلك أيضاً لها تأثير كبير على الأعداء، كما يدل عليه قوله تعالى:

«وَلَا تَسِيْرِي الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ ادْفَعِ بِمَا لِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ\* وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» (٢).

وقد شهد الله سبحانه وتعالى لنبه صلى الله عليه و آله بالخلق العظيم بقوله:

«وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (٣).

وعن علي عليه السلام قال: سمعت النبي صلى الله عليه و آله يقول: بعثت بمكارم الأخلاق ومحاسنها.

والإمام علي عليه السلام يتحدث عن رسول الله صلى الله عليه و آله ويصفه كما في نهج البلاغة:

كان أجود الناس كفاً، وأجراً الناس صدراً، وأصدق الناس لهجةً، وأوفاهم ذمةً، وألينهم عريكةً، وأكرمهم عشيرةً، من رآه بديهته هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه، لم أر قبله ولا بعده مثله.

وقال عنه أيضاً: «فأعرض عن الدنيا بقلبه، وأمات ذكرها عن نفسه، وأحب أن تغيب زيتتها عن عينيه لكيلا يتخذ منها ريشاً، ولا يعتقدها

قراراً، ولا يرجو فيها مقاماً، فأخرجها من النفس وأشخصها عن القلب وغيبها عن البصر. وكذلك

١- آل عمران: ١٥٩.

٢- فصلت: ٣٤-٣٥.

٣- القلم: ٤.

ص: ١٥٧

من أبغض شيئاً أن ينظر إليه وأن يُذكر عنده».

وقال عنه أيضاً:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، ويخصف بيده نعله، ويرقع ثوبه، ويركب الحمار العارى، ويردف خلفه، ويكون الستر على بابه فيكون عليه التصاوير فيقول: يا فلانة! - لإحدى زوجاته - غيبي عني، فإني إذا نظرتُ إليه ذكرتُ الدنيا وزخارفها..».

هذا وقد كان له آداب تفرد بها مع خالقه ومع نفسه ومع زوجاته ومع أصحابه وعامة الناس ومع النساء ومع الصبيان والضعفاء وخادمه ومناوئيه... تحدثت عنها وعن صفاته الكثير من الروايات، وهذه طاقة جميلة منها، وكل آدابه جميلة جليئة رائعة:

منطقه صلى الله عليه وآله

كان صلى الله عليه وآله متواصل الأحران، دائم الفكر ليس له راحة، طويل الصمت لا يتكلم في غير حاجة، يفتح الكلام ويختتمه بأشداقه، يتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير، دماً ليس بالجافى ولا بالمهين، يعظم عنده النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئاً غير أنه كان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا تغضيه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطى الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شى حتى ينتصر له، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب راحته اليمنى باطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وانشاح، وإذا غضب غض طرفه، جلّ ضحكه التبسم، يفر عن مثل حب الغمام.

قال الصدوق: إلى هنا رواية القاسم بن المنيع عن إسماعيل بن محمد بن إسحاق بن جعفر بن محمد، والباقي رواية عبد الرحمن إلى آخره: قال الحسن عليه السلام: فكتمتها الحسين عليه السلام زماناً ثم حدثته به فوجدته قد سبقني إليه فسألته عنه فوجدته قد سأل أباه عليه السلام عن مدخل النبي صلى الله عليه وآله ومخرجه ومجلسه وشكله فلم يدع منه شيئاً.

ص: ١٥٨

قال الحسين عليه السلام: «قد سألت أباي عليه السلام عن مدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: كان دخوله في نفسه مأذوناً له في ذلك، فإذا آوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء:

جزء لله، وجزء لأهله، وجزء لنفسه، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس، فيرد ذلك بالخاصة على العامة، ولا يدخر عنهم منه شيئاً. لسانه صلى الله عليه وآله

وسألته عن مخرج رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف كان يصنع فيه؟ فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يخزن لسانه إلا عما كان يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليهم عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم، من غير أن يطوى عن أحد بشره ولا خلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عن الناس ويحسن الحسن ويقويه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافه أن يغفلوا ويميلوا، ولا يقصر عن الحق ولا يجوزه، الذين يلونه من الناس خيارهم، أفضلهم عنده أعمهم نصيحة للمسلمين، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة وموازرة.

مجلسه صلى الله عليه وآله

قال عليه السلام: فسألته عن مجلسه صلى الله عليه وآله فقال: كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك، ويعطى كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، من سأله حاجة لم يرجع إلا بها أو بميسور من القول، قد وسع الناس منه خلقه فصار لهم أباً، وكانوا عنده في الحق سواء، مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة، ولا ترفع فيه الأصوات، ولا يؤبن فيه الحرم، ولا تشنى فلتاته، متعادلين، متواصلين فيه بالتقوى متواضعين، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب.

ص: ١٥٩

فصاحته صلى الله عليه و آله

كان صلى الله عليه و آله أفصح الناس منطقاً وأحلامهم... وكان يتكلم بجوامع الكلم، لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه، كان جهير الصوت أحسن الناس نغمه.

أدبه صلى الله عليه و آله مع ربه

يقول أمير المؤمنين على عليه السلام: كان لا يؤثر على الصلاة عشاء ولا غيره، وكان إذا دخل وقتها كأنه لا يعرف أهلاً ولا حميماً.

وعن الإمام على بن أبي طالب عليه السلام أيضاً: كان إذا ثأب في الصلاة ردها بيده اليمنى.

وعن الحسين بن على عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يبكي حتى يبتل مصلاه خشية من الله عز وجل من غير جرم..

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يصل من التطوع مثلي الفريضة، ويصوم من التطوع مثلي الفريضة.

وعن عائشة: كان يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم يعرفه.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان لا يؤثر على صلاة المغرب شيئاً إذا غربت الشمس، حتى يصلها.

وعن على بن أبي طالب عليه السلام: كان إذا رأى ما يحب قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وكان يتضرع عند الدعاء حتى يكاد يسقط رداؤه.

وعن عائشة: كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه.

وكان ينتظر وقت الصلاة ويشتد شوقه ويتربد دخوله، يقول لبلال: أرحنا يا بلال.

ص: ١٦٠

وقال أبو أمامة: كان إذا جلس مجلساً فأراد أن يقوم استغفر الله عشرة إلى خمس عشر مرة.  
وكان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله جل اسمه.

وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه ثوبٌ ملقى.

وعن حذيفة: كان إذا حزبه أمر صلى.

وكان إذا مرّ بآية خوفٍ تَعَوَّذَ، وإذا مرّ بآية رحمةٍ سأل، وإذا مرّ بآية فيها تنزيه الله سبحانه.

وكان يقول: قرء عيني في الصلاة و الصوم.

وعن عائشة: كان إذا صلى صلاة أثبتها.

وقال أبو بكر: كان إذا جاءه أمر يُسرُّ به خرَّ ساجداً شكراً لله.

وعن أنس خادم النبي: كان أكثر دعوة يدعو بها: «ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار».

وعن عائشة: كان إذا دخل شهر رمضان تغير لونه وكثرت صلواته، وابتهل في الدعاء، وأشفق لونه.

وعن ابن أبي رواد: كان إذا شهد جنازة أكثر الصّمات وأكثر حديث نفسه..

وعن ابن عباس: كان إذا شهد جنازة رؤيت عليه كآبة، وأقلّ الكلام وأكثر حديث النفس.

ويقول أبو هريرة: «كان أكثر ما يصوم يوم الإثنين والخميس، فقليل له: لماذا؟»

قال: الأعمال تُعرض كلّ إثنين وخميس، فيغفر لكل مسلم إلا المتهاجرين، فيقول: أخروهما.

وعن عائشة: كان لا يدعُ قيام الليل، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً.

وعنها: كان لا يقرأ القرآن في أقلّ من ثلاث.

وعن ابن مسعود: كان لا يكون في المُصلين إلا كان أكثرهم صلاة، ولا يكون في الذاكرين إلا كان أكثرهم ذكراً.

ص: ١٦١

وعن أنس: كان لا ينزل منزلاً إلّا ودعاه بركتين.

وعن البراء بن عازب: كان لا يصلي مكتوباً إلّا قنت فيها.

كان صلى الله عليه وآله عبداً رسولاً

عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يذكر أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وآله ملك فقال: إن الله يختيرك أن تكون عبداً رسولاً متواضعاً أو ملكاً رسولاً.

قال: فنظر إلى جبرئيل وأوماً بيده أن تواضع فقال: عبداً رسولاً متواضعاً، فقال الرسول: مع أنه لا ينقصك مما عند ربك شيئاً، قال: ومعه مفاتيح خزائن الأرض.

وعن الحسن بن علي عن أبيه علي عليهما السلام في خبر طويل: «وكان صلى الله عليه وآله يبكي حتى يبتل مصلاه خشية من الله عزوجل من غير جرم..».

وكان صلى الله عليه وآله يبكي حتى يغشى عليه ف قيل له: أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً؟ وكذلك كان غشيان علي بن أبي طالب وصيه في مقاماته.

ولما نزل قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا» (١).

اشتغل رسول الله - كما عن أبي سعيد الخدري - بذكر الله حتى قال الكفار: إنه جنّ.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوب إلى الله في كل يوم سبعين مرة، قلت: أكان يقول: أستغفر الله وأتوب إليه؟ قال: لا ولكن كان يقول: أتوب إلى الله، قلت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتوب ولا يعود، ونحن نتوب ونعود، قال: الله المستعان.

أدبه صلى الله عليه وآله مع نفسه

عن عائشة: كان خلقه القرآن.

وعن أبي سعيد: كان أشدّ حياءً من العذراء في خدرها..

ص: ١٦٢

وعن عائشة: كان أبغض الخلق إليه الكذب.

وعن عائشة: كان إذا عمل عملاً أثبته.

وعن ابن عمر: كان لا يأكل متكئاً.

وعن أنس: كان لا يدخر شيئاً لغد.

وعن بريده: كان لا يتطيّر ولكن يتفاءل.

وعن عائشة: كان لا يرقُد من ليل ولا نهار فيستيقظ إلا تسوّكاً..

وعن جابر بن سمرة: كان لا يضحك إلا تبسماً.

وعن جابر بن سمرة: كان لا ينبعث في الضحك.

وعن ابن عمر: كان لا ينام إلا والسواك عند رأسه، فإذا استيقظ بدأ بالسواك.

وعن أم عياش: كان يحفى شاربه.

وعن عائشة: كان يعجبه الريح الطيبة.

وعن إبراهيم: كان يُعرّف بريح الطيب إذا أقبل.

وعن أبي هريرة: كان يقلّم أظفاره ويقص شاربه يوم الجمعة قبل أن يروح إلى الصلاة.

ويقول أبو سعيد: كان إذا تغدّى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد.

ويقول أبو الدرداء: كان إذا حدّث بحديث تبسّم في حديثه.

ويقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان ينفق على الطيب أكثر مما ينفق على الطعام.

وعن حفصة: كان فراشه مسحاً.

وعن ابن عباس: كان فيه دعابة قليلة.

وكان لا يأكل الثوم والبصل والكراث.

أدبه صلى الله عليه وآله مع زوجاته

يقول أبو ثعلبة: كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يُثني بفاطمه، ثم يأتي أزواجه.

ص: ١٦٣

وعن حابس: كان يأمر نساءه إذا أرادت إحداهنَّ أن تنام أن تحمد ثلاثاً وثلاثين، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتكبر ثلاثاً وثلاثين.

وعن عائشة: كان إذا خلا بنسائه ألين الناس، وأكرم الناس، ضحاكاً بساماً..

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يحلب عنز أهله.

وعن عائشة: كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك.

وعن أنس: كان رحيماً بالعيال.

وعن عائشة وأم سلمة: كان يخطط ثوبه ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.

وعن عائشة: كان يعمل عمل البيت وأكثر ما يعمل الخياطة.

وعن عائشة: كان يقسم بين نسائه فيعدل..

وكان يقرع بين نسائه إذا أراد سفراً.

أدبه صلى الله عليه و آله مع أصحابه

يقول أبوذر: كان يجلس بين ظهراني أصحابه فيجىء الغريب فلا يدري أيهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى النبي أن يجعل مجلساً يعرفه

الغريب إذا أتاه، فبيننا له دكاناً من طين فكان يجلس عليها، ونجلس بجانبه.

وعن أنس: كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه قام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من

أصحابه فتناول يده



ص: ١٦٤

ناولها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزعها عنه.

وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه وآله يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده.

وعن على عليه السلام قال: ما صافح رسول الله صلى الله عليه وآله أحداً قط فنزع يده من يده حتى يكون هو الذى ينزع يده، وما فاضه أحد قط فى حاجة أو حديث فانصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف، وما نازعه أحد قط الحديث فيسكت حتى يكون هو الذى يسكت، وما رثى مقدماً رجله بين يدي جليس له قط.

وعن قره بن إياس: كان إذا جلس جلس إليه أصحابه حلقاً حلقاً.

وعن أنس: كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام، سأل عنه فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره وإن كان مريضاً عادته. وكان يتجمل لأصحابه فضلاً عن تجمل لأهله.

وعن جندب: كان إذا لقي أصحابه لم يصافحهم حتى يسلم عليهم.

وعن عائشة: كان إذا بلغه عن الرجل، لم يقل: ما بال فلان يقول: ولكن كان يقول: ما بال أقوام يقولون: كذا وكذا.

وعن أنس: كان لا يأخذ بالقرف ولا يقبل قول أحد على أحد.

وعن حذيفة: كان إذا لقيه الرجل من أصحابه مسحته ودعا له.

وعن جارية الأنصارى: كان إذا لم يحفظ اسم الرجل قال: يا ابن عبد الله.

وعن الإمام الصادق عليه السلام: كان يقسم لحظاته بين أصحابه فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية.

ولم ييسط رجليه بين أصحابه قط.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يداعب ولا يقول إلا حقاً.

وعن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: كان يستشير أصحابه ثم يعزم على ما يريد.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يداعب الرجل يريد به أن يسره.

ص: ١٦٥

وعن أنس: كان صلى الله عليه و آله يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم و استماله لقلوبهم، ويكنى من لم يكن له كنية فكان يُدعى بما كناه به.

وعن أنس: كان لا يدعو أحد من أصحابه و غيرهم إلا قال: لبيك.

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام: كان ليسرّ الرجل من أصحاب إذا رآه مغموماً بالمداعبة، وكان صلى الله عليه و آله يقول: إن الله يبغض المعبّس في وجه إخوانه.

وعن زيد بن ثابت: كنّا إذا جلسنا إليه صلى الله عليه و آله إن أخذنا في حديث الآخرة أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الدنيا أخذ معنا، وإن أخذنا في ذكر الطعام والشراب أخذ معنا.

وسأل الإمام الحسين أباه الإمام علياً عليه السلام: كيف كانت سيرته صلى الله عليه و آله في جلسائه؟

كان صلى الله عليه و آله دائم البشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهى، فلا يؤيس منه ولا يخيب منه مؤمليه، قد ترك نفسه من ثلاث: المرء والإكثار وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: كان لا يذم أحداً ولا يعيره، ولا يطلب عثراته ولا عورته، ولا يتكلم إلا فيما رجي ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا، ولا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم عنده حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويتعجب مما يتعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في مسألته ومنطقه حتى أن كان أصحابه يستجلبونهم، ويقول: إذا رأيتم طالب الحاجة يطلبها فاردوه، ولا يقبل الثناء إلا من مكافئ، ولا يقطع على أحد كلامه حتى يجوز فيقطعه بنهي أو قيام.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يقسم لحظاته بين أصحابه؛ فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية، قال: ولم يبسط رسول الله صلى الله عليه و آله رجليه بين أصحابه قط، وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله صلى الله عليه و آله يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده.

وفي المكارم قال:

كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا حدّث بحديث تبسم في حديثه.

ص: ١٦٦

مداعبته صلى الله عليه وآله

وعن يونس الشيباني قال: قال لى أبو عبد الله عليه السلام: كيف مداعبه بعضكم بعضاً؟ قلت: قليلاً.

قال: هلمّا تفعلوا؟ فإن المداعبة من حسن الخلق، وإنك لتدخل بها السرور على أخيك، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يداعب الرجل يريد به أن يسره.

وعن الصادق عليه السلام قال: ما من مؤمن إلا وفيه دعا به، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يداعب ولا يقول إلا حقاً.

وفى الكافي بإسناده عن معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام فقلت:

جعلت فداك، الرجل يكون مع القوم فيمضى بينهم كلام يمزحون ويضحكون؟

فقال: لا بأس ما لم يكن، فظننت أنه عنى الفحش.

ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يأتيه الأعرابي فيأتي إليه بالهدية، ثم يقول مكانه: أعطنا ثمن هديتنا، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان إذا اغتم يقول: ما فعل الأعرابي، ليته أتانا.

سكوته صلى الله عليه وآله

قال: فسألته عن سكوت رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليه السلام: كان سكوته صلى الله عليه وآله على أربع:

على الحلم والحذر والتقدير والتفكير: فأما التقدير ففي تسوية النظر والاستماع بين الناس، وأما تفكره ففيما يبقى ويفنى، وجمع له

الحلم والصبر فكان لا يغضبه شئ ولا يستفزه، وجمع له الحذر فى أربع: أخذه بالحسن ليقتمدى به، وتركه القبيح لينتهى عنه، واجتهاده

الرأى فى صلاح أمته، والقيام فيما جمع له خير الدنيا والآخرة.

أدبه صلى الله عليه وآله مع الناس جميعاً

قد وسع الناس منه حُلُقُهُ فصارَ لهم أباً، وصاروا عنده فى الخلق سواء، مجلسه مجلسٌ حلمٍ وحياءٍ وصدقٍ وأمانه، لا تُرْفَعُ عليه الأصوات،

ولا تُؤَبَّنُ فيه الحُرْمُ،

ص: ١٦٧

ولا تُثنى فلتأته، مُتعادلين، متواصلين فيه بالتقوى، متواضعين، يوقرون الكبير، ويرحمون الصَّغير، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب. كان إذا ودَّع المؤمنين قال: «زودكم الله التقوى ووجهكم إلى كل خير، وقضى لكم حاجة، وسلّم لكم دينكم وديناكم وردكم إلى سالمين».

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يخزن لسانه إلّا عمّا كان يعنيه، ويؤلفهم ولا ينفرهم، ويكرم كريم كل قوم ويوليهم عليهم، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحدٍ بشره ولا خلقه ويتفقّد أصحابه.

ويسأل الناس عمّا فى الناس،

ويحسنُ الحسنَ ويقويه،

ويقتحُ القبيحَ ويوهنه،

معتدلَ الأمر غير مختلف فيه،

لا يغفل مخافةً أن يغفلوا ويميلوا.

ولا يقصّر عن الحق ولا يجور.

الذين يُلونه من الناس خيارهم.

وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساةً وموازرةً،

كان لا يجلس ولا يقوم إلّا على ذكر.

لا يوطن الأماكن وينهى عن إيظانها.

وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ويأمر بذلك.

ويعطى كل جلسائه نصيبه، ولا يحسب أحد من جلسائه أن أحداً أكرم عليه منه.

من جالسهُ صابره حتى يكون هو المنصرف.

من سأله حاجة لم يرجع إلّا بها، أو ميسور من القول.

ويقول أبو واقد: كان أخف الناس صلاةً على الناس، وأطول الناس

ص: ١٦٨

صلاة لنفسه.

وعن عبد الله بن بسر: كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم.

وعن عكرمة مرسلًا: كان إذا أتاه رجل فرأى في وجهه بشرًا أخذ بيده.

وعن عقبه بن عبد: كان إذا أتاه الرجل وله الاسم لا يحبُّه حوله.

وعن عوف بن مالك: كان إذا أتاه الفيء قسّمه في يومه فأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظًا.

وعن أبي موسى: كان إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بَشِرُوا وَلَا تُنْفَرُوا، وَيَسْرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا.

وعن عائشة: كان يُغيّر الاسم القبيح.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يخرج في ملاء من الناس من أصحابه كلَّ عشية خميسٍ إلى بقيع المدنين، فيقول ثلاثاً: السلام عليكم يا أهل الديار- وثلاثاً- رحمكم الله.

وعن أنس: كان رحيماً ولا يأتيه أحدٌ إلّا وَعَدَ وأنجز له إن كان عنده.

وعن جابر: كان يتخلف في السير فيزجي الضعيف ويردُّ، ويدعو لهم.

وعن ابن عباس: كان إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طهورٌ، إن شاء الله.

ويقول أبو هريرة: كان إذا عطس وَصَعَّ يده أو ثوبه على فيه وخفّض بها صوته.

وكان أصبر الناس على أقدار الناس.

وعن ابن عمر: كان إذا صلّى بالناس الغداة أقبل عليهم بوجهه، فقال: هل فيكم مريضٌ أعوده؟ فإن قالوا: لا، قال: فهل فيكم جنازةٌ أتبعها؟

وعن حنظلة بن حذيم: كان يحبُّ أن يدعى الرجل بأحبِّ أسمائه إليه وأحبِّ كناه.

ص: ١٦٩

وعن ابن عمر: كان يكره أن يَطَأَ أحدُ عقبه ولكن يميناً وشمالاً.

وعن أنس: كان ينزل من المنبر يوم الجمعة فيكلمه الرجل في الحاجة فيكلمه، ثم يتقدم إلى مصلاه فيصلّي.

وعن أنس: كان لا يواجهُ أحداً بشيء يكرهه.

وعن الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام: كان يحمّلُ الناس من خلفه ما يطيقون.

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته فإن أبي أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

وكان لا يدع أحداً يمشى معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه، فإن أبي، قال:

تقدّم أمامي وأدركني في المكان الذي تريد.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان من رأفته صلى الله عليه و آله لأئمة مداعبته لهم لكيلا يبلغ بأحد منهم التعظيم حتى لا يُنظر إليه.

وكان يقول: لا يبلغني أحدٌ منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإنني أحبُّ أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر.

وعن أنس: كان إذا بايعه الناس يُلقنهم: فيما استطعت.

أدبُه صلى الله عليه و آله مع الصبيان

عن الإمام محمد الباقر عليه السلام: كان يسمع صوت الصبي يبكي وهو في الصلاة فيخفف الصلاة فتصير إليه أمه.

وعن أنس: كان إذا أتى بباكورة الثمرة وضعها على عينيه ثم على شفتيه، وقال:

اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره، ثم يعطيه من يكون عنده من الصبيان.

وكان إذا يؤتى بالصغير ليدعو بالبركة، أو يسميه، فأخذه فيضعه في حجره تكرمته لأهله، فربما بال الصبي عليه فيصيح بعض من رآه

حين يبول، فيقول صلى الله عليه و آله:

لا تزرّموا بالصبي، فيدعه حتى يقضى بوله، ثم يفرغ له من دعائه أو تسميته ويبلغ

ص: ١٧٠

سرورُ أهله فيه، ولا يرون أنه يتأذى ببول صبيهم، فإذا انصرفوا غسل ثوبه.

وعن أنس: كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.

وعن عبد الله بن جعفر: كان إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته.

وعن أنس: كان يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم.

وعن أنس: كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم.

وعن عائشة: كان يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم ويدعو لهم.

وعن أنس: كان يكتي الصبيان فيستلين به قلوبهم.

وعن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: كان إذا أصبح مسح على رؤوس ولده، و ولد ولده.

أدبه صلى الله عليه وآله مع النساء

وعن جرير: كان يمر بنساء فيسلم عليهن.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان يسلم على النساء ويردون عليه السلام.

وعن أنس: كان يكتي النساء اللاتي لهن الأولاد، واللاتي لم يلدن.

أدبه صلى الله عليه وآله مع ضعفاء الناس

عن أمية بن عبد الله: كان يستفتح ويستنصر بصعاليك المسلمين.

ويقول أبو سعيد وابن أبي أوفى: كان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضى حاجته.

وعن على بن أبي طالب عليه السلام: كان آخر كلامه: «الصلاة، الصلاة، اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم».

وعن سهل بن حنيف: كان يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم، ويعود مرضاهم ويشهد جنازتهم.

وعن ابن عباس: كان يجلس على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة

ص: ١٧١

المملوك على خبزٍ شعير.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: كان إذا أكل مع القوم طعاماً كان أول من يضع يده، وآخر من يرفعها ليأكل القوم.  
وعن عبد الله بن سنان عن أهل البيت عليهم السلام: كان يذبح يوم الأضحى كبشين أحدهما عن نفسه والآخر عمّن لم يجد من أمته.  
أدبه صلى الله عليه وآله مع خادمه

عن أنس قال: خدمت النبي صلى الله عليه وآله تسع سنين فما أعلم أنه قال لي قط: هلا فعلت كذا وكذا؟ ولا عاب علي شيئاً قط.  
وقال أيضاً: والذي بعثه بالحق ما قال لي في شئ قط كرهه: لم فعلته؟ ولا لامني نساؤه إلا قال: دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر.  
كان مما يقول للخادم: ألك حاجة؟

وأجاب الإمام على عليه السلام عن سؤال الإمام الحسين عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله مع أهل الفضل: وكان من سيرته صلى الله عليه وآله في جزء الأمة إثارة أهل الفضل بأدبه، وقسمه على قدر فضلهم في الدين، فمنهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج فيتشغل بهم، ويشغلهم فيما أصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وياخبرهم بالذي ينبغي، ويقول: ليبلغ الشاهد منكم الغائب، وأبلغوني حاجة من لا يقدر على إبلاغ حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يقدر على إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة، لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره، يدخلون رواداً، ولا يفترقون إلا عن ذواق، ويخرجون أدلة.

أدبه صلى الله عليه وآله مع أعدائه ومناوئيه

ويقول عمرو بن العاص: كان يُقبلُ بوجهه و حديثه على شر القوم يتألفه بذلك.



ص: ١٧٢

وعن عمر بن علي عن أبيه عليه السلام قال: كانت من أيمان رسول الله صلى الله عليه و آله: لا وأستغفر الله.  
وفى إحياء العلوم:

كان صلى الله عليه و آله إذا اشتدَّ وجده أكثر من مسِّ لحيته الكريمة.  
سخاؤه

وكان صلى الله عليه و آله أسخى الناس لا يثبت عنده دينار ولا درهم، وإن فضل شىء ولم يجد من يعطيه فجعاً الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط، من أيسر ما يجد من التمر والشعير، ويضع سائر ذلك في سبيل الله.

لا يسأل شيئاً إلا أعطاه، ثم يعود إلى قوت عامه فيؤثر منه، حتى أنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شىء، قال: وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه، قال: ويمشى وحده بين أعدائه بلا حارس، قال: لا يهوله شىء من أمور الدنيا.

قال: ويجالس الفقراء، ويؤاكل المساكين، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبرِّ لهم، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم، لا يجفو على أحد، يقبل معذرة المعتذر إليه.

وكان له عبيد وإماء من غير أن يرتفع عليهم في مآكل ولا ملبس، لا يمضى له وقت من غير عمل لله تعالى أو لما لا بد منه من صلاح نفسه، يخرج إلى بساتين أصحابه لا يحتقر مسكيناً لفقره أو زمانته، ولا يهاب ملكاً لملكه، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاءً مستويماً.

وكان صلى الله عليه و آله أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضى، وكان أرأف الناس بالناس، وخير الناس للناس، وأنفع الناس للناس.

وكان صلى الله عليه و آله إذا سرَّ ورضى فهو أحسن الناس رضى، فإن وعظ وعظ بجد، وإن

ص: ١٧٣

غضب- ولا- يغضب إلا لله- لم يقم لغضبه شىء، وكذلك كان فى أموره كلها، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر إلى الله، وتبرأ من الحول والقوة، واستنزل الهدى.

من سننه وأدبه صلى الله عليه و آله فى العشرة

وفى إرشاد الديلمى قال:

كان النبى صلى الله عليه و آله يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويأكل مع العبد، ويجلس على الأرض، ويركب الحمار ويردف، ولا- يمنعه الحياء أن يحمل حاجته من السوق إلى أهله، ويصافح الغنى والفقير، ولا ينزع يده من يد أحد حتى ينزعها هو، ويسلم على من استقبله من غنى وفقير وكبير وصغير، ولا يحقر ما دعى إليه ولو إلى حشف التمر.

وكان صلى الله عليه و آله خفيف المؤنة، كريم الطبيعة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عبوس، متواضعاً من غير مذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، ولم يتجش من شبع قط، ولم يمد يده إلى طمع قط.

ص: ١٧٤

وفي مكارم الأخلاق عن النبي صلى الله عليه و آله:

أنه كان ينظر في المرأة ويرجل جمته ويتمشط، وربما نظر في الماء وسوى جمته فيه، ولقد كان يتجمل لأصحابه فضلاً على تجمله لأهله، وقال صلى الله عليه و آله: إن الله يحب من عبده إذا خرج إلى إخوانه أن يتهاى لهم ويتجمل.

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه و آله خمس لا أدعهن حتى الممات:

الأكل على الأرض مع العبيد، وركوبى مؤكفاً، وحلبى العنز بيدي، ولبس الصوف، والتسليم على الصبيان لتكون سنه من بعدى.

وفي الفقيه عن علي عليه السلام أنه قال لرجل من بنى سعد: ألا أحدثك عنى وعن فاطمة- إلى أن قال- فغدا علينا رسول الله صلى الله عليه و آله ونحن فى لحافنا فقال: السلام عليكم، فسكتنا واستحيينا لمكاننا، ثم قال صلى الله عليه و آله: السلام عليكم فسكتنا، ثم قال صلى الله عليه و آله: السلام عليكم فخشينا إن لم نرد عليه أن ينصرف، وقد كان يفعل ذلك فيسلم ثلاثاً فإن أذن له وإلا انصرف، فقلنا: وعليك السلام يا رسول الله، أدخل فدخل، الخبر.

وعن أبى عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يسلم على النساء ويرددن عليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام، يسلم على النساء، وكان يكره أن يسلم على الشابة منهن، ويقول: أتخوف أن يعجبني صوتها فيدخل على أكثر مما أطلب من الأجر.

وعن عبد العظيم بن عبد الله الحسنى رفعه قال:

كان النبي صلى الله عليه و آله يجلس ثلاثاً: القرفصاء، وهو أن يقيم ساقيه ويستقبلهما بيده، ويشد يده فى ذراعه، وكان يجثو على ركبتيه، وكان يثنى رجلاً واحدةً ويبسط عليها الأخرى، ولم ير متربعا قط.

ولا خيّر بين أمرين إلا أخذ بأشدهما، وما انتصر لنفسه من مظلمة حتى ينتهك محارم الله، فيكون حينئذ غضبه لله تبارك وتعالى، وما أكل متكأ قط حتى فارق الدنيا، وما سئل شيئاً قط فقال: لا، وما ردّ سائل حاجة قط إلا أتى بها أو بميسور من القول، وكان أخفّ الناس صلاةً فى تمام، وكان أقصر الناس خطبةً

ص: ١٧٥

وأقلهم هذراً، وكان يعرف بالريح الطيب إذا أقبل، وكان إذا أكل مع القوم كان أول من يبدأ وآخر من يرفع يده، وكان إذا أكل أكل مما يليه، فإذا كان الرطب والتمر جالت يده، وإذا شرب شرب ثلاثه أنفاس، وكان يمض الماء مصاً ولا يعبه عباً، وكان يمينه لطعامه وشرابه وأخذه وعطائه فكان لا يأخذ إلا بيمينه، ولا يعطى إلا بيمينه، وكان شماله لما سوى ذلك من بدنه، وكان يحب التيمن في جميع أموره في لبسه وتنعله وترجله.

وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا تكلم تكلم وترأ، وإذا استأذن استأذن ثلاثاً، وكان كلامه فصلاً يتبينه كل من سمعه، وإذا تكلم رثى كالنور يخرج من بين ثناياه، وإذا رأته قلت: أفلج وليس بأفلاج.

وكان نظره اللحظ بعينه، وكان لا يكلم أحداً بشئ يكرهه، وكان إذا مشى كأنما ينحط في صلب، وكان يقول: إن خياركم أحسنكم أخلاقاً، وكان لا يذم ذواقاً ولا يمدحه، ولا يتنازع أصحاب الحديث عنده، وكان المحدث عنه يقول: لم أر بعيني مثله قبله ولا بعده صلى الله عليه وآله.

وهناك آداب للرسول صلى الله عليه وآله مع الجميع:

فعن أنس: وكان صلى الله عليه وآله لا يدعو أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال: لبيك.

وعنه: ولقد كان صلى الله عليه وآله يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستماله لقلوبهم، ويكنى من لم يكن له كنية فكان يُدعى بما كناه به، ويكنى أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن، ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم.

وكان صلى الله عليه وآله يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

وعن عجلان قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام، فجاء سائل فقام عليه السلام إلى مكيل فيه تمر فمأأ يده فناوله، ثم جاء آخر فسأله، فقام فأخذ بيده فناوله، ثم جاء آخر فسأله فقام فأخذ بيده فناوله، ثم جاء آخر فقال عليه السلام: الله رازقنا وإياك.

ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يسأله أحد من الدنيا شيئاً إلا أعطاه، فأرسلت

ص: ١٧٦

إليه امرأةً إبناً لها فقالت: انطلق إليه فاسأله فإن قال: ليس عندنا شى فقل: أعطنى قميصك، قال: فأخذ قميصه فرمى به - وفي نسخة أخرى فأعطاه - فأدبه الله على القصد فقال: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا». وفيه روى: أن رسول الله صلى الله عليه و آله كان لا يدع أحداً يمشى معه إذا كان راكباً حتى يحمله معه فإن أبى قال: تقدم أمامى وأدركنى فى المكان الذى تريد.

وعن أبى القاسم الكوفى فى كتاب الأخلاق: وجاء فى الآثار: أن رسول الله صلى الله عليه و آله لم ينتقم لنفسه من أحد قط بل كان يعفو ويصفح.

و كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

و عن جابر عن أبى جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة.

وفيه عن موسى بن عمران بن يزيد قال: قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك، إن الناس رووا أن رسول الله صلى الله عليه و آله كان إذا أخذ فى طريق رجع فى غيره! كذا كان؟ قال:

فقال: نعم فأنا أفعله كثيراً فافعله، ثم قال لى: أما إنه أرزق لك.

و عن أبى جعفر عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يخرج بعد طلوع الشمس.

و عن عبد الله بن المغيرة، عمّن ذكره قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله إذا دخل منزلاً قعد فى أدنى المجلس إليه حين يدخل.

و عن جعفر بن محمد عن آبائه عن على عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و آله يرجل شعره، وأكثر ما كان يرجل بالماء، ويقول: كفى بالماء طيباً للمؤمن.

## رسول الله صلى الله عليه وآله في كلمات الشعراء

سعيد المهاجر

المديح من أبواب الشعر العربي المعروفة، وتعدّ المدائح النبوية، وهي التي بدأت مع الخيوط الأولى للدعوة النبوية الخالدة وظلت وما زالت وستبقى متوهجته، من أروع فروع وأصدقها وأجملها لفظاً وأحسنها وأثراها معنى.. لقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله مقصداً وقبله ومثابة لجميع الناس، مؤمنهم ومجاهديهم وعلمائهم ومفكريهم ومنتقفيهم وسياسيهم وأدبائهم وشعرائهم...

هؤلاء جميعاً ومنهم الشعراء بالذات وعلى مَرّ التاريخ، قد أسرتهم شخصية نبي الله العظيمة بما تتوفر عليه من خصائص عالية وشمائل جلية وصفات جميلة ومناقب رفيعة، لا تجد نظيراً لها لدى أحد من العالمين، وكيف نجد لها نظيراً ومثيلاً وقد تولّت السماء بناءه وشيدت كيانه وصنعتة كما أرادت ليكون نبياً ورسولاً وشاهداً وبشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله تعالى وسراجاً منيراً... وإذا كان الشاعر يستعين بما يشاء من مناقب تتسم بالجلالة وصفات كلها عظمة و تكريم ليردّف بها أدواته الشعرية في وصف من يريد مدحه والثناء عليه، فإذا بمددحه هذا يصبح أجمل من غزال وأبهى من شمس وأنور من قمر وأكثر منه ضياءً وأكرم من سحاب وأسخر من غمام... وهو الخالي من كل ذلك بل ومن أقل

ص: ١٧٨

منه، ولكنه الشعر.. والشعر ما أكذبه!!..

إلا أن هذا الشعر وذاك الشاعر وهذا القصيد يكون مختلفاً جداً حين يكون رسول الله صلى الله عليه وآله موضوع القصيد، حينما يكون ممدوحهم خاتم الأنبياء وسيد الأنام، عندما يصبح موضوعهم ومحور أدبهم وشعرهم من وصفته السماء:

«وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ» (١).

وحقاً ماقالوه:

أثنى العظیم عليك في آياته بعظیم خُلقك ما أجل وأروعا  
الناس إن مدحوا استطاروا فرحاً والمدح المصنوع ليس الصانعا  
ومدح ربك وهو أنفُس مدحه قد زاد فيك تعبداً وتواضعاً

ومهما يقول فيه الشعراء يبقى ما يقولونه- وإن علا وسما- دون وصف السماء له، ودون ما حملته إياه بمراتب عظيمة جداً، ودون ما يتحلى به من خلق عالٍ وسيرة عطرة وجهاد دؤوب.. ويبقى الشاعر- مهما كان قديراً- مقصيراً في وصف ما يستحقه رسول الرحمة والخير والعطاء والمغفرة.. مهما أجهد نفسه وفكره ولسانه وقلمه في مدحه صلى الله عليه وآله، ويقف الجميع وكل ما ينشدونه و يتفوهون به شعراً أو نثراً عاجزاً عن إيفاء جزء مما يمتاز به ويتحلى به ممدوحهم رسول السماء من آداب سامية وأخلاق عظيمة وشمائل نادرة ومواقف كبيرة وتضحيات جسام..

وعليه، فإن هذا النوع من مدحهم يأتي دائماً بعيداً عن المزاعم الكاذبة والادعاءات الباطلة، ونجده خالصاً من الشوائب والمطامع الرخيصة المرجوة من مدح سلطان أو زعيم أو ثرى، بل ولا مكان فيه لزخارف الأقوال، إنه كلمات خالصة بعواطف صادقة وألفاظ دقيقة ومعاني رائعة وجمال تصوير وحسن سبك وبراعة نظم..

لهذا ولغيره، سجل هذا النوع من المديح مكانةً مرموقةً ومنزلةً رفيعةً

ص: ١٧٩

ومستقله، فهو المديح النبوي الصادق، وهي المدائح النبوية الخالصة، وهي القصائد الرائدة وكلها تنأى عن الشوائب، وترفع عن الأقاويل، وما أكثرها في دواوين الشعر والشعراء!!

١- من مدائح النبي صلى الله عليه وآله

نقف عند مقاطع مقتبسة مما جاء من هذه المدائح والقصائد:

شعر ورقة بن نوفل

فمما قاله ورقة بن نوفل:...

بأن محمداً سيسود فينا ويخصم من يكون له حجيجا

ويظهر في البلاد ضياء نور يقيم به البرية أن تموجا

فيلقى من يحاربه خسارا ويلقى من يسالمة فلوجا

فياليتي إذا ما كان ذاكم شهدت فكنت أولهم ولوجا

ولوجاً في الذي كرهت قريش ولو عجت بمكثها عجيجا

أرجى بالذي كرهوا جميعاً إلى ذي العرش إن سفلوا عروجا

أبوطالب و مدح النبي صلى الله عليه وآله

وكان لأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وآله عدة قصائد في مدحه منها:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر فعبد مناف سرّها وصميمها

وإن حصلت أشراف عبد منافها ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإن محمداً هو المصطفى من سرّها وكريمها

أنت الرسول رسول الله نعلمه عليك نزل من ذي العزة الكتب



ص: ١٨٠

لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ النَّبِيَّ مُحَمَّدًا فَأَكْرَمَ خَلْقَ اللَّهِ فِي النَّاسِ أَحْمَدُ  
وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيَجْلَهُ فَذُو الْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذَا مُحَمَّدُ  
وَأَبْيَضَ يَسْتَسْقَى الْغَمَامَ بِوَجْهِهِ ثَمَالَ الْيَتَامَى عَصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ  
يَلُودُ بِهِ الْهَلَّافُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهَمَّ عِنْدَهُ فِي رَحْمَةٍ وَفَوَاضِلٍ  
فَمَنْ مِثْلُهُ فِي النَّاسِ أَى مُؤْمِلٍ إِذَا قَاسَهُ الْحُكَّامُ عِنْدَ التَّفَاضِلِ  
حَلِيمٌ رَشِيدٌ عَادِلٌ غَيْرُ طَائِشٍ يُوَالِي إِلاهَا لَيْسَ عَنْهُ بِغَافِلٍ  
لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ لَدَيْنَا وَلَا يَعْنِي بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ  
فَأَصْبَحَ فِينَا أَحْمَدُ فِي أُرُومَةٍ تَقْصُرُ عَنْهُ سُورَةُ الْمُتَطَاوِلِ  
حَدَبَتْ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحَمِيَّتِهِ وَدَافَعَتْ عَنْهُ بِالذَّرَا وَالْكَلاَكِلِ  
فَأَيَّدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِنَصْرِهِ وَأَظْهَرَ دِينَنَا حَقَّهُ غَيْرَ بَاطِلِ  
أَلَا أُبَلِّغُ عَنْهُ عَلَى ذَاتِ بَيْنِنَا لَوْ يَا وَخِصَا مِنْ لَوْىِ بَنِي كَعْبِ  
أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا نَبِيًّا كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ  
وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً وَلَا خَيْرَ مِمَّنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ  
أَعَشَى بَنِي قَيْسٍ وَشَعْرَهُ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ  
أَعَشَى بَنِي قَيْسٍ بَنِ ثَعْلَبَةَ بَنِ عَكَابَةَ بَنِ صَعْبِ بَنِ عَلِيِّ بَنِ بَكْرِ بَنِ وَاثِلِ، خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَرِيدُ الْإِسْلَامَ، فَقَالَ  
يَمْدَحُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِقَصِيدَةٍ (دَالِيَّةٌ) وَقَدْ جَاءَ فِيهَا:  
أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبِتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مَسْهَدًا  
وَمَا ذَاكَ مِنْ عَشْقِ النِّسَاءِ وَإِنَّمَا تَنَاسَيْتَ قَبْلَ الْيَوْمِ صَحْبَةَ مَهْدَدَا (١)

١- مهديد: اسم امرأة.

ص: ١٨١

ثم يقول:

آليت لا آوى لها من كلاله ولا من حفى حتى تلاقى محمدا  
متى ما تناخى عند ابن هاشم تراخى وتلقى من فواضله ندى  
نياً يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا  
له صدقات ما تغب ونائل وليس عطاء اليوم مانعه غدا  
أجدك لم تسمع وصاة محمد نبى الإله حيث أوصى وأشهدا  
إذا أنت لم ترحل بزادٍ من التقى ولا قيت بعد الموت من قد تزودا  
ندمت على أن لا تكون كمثلته فترصد للأمر الذى كان أرصدا  
فإياك والميتات لا تقربنّها ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا  
وذا النصب المنصوب لا تنسكّنه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا  
ولا تقربنّ حرّة كان سرها عليك حراماً فانكحن أو تأبداً  
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه لعاقبه ولا الأسير المقيدا  
وسبح على حين العشيات والضحى ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا  
ولا تسخر من باس ذى ضرارة ولا تحسبنّ المال للمرء مخلداً (١)  
آية الله الهاشمى وشوق الشاعر إلى نبى الرحمة صلى الله عليه وآله  
وللسيد آية الله جمال الدين الهاشمى رائعة، راح ينظمها وهو فى المدينة المنورة عام ١٩٧٦ ميلادى، حين زيارة الضريح الطاهر  
لرسول الرحمة محمد صلى الله عليه وآله، نقبتس شيئاً منها:  
أيتك بالأشواق أطفو وأرسب وكلّى آمال وكلّك مطلب

ص: ١٨٢

ملكك على بعد الديار مشاعري فأنت إلى ذهني من الفكر أقرب  
إلى أن دنت مني الديار وأصبحت قبابك في عيني تهلّ وتغرب  
تلاشت حدودي في حدودك والهوى توحد أشتات به وتذوب  
فعدت وما آلاك عند مشاعري فأنت بها فكر ودين ومذهب

\*\*\*

ولما وطأت المسك من أرض طيبة وهب عبير من شذى الخلد أطيب  
وأقحمت طرفي لجة النور لوح شمائل أشهى من خميل وأعذب  
تخيلت عشراً من قرون وأربعا ستبعد طرفي عن رؤاك وتحجب  
ولكن رأيت الأمس عندي بسحره ثرى كما يهوى الجلال ويطلب  
كأن السنين الذاهبات وبعدها مرايا بها تدنو إلى وتغرب  
وللمت طرفي من سناك ولمعه كذا الشمس تعشو العين منها وتتعب  
وراودت فكري أن يعيك فاده بأنك أوفى من مداه وأرحب

\*\*\*

سماحاً أبا الزهراء إن جئت أجتلى سناك وأستهدي الجلال وأطلب  
إذا لم تؤمل فضل نورك ظلمت فمّن أين يرجو جلوة النور غيب  
وإن لم يلج ذنبي ببابك خاشعاً فمّن أين يرجو رحمة الله مذنب  
ومثلك من أعطى ومثلي من اجتدى فإن السما تنهل والأرض تشرب  
وما عند باب الأنبياء معزة فليس على من أمّ بابك معتب  
أهبت بنقصي فاستجار بكامل إلى ذاته ينمي الكمال وينسب  
وأغرى طلابي أن فيض معينه مدى الدهر ترّ ما يجفّ وينضب  
وعفرت خدي في ثرى مس عفره لجبريل من جنحيه ريش مزغب  
وفيه محاريب لآل محمد بهنّ ضراعات إلى الله تنصب  
وآثار أقدام صغار ومهجع إلى الحسنين الزاكين وملعب  
وصوت رحي الزهراء تطحن قوتها إلى جلد كبش حيث تحبس زينب  
رؤى سوف يبقى الدهر يروى جلالها وتبقى على رغم البساطة تأشب

\*\*\*

ص: ١٨٣

عهدتك والقرآن نور وحكمة يشد إليه التائهن ويجذب  
وأنت عطاء كلما احتاجت الدنيا إلى مكسب منه تولد ومكسب  
وأنت طموح نال كل ممنوع ولم يرضه من غارب لنجم منكب  
وأنت شموخ في النوائب مرقل على عزمات كلهن توثب  
وأنت إذا التاث رأى اصابه مسددة عن صائب الرأى تعرب  
فما بالنا لا نجتليك بتيهنا وأنت لنا نبع وروض مخضب  
فقد يكتفى في تافه الزاد كاسل لأن كريم الزاد ماته متعب  
من قصائد حسان بن ثابت

وهناك مدائح حسان بن ثابت ومنها قوله في إحدى قصائده:...

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ نَصْرَهُ عَلَى عَبْدِهِ خَيْرَ الْعِبَادِ مُحَمَّدٍ  
وَأَرْسَلَهُ فِي النَّاسِ نُورًا وَرَحْمَةً فَمَنْ يَرْضَ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ يَهْتَدِ  
كعب بن زهير والقصيدة اللامية

ومما قاله كعب بن زهير في قصيدته اللامية المشهورة التي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول متيم إثرها لم يفد مكبول  
يسعى الغواة جنابها وقولهم إنك يا ابن أبي سلمى لمقتول  
وقال كل صديق كنت آمله لا ألهينك إني عنك مشغول  
فقلت خلوا طريقي لا أبا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعول  
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آله حذباء محمول  
تبثت أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول  
مهلاً هداك الذي أعطاك نافله ال قرآن فيها مواعظ وتفصيل  
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقاويل  
إن الرسول لنور يستضاء به مهتد من سيوف الله مسلول

كعب بن مالك يمتدح النور النبوي

وقصائد كعب بن مالك التي يقول في إحداها:

فَإِنْ يَكُ مُوسَى كَلَّمَ اللَّهَ جَهْرَةً عَلَى الطُّورِ الْمُنِيفِ الْمُعْظَمِ  
فَقَدْ كَلَّمَ اللَّهَ النَّبِيُّ مُحَمَّدًا عَلَى الْمَوْضِعِ الْأَعْلَى الرَّفِيعِ الْمُسَوِّمِ  
وَإِنْ تَكُ نَمْلُ الْبُرِّ بِالْوَهْمِ كَلَّمْتُ سُلَيْمَانَ ذَا الْمُلْكِ الَّذِي لَيْسَ بِالْعَمِيِّ  
فَهَذَا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ صِغَارُ الْحَصَى فِي كَفِّهِ بِالْتَرْتُّمِ

\*\*\* من شعر عبد الله بن رواحة

وقصائد عبد الله بن رواحة ومن أبياته في إحداها:

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الصُّبْحِ سَاطِعٌ  
أَرَانَا الْهُدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا بِهِ مَوْقِنَاتٌ أَنْ مَا قَالَ وَأَقِعَ

يَبِيْتُ يُجَافِي جَبْتَهُ عَن فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْكَافِرِينَ الْمَضَاجِعُ

وتوالى قصائد المديح منذ ذلك الوقت، وكان في كل عصر من العصور شعراء مدحوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لا يتسع المقام في هذه المقالة لذكر أسمائهم، وقد اشتهر بعضهم بالمدائح النبوية ككشرف الدين البوصيري، صاحب القصيدة المشهورة التي يقول في مطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بِيْذِي سَلَمٍ مَرَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ

وهي القصيدة المعروفة بالبردة

ولحسن بن ثابت نماذج عديدة من الشعر مدحاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وورثاء، نختار بضعة أمثلة منها:

نصرناه لَمَّا حَلَّ وَسَطَ رِحَالِنَا بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمٍ

جعلنا بنينا دونه وبناتنا وطبنا له نفساً بفيء المغانم



ص: ١٨٥

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء  
خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء  
ويذب حسان عن عرض رسول الله صلى الله عليه و آله  
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء  
هجوت محمداً براً تقياً رسول الله شيمته الوفاء  
فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم وقاء  
ثكلت بنيتي إن لم تروها تثير النقع من كنفى كداء  
يبارين الأعتة مصعدات على أكتافها الأسل الظماء  
تظل جيانا متمطرات تلطمهن بالخمير النساء  
فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا وكان الفتح وانكشف الغطاء  
هذا في المدح..

٢- من رثاء الرسول صلى الله عليه و آله

أما في الرثاء، فاننا نجد حسان بن ثابت يرثي الرسول بمجموعة من القصائد تنم عن حزن صادق وألم مريع:  
بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد  
ولا تمتحى الآيات من دار حرمة بها منبر الهادي الذي كان يصعد  
وواضح آثار وبقى معالم وربيع له فيه مصلى ومسجد  
بها حجرات كان ينزل وسطها من الله نور يستضاء ويوقد  
معارف لم تطمس على العهد آياها أتاها البلى فالآي منها تجدد  
عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبراً بها وراه في الترب ملحد  
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت عيون ومثلاها من الجفن تسعد  
يذكرن آلاء الرسول وما أرى لها محصياً نفسى فنفسى تبدل

ص: ١٨٦

مفجعة قد رشفها فقد أحمد فظلت لآلاء الرسول تعدد  
أطالت وقوفاً تذرف العين جهدها على طلل الذي فيه أحمد  
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد  
وبوركت لحد منك ضمن طيباً عليه بناء من صفيح منضد  
تهيل عليه التراب أيد وأعين عليه وقد غارت بذلك أسعد  
لقد غيبوا حلماً وعلماً ورحمة عشية علوه الثرى لا يوسد  
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهوراً وأعضد  
يبكون من تبكى السماوات يومه ومن قد بكته الأرض فالناس أكمد  
وهل عدلت يوماً رزية هالك رزية يوم مات فيه محمد؟!  
فابكى رسول الله يا عين عبرة ولا أعرفنك الدهر دمعك يجمد  
وما لك لا تبكين ذا النعمة التي على الناس منها يتغمد  
فجودى عليه بالدموع وأعولى لفقد الذي لا مثله الدهر يوجد  
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد  
وليس هواى نازعاً عن ثنائه لعلى ربه فى جنه الخلد أخلد  
مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجهد  
وقال فى قصيدة أخرى:  
تا لله ما حملت أنثى ولا وضعت مثل الرسول نبي الأمة الهادى  
من الذى كان فىنا يستضاء به مبارك الأمر ذا عدل وإرشاد  
يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر أصبحت منه كمثل المفرد الصادى  
وقال أحد الشعراء:  
وإلا شهدت بفضل مقامك الأكوان وترنمت فرحاً بك الأزمان



ص: ١٨٧

وَتَبَاشَرْتُ كُلَّ السَّمَاءِ وَكَبَّرْتُ وَالْأَرْضُ فِي عُرْسٍ كَذَا الْأَرْكَانُ  
 وَتَزَلُّزَلُ الطَّغْيَانُ فِي أَرْجَائِهَا فَبَسَيْفِ دِينِكَ يُهْزَمُ الطَّغْيَانُ  
 وَتَتَفَقَّفُ الْإِنْسَانُ أَعْلَامَ الْهُدَى لَوْلَاكَ ضَلَّ بِجَهْلِهِ الْإِنْسَانُ  
 كَمَلَتْ صِفَاتُكَ فِي الْأَنَامِ فَكَلَّهَا نُورٌ تُضِيءُ يَمُدُّهَا الْإِيمَانُ  
 سَبَّحَانَ مَنْ أَلْقَى إِلَيْكَ مَحَاسِنًا مِنْ نُورِ نُورِكَ يَنْبُتُ السَّبَّحَانُ  
 وَعَلَا بِذِكْرِكَ حَامِدًا وَمُحَمَّدًا وَبِاسْمِ أَحْمَدَ تَشْهَدُ الرَّهْبَانُ  
 جَبْرِيلُ يَشْهَدُ وَالْمَلَائِكَةُ الْعُلَمَاءُ وَالْأَنْبِيَاءُ بِصِدْقِهِمْ قَدْ دَانُوا  
 أَنْتَ الَّذِي أُوتِيَتْ كُلُّ فَضِيلِهِ وَالْمُعْجِزَاتِ عَظِيمُهَا الْقُرْآنُ  
 أَنْتَ الْمُقَرَّبُ وَالْمُشْفَعُ لِلْوَرَى يَوْمَ الشَّفَاعَةِ أَحْمَدُ الْعُنْوَانُ  
 أَنْتَ الْخَلِيلُ وَأَنْتَ أَعْظَمُ نِعْمَةً وَالْآيَةُ الْعُظْمَى كَذَا الْفُرْقَانُ  
 وقال الله: قد أرسلت عبداً يقول الحق ليس به خفاء  
 وقال الله: قد يسرت جنداً هم الأنصار عرضتها للقاء  
 لنار في كل يوم من معد سباب رأو قتال أو هجاء  
 فمن يهجو رسول الله منك ويمدحه وينصره سواء  
 وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس له كفاء  
 وَبِنُورِ وَجْهِكَ تُمَطِّرُ نَارَ السَّمَاءِ وَبِفَضْلِ جُودِكَ عَمَّنَا الْإِحْسَانُ  
 عَرْشُ الْإِلَهِ يَرَى مَقَامَكَ عَالِيًا وَأَذْنَاكَ مِنْهُ بِفَضْلِهِ الرَّحْمَنُ  
 فَأَنْتَ مُؤْتَمِنُ الرَّحْمَنِ إِذْ خُتِمَتْ بِكَ الرِّسَالَاتُ وَاسْتَهْدَتْ بِكَ الْبَشَرُ  
 جَاهَدْتَ فِي اللَّهِ إِذْ بَلَغَتْ دَعْوَتُهُ فَالْكَفْرُ مَنَدَحٌ وَالشِّرْكَ مُنْكَسِرُ  
 صَلَّيْتَ بِالرُّسُلِ فِي مَسْرَاكَ كُنْتَ بِهِمْ كَمَا يَزِينُ ضَوْءُ الْأَنْجَمِ الْقَمَرُ  
 تَرَكْتَ فِيْنَا كِتَابَ اللَّهِ نَهَجَهُ وَسُنَّةً فَسَّرْتَ فِي ضَوْئِهَا السُّورُ  
 فِي جَبِينِكَ «نُورٌ يُشْرِقُ الْقَمَرُ» وَفِي حَدِيثِكَ ذَاكَ الْهُدَى يَنْهَمُرُ  
 وَفِي سَجَايَاكَ يَا خَيْرَ الْوَرَى مِثْلُ وَفِي حَيَاتِكَ ذَاكَ الْمَقْتَدَى الْأَثَرُ  
 قَدْ كُنْتَ قَلْبًا لِنَشْرِ الدِّينِ مَجْتَهِدًا وَكُنْتَ كَفًّا لِبَدْلِ الْخَيْرِ تَبْتَدُرُ  
 إِذَا وَهَبْتَ فَلَا مَنْ وَلَا قَتْرٌ وَإِنْ دُعِيْتَ فَلَا مَطْلٌ وَلَا ضَجْرُ  
 وَكُنْتَ قَرَاءَنَا يَمْشِي بِخَيْرِ هَدَى مَاذَا نَقُولُ وَمَاذَا فِيكَ نَخْتَصِرُ؟!  
 يَا نَاصِرَ الدِّينِ.. يَا وَحَى الْإِلَهِ بِهِ يَرْفَرُ الْقَلْبُ وَالْأَرْوَاحُ وَالْفِكْرُ  
 يَا مَنْ أَضَاءَ بِنُورِ اللَّهِ سُنَّتَهُ لِلْمَقْتَدِينَ فَتَلْكَ الْأَنْجَمُ الزُّهْرُ  
 مَنَاقِبُ النَّصْرِ فِي أَرْجَاءِ دَعْوَتِهِ الِ غَزَاءِ فِيهَا قُلُوبُ الشِّرْكَ تَنْبَهْرُ  
 هُدَاكَ زَلْزَلُ كَسْرِي فِي مَدَائِنِهِ وَخَرَّ قَيْصَرُ إِذْ لَمْ تُغْنِهِ النَّذْرُ  
 وَأَتَكَ الْمِصْطَفَى الْبَشْرَى النَّذِيرُ وَقَدْ ذُكِرْتَ إِذْ أَنْزَلَ الْإِنْجِيلُ وَالزُّبُرُ  
 أَدَيْتَ فِيْنَا أَمَانَاتٍ وَقَدْ شَهِدْتَ لَكَ الْقُلُوبُ وَذَاكَ السَّمْعُ وَالْبَصْرُ

عزأؤنا أن عقى الدارِ موعدنا طوبى لمن آمنوا.. بشرى لمن صبروا

\*\*\*

ريح الصبا تزكى الصباة فى الحشا عند الهبوب وتحرك الأشواق تطوى بالمنى بعد الدروب



ص: ١٨٩

فإذا الحياة بمرّها تحلو وتنساها الكروب و تهون في الدّرب الصّعب و ينجلي ليل الخطوب  
يا أحمد الهدى ويا نوراً أطلّ على القلوب من كلّ شيءٍ حسنه آتاك علام الغيوب  
فالشّمس حُزّت ضياءها والغيم مدمعه السّكوب والطير أهدت شدوها والزّهْر أهداك الطّيوب  
أهدى الصّباح حياته وسكينة أهدى الغروب يا منذراً ومبشراً من عند علام الغيوب  
يا داعياً وسراج نورٍ قد أضاء لنا الدّروب ذكراك تحيينا وحبّك غيثننا يروى القلوب  
وحديثك الهدى رياضٍ ليس فيها من لغوب صلّى عليك الله يا من ذكره يمحو الذّنوب

ص: ١٩٠

## عمرة القضاء

في ذى القعدة سنة

(٥٧-٦٢٧ م)

محمد سليمان

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» (١).

العمرة لغة- بضم العين وسكون الميم وفتح الراء:- الزيارة.. جمعها عمر بضم العين وفتح الميم، وعمرات بضم كل من العين والميم. ومنه المعتمر بضم الميم وسكون العين وفتح التاء وكسر الميم الثانية: الزائر والقاصد للشىء ومن يؤدى العمرة، ومنه اعتمر فلان أى زار وقصد وأدى العمرة.. (٢) وهذه أى العمرة شرعاً: قصد الكعبة للنسك المعروف.. (٣) عُمر رسول الله صلى الله عليه وآله تحدثنا بعض المصادر التاريخية أن رسول الله صلى الله عليه وآله اعتمر أربع مرات (وفى من لا

١- الفتح: ٢٧.

٢- أنظر مصادر اللغة والقاموس الفقهي.

٣- نفس المصادر.

ص: ١٩١

يحضره الفقيه: واعتمر عليه السلام تسع عمر.. كلها كانت في ذى القعدة من أشهر الحج التي هي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهو داخل إلى مكة، وإنه لم يحفظ عنه أنه اعتمر في السنة إلّامرة واحدة، وأنه لم يحج إلّامع عمرته الأخيرة في حجة الوداع: إحداها: عمرة الحديبية، وكانت في ذى القعدة عام الحديبية سنة ست من الهجرة فصّده المشركون عن البيت، فنحر وحلق حيث صدّ، وحلّ. وحسبت له ولمن معه عمرة.

والثانية: عمرة القضاء، وكانت في ذى القعدة سنة سبع؛ حيث قضاها في العام المقبل من صلح الحديبية.

والثالثة: عمرته التي قرنّها مع حجته في ذى القعدة سنة ثمان عند فتح مكة.

والرابعة: عمرته من الجعرانة مع حجته وكان إحرامها في ذى القعدة وأعمالها في ذى الحجة.. وقول: إنّ عمرته من الجعرانة حيث قسم فيها غنائم حنين. وعمرة مع حجته..

وقال بعضهم: إنما اعتمر النبي صلى الله عليه وآله هذه العمر في ذى القعدة لفضيلة هذا الشهر ولمخالفة الجاهلية في ذلك، فإنهم كانوا يرونه من أفجر الفجور... ففعله صلى الله عليه وآله مرات في هذه الأشهر ليكون أبلغ في بيان جوازه فيها وأبلغ في إبطال ما كانت الجاهلية عليه والله أعلم (١).

وبما أنّ عمرة القضاء هي محل كلامنا نقف عندها تفصيلاً.

أسماء عمرة القضاء

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء، لأن المشركين صدّوا رسول الله صلى الله عليه وآله عام الحديبية عن البيت الحرام، فكان مجيئه في العام التالي قضاءً عما فاتته من عمرة

١- صحيح البخارى ٤١٤٨؛ صحيح مسلم ١٢٥٣؛ وانظر النووى فى شرحه وصحيح الترغيب. من لا يحضره الفقيه ٢: ١٥٩.

ص: ١٩٢

الْحَدِيثُ. أوسميت بعمرة القضاء، لأنها وقعت حسب المقاضاة و صدور القضاء بين الطرفين وليس من القضاء الذي هو ضد الأداء؛ لأن العمرة التي سبقت وتحللوا منها على الحدود اعتبرت لهم عمرة واعتبرت لهم غزوة، والعمرة الثانية كانت مستقلة، وكانت - بناءً على اشتراط الطرفين - أن يأتي النبي صلى الله عليه وآله في العام المقبل، وأن تخلى لهم قريش مكة، فجاءوا ودخلوا المسجد الحرام. وسميت بعمرة الصلح للمصالحة التي وقعت في الحديبية.

وسميت بعمرة القضية أي: لما تقاضوا به في الصحيفة التي كتبت بين الطرفين، وسميت بعمرة القصاص، لأنهم صدوا رسول الله صلى الله عليه وآله في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست، فاقترض رسول الله صلى الله عليه وآله منهم فدخل مكة في ذي القعدة في الشهر الحرام الذي صدوه فيه من سنة سبع. وبلغنا - والقول لابن هشام في سيرته - عن ابن عباس أنه قال: فأُنزل الله في ذلك «وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» (١).

وفي المغازي عن ابن عباس: خرج رسول الله صلى الله عليه وآله في ذي القعدة سنة سبع بعد مقدمه بأربعة أشهر، وهو الشهر الذي صدّه المشركون، لقول الله عز وجل «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» يقول: كما صدوكم عن البيت فاعتمروا في قابل. وفي أسباب النزول للواحدى عن قتادة أنه قال: أقبل نبي الله صلى الله عليه وآله وأصحابه في ذي القعدة حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة فاعتمروا في ذي القعدة، وأقاموا بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فخرؤا عليه حين ردّوه يوم الحديبية فأقصه الله منهم، فأُنزل: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ..» الآية.

وفي مجمع البيان: «إنه الشهر الحرام على جهة العوض لما فات في السنة الأولى، ومعناه الشهر الحرام ذو القعدة الذي دخلتم فيه مكة واعتمرتم وقضيتم

ص: ١٩٣

منها وطركم فى سنة سبع بالشهر الحرام ذى القعدة الذى صدتم فيه عن البيت ومنعتم عن مرادكم فى سنة ست «وَالْحُرْمَاتُ قِصَاصٌ» قيل فيها قولان: أحدهما إن الحرمات قصاص بالمراغمة بدخول البيت فى الشهر الحرام قال مجاهد: لأن قريشاً فخرت بردها رسول الله صلى الله عليه وآله عام الحديبية محرماً فى ذى القعدة عن البلد الحرام، فأدخله الله مكة فى العام المقبل فى ذى القعدة ففضى عمرته وأقصه بما حيل بينه وبينه، وهو معنى قتادة والضحاك والربيع وعبد الرحمن بن زيد، وروى عن ابن عباس وأبى جعفر الباقر مثله..».

فهى عمرة القصاص كما جاء به التنزيل، وهى أولى بها لقوله تعالى: «الشَّهْرُ الْحَرَامُ..» (١).

إذن فهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقضية، والصُّلح، والقصاص.

وعدان مباركان!

إن عمرة القضاء كانت - ولا شك - تصديقاً إلهياً لوعدين، وهى أيضاً بشرى عظيمة بصدق هذين الوعدين ووقوعهما، تزفها السماء للمؤمنين بتحقيق آمالهم بدخولهم المسجد الحرام آمينين ملبين... ثم تحقق وعد الله وبشرى السماء الكبرى «هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً» وهو ما تحقق فعلاً؛ فقد ظهر لا فى المدينة ومكة ولا فى الجزيرة العربية وما حولها وقبل أن ينتهى نصف قرن حتى ظهر الإسلام فى امبراطوريتين كبيرتين تحيطان الجزيرة العربية، كل بلاد الفرس والقسم الأعظم من بلاد الروم، وفى الهند والصين وفى غير هذه البقاع...:

الوعد الأول: وعد ربانى، فقد وعد الله به رسوله الكريم صلى الله عليه وآله من دخول مكة المكرمة والطواف بالبيت الحرام..



ص: ١٩٤

الوعد الثاني: وعد نبوي، فقد وعد به النبي صلى الله عليه وآله صحابته من دخول مكة والطواف بالبيت الحرام.. بعد أن رأى صلى الله عليه وآله في منامه أنه قادم إلى البيت معتمراً، فأخبر أصحابه، فخرجوا معه وكان هذا سنة ٦ هجرية في ذي القعدة.. وما أن علم المشركون بمجيئهم حتى استكثروا على أنفسهم أن يدخل محمد صلى الله عليه وآله وأتباعه عليهم مكة عنوة وبدون إذن ولا- علم منهم، وعدوا ذلك تجاوزاً لهم ولهيتهم ومكانتهم عند العرب وعدم مبالاة بوجودهم وسيادتهم...، فخرجوا ليصدوا المسلمين عن البيت الحرام، فلما علم صلى الله عليه وآله أن المشركين قد خرجوا ليصدوهم من الطريق المعهود قال:

«من رجل يدلنا على الطريق بعيداً عن مواقعهم؟»

فقام رجل وقاد الركب إلى أن وصلوا إلى الحديبية من غير الطريق المعروف للمار إلى مكة، والحديبية تبعد عن مكة تسعة أميال، وهى اسم بئر قريبة من طريق جدة وبقر من البئر شجرة تمت تحتها بيعه الرضوان بعد أن صد رسول الله صلى الله عليه وآله عن العمرة وصالح كفار قريش وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وتقع الحديبية على مشارف حدود الحرم، فنزلوا بخيامهم فى الحل، وكانوا يصلون الصلوات فى الحرم؛ لأنه ليس بينهما فاصل كبير..

«فَتْحاً مُبِيناً» و «فَتْحاً قَرِيباً» (١).

وصلح الحديبية ينطبق عليه هذان الوصفان «مُبِيناً، قَرِيباً»

هذا ما ذهب إليه بعض المفسرين بل أكثرهم، فعن الفتح الأول- كما يذكر القرطبي فى تفسيره- نسب القول إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال عن صلح الحديبية:

«بل هو أعظم الفتوح قد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان وقد رأوا منكم ما كرهوا»

ويقول قتادة: الحديبية. وقال جابر: ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية،

ص: ١٩٥

وقال مجاهد: هو منحره بالحديبية وحلقه رأسه.. وكان فتح الحديبية آية عظيمة.  
والصلح من الفتح كما قاله الضحاك..

ويقول محمد عزة دروزة: «ولا ريب في أن هذا الصلح الذي سماه القرآن بالفتح العظيم يستحق هذا الوصف كل الاستحقاق، بل إنه ليصح أن يعدّ من الأحداث الحاسمة العظمى في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام وقوته وتوطده، أو بالأحرى من أعظمها، فقد اعترفت قريش بالنبى والإسلام وقوتها وكيانهما، واعتبرت النبى والمسلمين أنداداً لها، بل دفعتهم عنها بالتى هى أحسن، فى حين أنها غزت المدينة فى سنتين مرتين، وكانت الغزوة الأخيرة قبل سنة من هذه الزيارة وبحشد عظيم مؤلف منها ومن أحزابها لتستأصل شأفتهم، وبعثت هذه الغزوة فى نفوس المسلمين أشد الاضطراب والهلع لضعفهم وقتلهم إزاء الغزاة. ولهذا شأن عظيم فى نفوس العرب، الذين كانوا يرون فى قريش الإمام والقُدوة، والذين كانوا متأثرين بموقفهم الجحودى كل التأثر. وإذا لوحظ أن الأعراب كانوا يقدرّون أن النبى والمسلمين لن يعودوا سالمين من هذه الرحلة، وأن المنافقين كانوا يظنون أسوأ الظنون، بدت لنا ناحية من نواحي خطورة هذا الفتح ويُعد مدها.

وقد أثبتت الأحداث صدق إلهام النبى صلى الله عليه وآله فيما فعل، وأيده فيه القرآن، وأظهرت عظم الفوائد المادية والمعنوية والسياسية والحربية والدينية التى عادت على المسلمين منه. وإذا قووا فى عيون القبائل، وبادر المتخلفون من الأعراب إلى الاعتذار، وازداد صوت المنافقين فى المدينة خفوتاً وشأنهم ضآلة، وإذا صار العرب يفدون على النبى صلى الله عليه وآله من أنحاء قاصية، وإذا تمكن من خضد شوكة اليهود فى خيبر وغيرها من قراهم المتناثرة على طريق الشام، وإذا صار يستطيع أن يبعث بسراياه إلى أنحاء قاصية كنجد واليمن والبلقاء، وإذا استطاع بعد سنتين أن يغزو مكة ويفتحها، وكان فى ذلك النهاية الحاسمة، إذ جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً.

وأختصر ما يفصله سيد قطب عن صلح الحديبية حيث يعبر عنه بأنه:

ص: ١٩٦

الفيض الإلهي على رسوله صلى الله عليه وآله: فتح مبين، ومغفرة شاملة، ونعمة تامة، وهداية ثابتة، ونصر عزيز... يرى الرؤيا فيتحرك بوحياها، وتبرك الناقة، ويتصايح الناس: خلاصت (بركت) القصواء فيقول: «ما خلاصت. وما هو لها بخلق. ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة. لا تدعونى قريش اليوم إلى خطبة يسألونى فيها صلته الرحم إلا أعطيتهم إياه»..

ويسأله عمر بن الخطاب فى حمية: فلم تعطى الدنيا فى ديننا؟ فيجيبه: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى»... ويعبر عنه أيضاً أنه: كان فتحاً فى الدعوة.. وكان فتحاً فى الأرض... وكان فتحاً فى الموقف بين المسلمين فى المدينة وقريش فى مكة وسائر المشركين حولها.

يقول الزهرى: فما فتح فى الإسلام فتح قبله كان أعظم منه. إنما كان القتال حيث التقى الناس. فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا، فتفاوضوا فى الحديث والمنازعة، ولم يكلم أحد فى الإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه. ولقد دخل فى تينك السنين (بين صلح الحديبية وفتح مكة) مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ويقدم ابن هشام الدليل حيث يقول: والدليل على قول الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمئة فى قول جابر بن عبد الله. ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين فى عشرة آلاف..

وأما عن «فتحاً قريباً» يقول القرطبي فى تفسيره:... قال مجاهد: هو صلح الحديبية، وقاله أكثر المفسرين. ثم يذكر قول الزهرى: ما فتح الله فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية...

يقول السيد صاحب الميزان عن هذين الفتحين: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا»: كلام واقع موقع الامتنان، وتأكيده الجملة ونسبة الفتح إلى نون العظمة وتوصيفه بالمبين كل ذلك للاعتناء بشأن الفتح الذى

ص: ١٩٧

يتمنّ به.

ثم يواصل كلامه مرجحاً الرأى القائل: إنه صلح الحديبية حيث يقول: والمراد بهذا الفتح على ما تؤيده قرائن الكلام هو ما رزق الله نبيه صلى الله عليه وآله من الفتح فى صلح الحديبية...

وإن كان هذا واحداً من الأقوال فى المراد من الفتح الوارد فى الآية: فبعض ذهب إلى أن المراد به فتح مكة، وبعض ذهب إلى أنه فتح خيبر، وقيل: الفتح المعنوى.

ولكن السيد لا يرجح هذه الأقوال؛ لأن سياق الآيات والقرائن لا تساعد ها..

«ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب فى هذه الآية (٢٧ الفتح) فتح الحديبية؛ فهو الذى سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين ويسّر لهم ذلك ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول إلا بالقتال وسفك الدماء ولا عمرة مع ذلك، لكن صلح الحديبية وما اشترط من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين فى العام القابل. ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القريب فى الآية فتح خيبر بعيد عن السياق، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد» (١).

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى فيها سورة الفتح، وتم فيها الصلح والاتفاق بين المسلمين والمشركين، وكانت بنود هذا الصلح هى أهم معالمها، وما عمرة القضاء إلا النتيجة الأهم أو الحدث الأهم الذى أعقب ذلك الصلح وهى نتيجة لبند من بنوده. وفى السنة السابعة للهجرة النبوية الشريفة وفى شهر ذى القعدة الحرام وبعد انتظارٍ دام قرابة سبع سنوات، وبعد أن أبرم رسول الله صلى الله عليه وآله صلح الحديبية مع قريش فى أواخر سنة ست للهجرة، على مشهد من الصحابة، على يقين من بعضهم

١- انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، و تفسير الميزان: الآية من سورة الفتح. والكلام مفصل وطويل؛ وسيرة الرسول ٢: ٢٩٢-٢٩٣. محمد عزة دروزة. فى ظلال القرآن لسيد قطب؛ والسيرة النبوية لابن هشام.

ص: ١٩٨

واستغراب من بعضهم، وتشكيك من آخرين، لما تضمنته بنود ذلك الصلح من فقرات بدت للوهلة الأولى أنها ليست في صالح المسلمين أو كما تصور عدد منهم، كانت عمرة القضاء وتحقق الوعد وصدقت الرؤيا..

لقد راحت- إضافة إلى بشائر القرآن الكريم- أقوال متعددة لرسول الله صلى الله عليه وآله يبشر فيها أن عاقبة هذا الصلح إلى خير ونصر أكيدين.. وهو ما حدث بالفعل.. و كما نجد ذلك في قوله صلى الله عليه وآله لعمر بن الخطاب الذي بدا أكثرهم استغراباً و تشكيكاً واعتراضاً، وقوله صلى الله عليه وآله إلى أبي جندل ولغيرهما.. خصوصاً بعد أن دخل على من حوله ممن معه من الصلح وبنوده أمر عظيم حتى كادوا يهلكون.. وسرى أقواله صلى الله عليه وآله طى بحثنا هذا.

وحتى نرى هذا وغيره لا بد لنا- إذن- من العودة قليلاً إلى بنود هذا الصلح، وطريقته دون التعرض إلى مقدماته كما ذكرها غير واحد من المؤرخين، وخصوصاً الواقدي في مغازيه خوف الإطالة، لأن فتح مكة- وهو نصر كبير وقبلة عمرة القضاء وحتى بيعه الرضوان ثم فتح خيبر وهما الأقرب زمناً من صلح الحديبية- كلها من نتائج ذلك الصلح الذي سمته السماء فتحاً مبيناً، وفتحاً قريباً، وما كان في

ص: ١٩٩

الإسلام فتح أعظم مما وقع في الحديبية بما تمخض عنه من نتائج عادت بالخير على الإسلام والمسلمين كما نرى ذلك آتياً فيما عدده رسول الله صلى الله عليه وآله في رده على المشككين..

يقول الخبر:.. ثم بعث قريش سهيل بن عمرو، أخا بنى عامر بن لؤى، إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا له: ائت محمداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً.

فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله مقبلاً، قال:

«قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله صلى الله عليه وآله تكلم فأطال الكلام وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح.

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب:

أن كاتب رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الصلح كان علي بن أبي طالب، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله:

اكتب «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو» فجعل يتلأ ويأبى أن يكتب إلا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: فإن لك مثلها تعطيها وأنت مضطهد، فكتب ما قالوا (١).

وفي قول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله محاه بنفسه، وهو يقول: «اللهم إنك تعلم أنى رسول الله»

لقد حدث هذا حين دعا رسول الله صلى الله عليه وآله علي بن أبي طالب عليه السلام فقال:

اكتب بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: لا أعرف هذا، ولكن اكتب باسمك اللهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اكتب باسمك اللهم. فكتبها.

ثم قال: «اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو»

١- انظر: الميزان في تفسير القرآن، سورة الفتح.

ص: ٢٠٠

فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلاحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبه مكفوفة، وأنه لا إسلال ولا إغلال، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

وأنتك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الراكب السيوف في القرب لا تدخلها غيرها.

فتواثبت خزاعه فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا:

نحن في عقد قريش وعهدهم..

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله من الكتاب أشهد على الصلح رجالاً من المسلمين ورجالاً من المشركين...

وفي رواية أخرى لا تختلف كثيراً عن السابقة، أفاد الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد في فصل خصّه بصلح الحديبية فقال:...

نزل عليه الوحي بالإجابة إلى ذلك، وأن يجعل أمير المؤمنين عليه السلام كاتبه يومئذ والمتولى لعقد الصلح بخطه.

فقال لعلى عليه السلام: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال سهيل: ما أدري ما الرحمن.. إلّا أنّي أظنه هذا الذي باليمامة، ولكن أكتب كما نكتب: باسمك اللهم فكتب: باسمك اللهم.

فقال: واكتب: هذا ما قاضى عليه رسول الله سهيل بن عمرو.

فقال سهيل: فعلام نقاتلك يا محمد؟!!

ص: ٢٠١

فقال صلى الله عليه وآله: أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله.

فقال الناس: أنت رسول الله.

فقال سهيل بن عمرو: لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك. اكتب: هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبد الله، أتأنف من نسبك يا محمد؟!

فقال رسول الله: أنا رسول الله وإن لم تُقرّوا. ثم قال: امحُ يا على واكتب: محمد بن عبد الله.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أمحو اسمك من النبوة أبداً! فمحا رسول الله بيده. ثم كتب على عليه السلام:

«هذا ما اصطاح عليه محمد بن عبد الله والملا من قريش وسهيل بن عمرو، اصطاحوا على:

وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكفّ بعض عن بعض، وعلى أنه لا إسلال ولا إغلal، وأن بيننا وبينهم غيبة مكفوفة. وأنه من

أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل، وأن من أحب أن يدخل في عهد قريش وعقدها، فعل.

وأنه من أتى من قريش إلى أصحاب محمد بغير إذن وليه يرذوه إليه، وأنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يرذوه إليه.

وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكة، لا يكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يُعير.

وأن محمداً يرجع عنهم عامه هذا، وأصحابه، ثم يدخل في العام القابل مكة، فيقيم فيها ثلاثة أيام. ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح

المسافر: السيف في القراب.

وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار، وكتب على بن أبي طالب.

وقال عبد الله بن أبي نجيح: حدثني مجاهد، عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وآله «أهدى عام الحديبية في هداياه جملاً

لأبي جهل في رأسه بره من فضة يغيط بذلك المشركين».

هذه هي شروط الصلح التي ذكرت في المصادر التاريخية... ثم انصرف



ص: ٢٠٢

رسول الله صلى الله عليه وآله من وجهه ذلك قافلاً، حتى إذا كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا\* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا...». مواقف بعض الصحابة:

لقد خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة قاصدين مكة، وهم لا يشكون في وصولهم وتحقيق هدفهم، أداء العمرة وزيارة البيت الحرام للرؤيا التي رأى رسول الله صلى الله عليه وآله، لقد رأى في النوم- ورؤيا الأنبياء صادقة- أنه دخل البيت، وحلق رأسه، وأخذ مفتاح الكعبة...

ولما بلغ المشركين خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكة راعهم ذلك، واجتمعوا له وشاوروا فيه ذوى رأيهم فقالوا: يريد أن يدخل علينا في جنوده معتمراً فتسمع به العرب وقد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا! والله، لا كان هذا أبداً ومنا عين تطرف، فارتأوا رأيكم... فانتهى الأمر إلى أن يتفاوضوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وكان الصلح وفقراته..

وإذا بالصحابة وقد انقسموا في مواقفهم بين مؤيد لما يقوم به رسول الله صلى الله عليه وآله ومسلم له، وبين مغتم ومغتاظ ومشكك بل ومعترض على رسول الله صلى الله عليه وآله، وبين من انتابته الهواجس والأوهام وظل حبيساً لها: لقد سمعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يحدثنا عن رؤياه أنه يدخل مكة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة! وقد سررنا جميعاً بها!

إن تعبير الرؤيا سيتحقق وها نحن نجهز أنفسنا ونسوق هدينا بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله!

لقد صددنا عن مكة! إذن سندخلها عنوة لأن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله لا تتخلف.

ماذا جرى؟ هو رسول الله صلى الله عليه وآله يتفاوض معهم؟

ص: ٢٠٣

ألم يكن البناء أن تؤدي العمرة هذا العام؟

يبدو أننا لا ندخل مكة!

ولا نعتمر!

انظر هاهو الصلح يكاد يتم بينهم!

تري هل من الممكن أن تكون رؤيا رسول الله غير صادقة؟

فأين هذا الوعد؟

وأين صارت رؤياه؟!

ألم نسمع؟

بلى سمعنا!

إنه رسول الله وهو أعلم بما يفعل، إنه مسدّد من السماء!

وما علينا إلا الاتباع لما يريد والتسليم بما يراه! وهذا هو الإيمان..

وتوالت هذه الهواجس وراحت تقلقهم وتقضّ عليهم مضاجعهم وتسلب الراحة من نفوسهم...

وهم يسمعون أجوبة رسول الله وأقواله:

هل قلت لكم: إن هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟!

لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألونني فيها صلّة الرحم إلا أعطيتهم إياها..

والذي نفسى بيده لا يسألوني خطّة يعظمون فيها حرّمة الله تعالى إلا أعطيتهم إياها..

إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى..

أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني..

يقول الخبر:

فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، أى الصلح، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر فقال:

ص: ٢٠٤

يا أبا بكر، أليس برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟

قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه فإنني أشهد أنه رسول الله.

قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله أأنت برسول الله؟

قال: بلى.

قال: أو لسنا بالمسلمين؟

قال: بلى.

قال: أو ليسوا بالمشركين؟

قال: بلى.

قال: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟

قال: «أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني».

فكان عمر يقول ما زلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً.

وكان له كلام آخر، وهو مما جرى في أثناء هذا الصلح أن عمر بن الخطاب سأل رسول الله صلى الله عليه وآله فقال:

أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟

فأجابه: بلى، فأخبرتكم أنك تأتبه عامك هذا؟

قال: لا.

ص: ٢٠٥

قال: فإنك آتية ومطوف به.

وكلام ثالث لعمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ فأتيت النبي صلى الله عليه وآله فقلت: أأنت نبي الله؟ فقال: بلى.

قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟

قال: بلى.

قلت: فلم نعطي الدينية في ديننا إذن؟

قال: إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري.

قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف حقاً؟

قال: بلى، فأخبرتك أن تأتيه العام؟

قلت: لا.

قال: فإنك تأتيه وتطوف به.

فبينما رسول صلى الله عليه وآله يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد قد انفلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله خرجوا وهم لا يشككون في الفتح لرؤيا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما رأوا ما رأوا من الصلح والرجوع وما تحمل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله في نفسه دخل على الناس من ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون، فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب وجهه وأخذ بتليبيه، ثم قال: يا محمد! قد لجت (تمت) القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا؛ قال: صدقت فجعل ينتره بتليبيه ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين! أردد إلى المشركين يفتنونى في ديني؟ فزاد ذلك الناس إلى ما بهم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا

ص: ٢٠٦

عهد الله وإنا لا نعذر بهم».

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله مضطرباً في الحلّ وكان يصلى في الحرم، فلما فرغ من الصلح قدم إلى هديه فنحره، ثم جلس فحلق رأسه، وكان الذي حلقه فيما بلغني، في ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي؛ فلما رأى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد نحر وحلق توثبوا ينحرون ويحلقون.

وفي رواية الزهري: فلما فرغ من قضية الكتاب قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: قوموا فانحروا ثم احلقوا.

قال: فوالله ما قام منهم رجل، حتى قال صلى الله عليه وآله ذلك ثلاث مرات.

فلما لم يبق منهم أحد، دخل صلى الله عليه وآله على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس.

قالت (أم سلمة) رضي الله عنها: يا نبي الله! أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بيده، ودعا حالقه فحلقه

فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً.

وفي رواية: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه - بعد ما كتب الكتاب -: انحروا بدنكم واحلقوا رؤوسكم فامتنعوا، وقالوا:

كيف ننحر ونحلق ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة؟! فاعتم رسول الله صلى الله عليه وآله وشكا ذلك إلى أم سلمة

فقلت: يا رسول الله انحروا أنت واحلق. فنحر رسول الله وحلق، فنحر القوم على حيث يقين وشك وارتياب (١).

وعن مجاهد، عن ابن عباس، قال: «حلق رجال يوم الحديبية، وقصر آخرون.

١- راجع: الميزان للطباطبائي، فقد ذكر المصادر هناك.

ص: ٢٠٧

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: يرحم الله المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

قال: يرحم الله المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

قال: يرحم الله المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟

قال: والمقصرين.

فقالوا: يا رسول الله فلم ظهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين؟

قال: لم يشكوا.

وهنا موقف آخر لبعض المسلمين يضاف إلى موقف عمر بن الخطاب، موقف ينطوى على عدم قبول بما أجراه رسول الله صلى الله عليه وآله وأن ما وقع لم يحقق لهم ما جاؤوا من أجله فلا خير فيه لهم وما حصل ليس فتحاً..

«وفي الدر المنثور: أخرج البيهقي عن عروة قال: أقبل رسول الله صلى الله عليه وآله من الحديبية راجعاً، فقال رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله:

والله ما هذا بفتح لقد صددنا عن البيت وصد هدينا وعكف رسول الله صلى الله عليه وآله بالحديبية وردّ رجلين من المسلمين خرجا. فبلغ رسول الله صلى الله عليه وآله قول رجال من أصحابه: أن هذا ليس بفتح.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: بئس الكلام. هذا أعظم الفتح، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم فى الإياب، وقد كرهوا منكم ما كرهوا، وقد أظفركم الله عليهم وردكم سالمين غانمين مأجورين، فهذا أعظم الفتح.

«ثم أقبل على عمر (١) فقال:

ص: ٢٠٨

أنسيتم يوم أحد «إِذْ تَضِعُ دُونَكُمْ وَلَا تَلُؤُونَ عَلَيَّ أَحَدٍ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ؟»  
 أنسيتم يوم الأحزاب «إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا؟» أنسيتم  
 يوم كذا، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يذكرهم أموراً.

قال المسلمون: صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح، والله يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره أو بالأمر منا.  
 فأنزل الله سورة الفتح.

فنزلت الآية الآنفه في هذا الصدق والنبي صلى الله عليه وآله عائد من الحديبية إلى المدينة، وأكدت أن هذه الرؤيا كانت صادقة ولا بد  
 أنها كائنه...

تقول الآية: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ» فما رآه النبي في المنام كان حقاً وصدقاً.  
 ثم تضيف الآية قائلة: «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا»، وكان في  
 هذا التأخير حكمة:

«فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله عام القضية وحلق رأسه قال: هذا الذي وعدتكم.

فلما كان يوم الفتح أخذ المفتاح فقال: ادعوا لى عمر بن الخطاب! فقال: هذا الذى قلت لكم. فلما كان فى حجة الوداع بعرفة فقال: اى  
 عمر، هذا الذى قلت لكم! قال: اى رسول الله، ما كان فتح فى الإسلام أعظم من صلح الحديبية، وقالها أبو بكر.. ولكن الناس  
 يعجلون- والكلام ما زال لأبى سعيد الخدرى كما فى مغازى الواقدي- والله تبارك وتعالى لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما  
 أراد الله... (١)

١- انظر: فى ظلال القرآن وكتاب المغازى، وما أخرجه البيهقى عن عروة فى الدر المنثور، والميزان فى تفسير القرآن، فى السورة  
 والآية، والأحاديث فى قصة الحديبية كثيرة...

ص: ٢٠٩

وكانت العمرة

وفعلًا كانت عمرة القضاء، ووقعت طبقاً لإحدى مواد معاهدة الحديبية، وهو البند القائل:

«وإنك ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثاً، معك سلاح الركب، السيوف في القرب، لا تدخلها غيرها».

إذن أن يرجع المسلمون من مكانهم دون أن يدخلوا مكة، ولهم أن يأتوا في العام المقبل معتمرين، وتخلي لهم قريش مكة لمدة ثلاثة أيام ليعتَمروا فيها ولا يزعجهم أحد، ثم بعد ذلك يخرجون ويرجعون من حيث أتوا. هذا من شروط الصلح المهمة.

وأصبح من المقرر أن يؤدي المسلمون العمرة وزيارة بيت الله في العام المقبل على أن لا يمكثوا في مكة أكثر من ثلاثة أيام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون من مكة ورؤساء قريش أيضاً، لئلا يقع نزاع محتمل بين الطرفين، ولئلا يروا المسلمين



ص: ٢١٠

يؤدّون المناسك فيثيرهم منظر عبادتهم للواحد الأحد بعيداً عن آلهتهم المتعددة، التي بلغت - كما في بعض الأخبار - ٣٦٠ صنماً ووثناً في ساحة المسجد الحرام وفي المسعى وعلى الصفا والمروة وهنا وهناك من المسجد الحرام..

ما إن انتهى عام على بنود الصلح، إنه عام واحد، عام لا غير من صلح الحديبية، حتى أصبح للمسلمين الحق في دخول مكة للعمرة حسب اتفاقهم مع قريش في العام السابق، فأمر رسول الله المسلمين أن يستعدوا لزيارة الكعبة، فالمهاجرون كانوا يتمنون هذا اليوم بعد سبع سنوات بعيدين فيها عن مكة، أما الأنصار فكانوا يتمنون أيضاً زيارة الكعبة كما كانت لهم تجارة مع قريش وأموال لعلهم ينتفعون بها من تلك التجارة..

وذلك أنه لما أهلّ هلال ذي القعدة يعنى في سنة سبع من الهجرة النبوية المباركة، أمر صلى الله عليه وآله أصحابه أن يعتمروا وفقاً للبند المكتوب في الصلح، وأن لا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف عنهم أحد منهم إلا رجالاً استشهدوا بخير ورجال ماتوا..

فخرج صلى الله عليه وآله بعد أن استعمل على المدينة أباذر الغفارى، وقال ابن هشام:

واستعمل على المدينة عوف بن الأصبط الديلى، وعند الواقدي: إن الذى استعمل على المدينة أبو رهم.. وأما الحاكم فيذهب إلى أن رسول الله صلى الله عليه وآله استخلف على المدينة عوف بن الأصبط الديلى، أو أبا رهم الغفارى (١).

وخرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله قوم من المسلمين للعمرة، فكان مجموع من خرج في عمرة القضاء ألفين من المسلمين، فقال رجال من حاضر المدينة من العرب:

والله يا رسول الله، ما لنا من زاد وما لنا من يطعمنا. فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله المسلمين أن ينفقوا في سبيل الله، وأن يتصدقوا، وألا يكفوا أيديهم فيهلكوا. قالوا:  
يا رسول الله! بم نتصدق وأحدنا لا يجد شيئاً؟

١- انظر: السيرة النبوية لابن هشام والهامش ٤: ١٢، والمستدرک للحاكم..

ص: ٢١١

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: بما كان، ولو بشق تمره، ولو بمشقص (فصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض) يحمل به أحدكم في سبيل الله. فأنزل الله عز وجل في ذلك:

«أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ» (١)

نزلت هذه الآية في ترك النفقة في سبيل الله تعالى.

وساق صلى الله عليه وآله ستين بدنة، وقد قلمدها، وأحرم من مسجد المدينة، وأحرم معه المسلمون، ولبي ولبي مع المسلمون، واتجهوا بتلبيتهم نحو مكة، وذلك بعد أن جعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمي.

وحيث إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يأمن مباغته قريش وغدرهم به وبأصحابه في أرض مكة، أمر مائتي رجل من المسلمين بأن يحملوا معه السلاح والدروع والرماح، وحملهم على مائة فرس، وأمر عليهم محمد بن مسلمة وأمرهم أن يتقدموه إلى منطقة (مر الظهران) قريباً من الحرم وينتظروا قدومه هناك.

فلما علمت قريش بذلك أرسلوا من يقول لرسول الله صلى الله عليه وآله بأن من شروطهم عليه: أن لا يدخل مكة إلا بسلاح المسافر. فأجابه صلى الله عليه وآله: «نعم لا ندخلها إلا كذلك، ولكن يكون هؤلاء قرييين منا» وبذلك سد صلى الله عليه وآله طريق الغدر على قريش.

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه بسلاح المسافر وهم يلبنون. وفعلاً ما إن علمت قريش بقدم الرسول والصحابة والمهاجرين والأنصار إلى مكة حتى أسرع بالخروج من مكة إلى رؤوس الجبال وأخلوا لهم مكة، وقيل: إنه كان ذلك لئلا يروه، عداوةً لله ولرسوله واحتاطت لنفسها وعسكرت أيضاً فوق التلال المحيطة بمكة وتجمع رجالهم ونساؤهم وصبيانهم في مكة وتزاحموا؛ ليروا هذا النبي القائد يحيط به المهاجرون والأنصار، وأثار هذا التجمع الحسد والبغض والغیظ لدى بعض أئمة الكفر، فخرج عدد منهم إلى الجبال حتى لا يروا هذا الموقف العظيم،

ص: ٢١٢

وتناقل بعض المغرضين أخباراً كاذبة عن أحوال المسلمين، وزعموا أن حُمى يثرب وهنتهم وغيرها من الشائعات المغرضة التي بثوها هنا وهناك؛ ليوهنوا أمر المسلمين ويصوروهم على أضعف حال وانهم لم يجنوا من أتباعهم لمحمد إلا الضعف والهوان والفقر.. وراحت قريش تتحدث فيما بينها أن محمداً صلى الله عليه وآله وأصحابه في عسرة وجهيد وشدة، حتى إذا دخل مكة صفً له المشركون عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه وأحوالهم، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى، ثم قال:

«رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة».

ثم استلم الركن والحجر الأسود، وخرج يهرول هو ويهرول معه أصحابه.

وطاف بهم الرسول صلى الله عليه وآله في عزّ وقوة حول الكعبة، حتى إذا وراه البيت من المشركين المحدقين به واستلم الركن اليماني مشى حتى الحجر الأسود.

حتى قال أهل مكة من الكفار- كما ذكرنا ذلك- وهم ينظرون في دهشة إلى المسلمين وقوتهم: هؤلاء هم الذين قلت: إن حُمى المدينة أضعفتهم؟!

فوسوس لهم الشيطان!!

في مؤامرة خطط لها المشركون بعد أن أوحى لهم الشيطان كيده حيث تجمع كفار قريش على قعيقعان وهو: الذي يطل على الكعبة من جهة الحجر، وقبل أن يبدأ المسلمون بالطواف، جاء الشيطان إلى هؤلاء الكفرة المردة وقال لهم:

أين أنتم؟ ها هم المسلمون قد جاءوا، وقد أنهكتهم حمى يثرب، وأضناهم طول السفر، فلو ملتم عليهم ميلاً رجل واحد لقضيتم عليهم. وتم هذا التآمر بين الشيطان وبين أعوانه وأتباعه الغدرة للقضاء على المسلمين في ذلك الوقت وفي ذلك المكان.. وهؤلاء الكفار لو تسلطوا عليهم بالنبل من فوق الجبال بل حتى ولو بالحجارة لقضوا عليهم للأسباب التالية:

ص: ٢١٣

- لأن موقع الكعبة والمسجد الحرام منخفض بل في أخفض مكان في مكة، ترتفع الجبال من حوله، وتأتيه السيول من كل جانب، فلو أن المشركين نفذوا مخططهم لقضوا عليهم..

- ولأن المسلمين عزّل، فقد اشترط عليهم أهل مكة أن لا يأتوا بسلاح إلا سلاح المسافر، السيوف في القرب.. ثم ليس هناك موالٍ قريب ليمدّ المسلمين بالمدد، والرسول صلى الله عليه وآله كان قد جاء بالسلاح معه، وتركه في العيس، وترك حراساً عليه، ولكن لو انقضوا عليهم فلن يجد المسلمون وقتاً ليأتوا بالسلاح!

- وهنا أمر مهم، وهو ما كان يعتقد المشركون فيزيده في معنوياتهم: أن المسلمين ضعاف وأنهم أصابهم الهزال والضعف من آثار حمى يثرب، وهذا كان أمراً معروفاً في الجاهلية، فقد كانوا يعتقدون في الجاهلية أن من دخل المدينة تصيبه الحمى، فإذا أراد أن يسلم من الحمى فعليه أن يقف عند بابها وينهق ثلاث مرات، فإذا ما نهق ثلاث مرات في اعتقادهم فإنها تشرده عنه الحمى، إذن الحمى كانت مشهورة عندهم، ويقول العلماء المتأخرون: هذا أمر طبيعي؛ لأن المدينة كانت مليئة بمياه السيول، وكانت العيون تفيض على وجه الأرض، فينتج عن ذلك غدران ومستنقعات الماء، ومستنقعات الماء في العالم إنما هي حواضن للبعوض، والبعوض هو الذي يسبب الحمى وينقلها. إذاً كانت المدينة موطناً طبيعياً للحمى.

أروهم اليوم من أنفسكم قوة

فكان الحلّ من رسول الله صلى الله عليه وآله أنه أخبر المسلمين بتأمر المشركين مع الشيطان.. بعد أن جاءه جبريل عليه السلام وأخبره أن المشركين قد تأمروا بكذا وكذا..

وانطلاقاً مما يتمتع به صلى الله عليه وآله من فكر ثاقب، ونور النبوة، قال لأصحابه:

إن المشركين تأمروا عليكم بكذا وكذا بسبب كذا، فأروهم من أنفسكم اليوم قوة، يعنى: اقبلوا عليهم ظنهم، كما يقال: اعكسوا عليهم الفكرة، فهم يقولون: إنكم ضعاف بسبب الحمى، وإنكم منهكون بسبب طول السفر من المدينة إلى مكة، فإذا رأوكم كذلك فإنهم سيطمعون فيكم ويتحقق فيكم القول، ولكن اعكسوا عليهم

ص: ٢١٤

الفكرة، وبماذا تعكس؟ قال: «أروهم اليوم من أنفسكم قوة».

وليس المراد الدخول معهم بمعركة عند البيت، وإنما المراد أروهم القوة وأنتم تؤدون عمرتكم..

الاضطباع والرمل

فأمرهم بالاضطباع، وهو: جعل وسط الرداء تحت الإبط الأيمن، وطرفيه على الكتف الأيسر، يعنى: شمروا، وهذه هى هيئة الإنسان الذى يريد أن يعمل، وأمرهم بالرمل، أى بالهرولة من بداية الطواف التى تكون من عند الحجر الأسود، فكانوا يرملون من عنده ويطوفون بالبيت من وراء حجر إسماعيل إلى أن يأتوا إلى الركن اليمانى، يعنى: ثلاثة أركان من أركان الكعبة يقطعونها هرولة، وإذا وصلوا إلى الركن اليمانى ودخلوا فى ظل الكعبة وسترتهم الكعبة عن أعين أهل مكة الذين ينظرون إليهم من المقابل، فيمشون على مهل ليكون ذلك أرفق بهم ليستأنفوا الشوط الثانى بنشاط، ولو كانت الهرولة فى الأشواط الثلاثة كاملة فقد يظهر عليهم الضعف فى الآخر، ولو كانت الهرولة فى الأشواط السبعة لكان ذلك شاقاً عليهم، ولكن حينما تبدأ طائفة بالهرولة ثم تتبعها طائفة أخرى فى الهرولة تكون الطائفة الأولى قد أنهت الشوط الأول، والطائفة الثالثة تبدأ، وإذا جاءت الطائفة الرابعة تكون الثانية قد انتهت، وهكذا تستمر الهرولة طيلة مدة الطواف، وإن كان الكل لم يهرول السبعة أشواط.

وكذلك أمرهم أن يمشوا ما بين الركن اليمانى والحجر الأسود إرفاقاً بهم من أن يواصلوا الشوط كاملاً، وهكذا الشوط الثانى والثالث حتى لا يظهر عليهم الإعياء. وهذا الأمر بالرمل التحقيق أنه كان فى عمرة القضية، وكان من أجل إظهار القوة، وإجباط فكرة المشركين.

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وآله يلبى حتى استلم الركن بمحجنه، وكان دخوله مكة من الشبية التى تطلعه على الحجون، والمسلمون يطوفون معه قد اضطبعوا بثيابهم،

ص: ٢١٥

وعبدالله بن رواحة أخذ بزمام راحلته وهو يقول:  
 خلوا بنى الكفار عن سبيله إني شهدت أنه رسوله  
 حقاً وكل الخير في سبيله (نحن قتلناكم على تأويله  
 كما ضربناكم على تنزيله ضرباً يزيل الهام عن مقيله  
 ويذهل الخليل عن خليله)

هذان نسبا خطأ لابن رواحة، لأنهما لعمار بن ياسر قالهما في صفين، والمشركون في مكة بعد لم يقرأوا بالتنزيل حتى يقتلوا على  
 التأويل:

قد أنزل الرحمن في تنزيله بأن خير القتل في سبيله  
 يا رب إني مؤمن بقبيله إني رأيت الحق في قبوله  
 ثم طاف رسول الله صلى الله عليه وآله بالبيت الحرام على راحلته، وطاف المسلمون معه، وأمر عبدالله بن رواحة أن يردّد هذا الدعاء  
 والمسلمون يردّدونه معه ويقولون:  
 «لا إله إلا الله وحده وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده».

وكانت الكعبة على موعد مع الأذان  
 فما أن قضى رسول الله صلى الله عليه وآله نسكه حتى دخل البيت الحرام وما أن حان وقت الظهر، حتى أمر بلالاً ليرتقى ظهر الكعبة  
 مؤذناً.. وأقام صلى الله عليه وآله الصلاة بأصحابه على مسمع ومرئ من المشركين وزعمائهم الذين هالهم هذا الموقف وأربكهم في  
 عقر دارهم... إنه حقاً لأعظم موقف وفتح في الإسلام...

وما أن سمع كرمه بن أبي جهل بلالاً يصدح صوته بفصول الأذان حتى قال:  
 لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول! فيما قال صفوان بن أمية: الحمد لله الذي أذهب أبي قبل أن يرى هذا!  
 وقال خالد بن أسيد: الحمد لله الذي أمات أبي ولم يشهد هذا اليوم. حين يقوم

ص: ٢١٦

بلال بن أم بلال ينهق فوق الكعبة! وأما سهيل بن عمرو ورجال معه فحين سمعوا ذلك غطوا وجوههم. حقاً بان غيظهم وبدت أضغانهم واستغشوا ثيابهم وازدادوا غماً....

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أراد السعي بين الصفا والمروة ورأى قريشاً قد اصطفوا له لينظروا إليه وإلى أصحابه قال لأصحابه:

رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوّة، ثم أخذ يهرول في سعيه في المكان المعلوم الآن في المسعى، وأخذ المسلمون يهرولون معه فيه؛ ليرى المشركون جلدتهم وقوتهم.

فسعى رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه سبغاً، حتى إذا فرغ من السعي أتم نسكه ثم خرج من إحرامه، وكذلك فعل المسلمون. وبعد ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله مائتين من أصحابه الذين قضوا مناسكهم أن يذهبوا إلى أصحابهم بمزّ الظهران، فيقيموا على السلاح حتى يأتي الآخرون فيقضون نسكهم، ففعلوا.

ولم يسمح المشركون لرسول الله صلى الله عليه وآله بدخول الكعبة، وقد أرسل صلى الله عليه وآله إليهم فأبوا وقالوا: لم يكن من شرطك.

الرحيل من مكة

ولما مضى على دخوله صلى الله عليه وآله مكة ثلاثة أيام - وهي المدة التي تمّ الاتفاق عليها مع قريش - قضى فيها المسلمون عمرتهم، وزار فيها المهاجرون ديارهم وذويهم في مكة.. فلما انقضت المدة المتفق عليها بين الطرفين في صلح الحديبية، أتت قريش علياً عليه السلام فقالوا له: قل لصاحبك أخرج عنّا فقد مضى الأجل.

وفي رواية: فلما كان عند الظهر من اليوم الرابع أتاه سهيل بن عمرو، وفي قول:

حويط بن عبد العزى ونفر آخرون معه وقالوا: إنه قد انقضى أجلك فاخرج عنّا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم

ص: ٢١٧

طعاماً فحضرتموه؟

قالوا: لا حاجة لنا في طعامك، اخرج عنا! نشدك الله يا محمد والعهد الذي بيننا وبينك إلا خرجت من أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت.

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لم ينزل بيتاً، وضربت له قبة من الأدم بالأبطح فكان هناك حتى خرج منها. لم يدخل تحت سقف بيت من بيوتها..

فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظة كلامهم للنبي صلى الله عليه وآله فقال لسهيل: كذبت لا أم لك، ليست بأرضك ولا أرض أبيك! والله لا يبرح منها إلا طائعاً راضياً.

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ثم قال: يا سعد، لا تؤذ قوماً زارونا في رحالنا...

فأمر أبا رافع ينادى بالرحيل، وقال:

لا يمسينَ بها أحد من المسلمين.

فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وخلف أبا رافع مولاه على ميمونة، حتى أتاه بها بسرف، وهى على بُعد عشرة أميال من مكة، فبنى بها رسول الله صلى الله عليه وآله هنالك، ثم أدلج رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قدم المدينة فى ذى الحجة.

والسيدة ميمونة شقيقة زوجة عمه العباس.. وأمر الزواج هذا وقع بعد أن عزم رسول الله صلى الله عليه وآله على ترك مكة والعودة إلى المدينة فأقبل إليه عمه العباس فى رسالته من شقيقة زوجته ميمونة بنت الحارث اخت ام الفضل زوجة العباس، وكانت أرملته من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين، حيث قد أعجبها ما شاهدته من رسول الله صلى الله عليه وآله، فأرسلت إليه عبر العباس تعرض عليه رغبتها فى الزواج منه، فوافق رسول الله صلى الله عليه وآله على ذلك، فلعله يقوى عبر زواجه هذا أوأصره بقريش ويستميل قلوبهم إليه، ويخفف من غلوائهم وبغضائهم.. ولو كان تم ذلك لكان له أثره فى نفوذ أمر النبي فى قلوبهم غير أنهم لم يقبلوا ذلك منه.

وقد خلف أبا رافع ليحمل إليه ميمونة حين يمسى، وأقام بسرف، وتام الناس، وحتى قدمت ميمونة ومن معها، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم، حيث لاموا ميمونة على رغبتها فى الزواج من رسول الله صلى الله عليه وآله وأرادوا



ص: ٢١٨

منها أن تنصرف عن ذلك، لكنها أبت عن إجابتهم وأصرت على إرادتها، وكانت على ما قيل: هي آخر من تزوجه رسول الله صلى الله عليه وآله وآخر من مات من أزواجه.

وبينما الرسول صلى الله عليه وآله وحوله أصحابه عائدون، إذا بفتاة تخرج من مكة، تجرى خلفهم وتنادى رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله قائلة: يا عم. يا عم.

إنها ابنة حمزة سيد الشهداء الذي استشهد في أحد، فأخذها على بن أبي طالب، وسلمها إلى السيدة فاطمة زوجته، وإذا يزيد بن حارثة وجعفر يتنافسان على أيهما أحق بكفالتها.

فقال جعفر: ابنة عمى وخالتها زوجتى.

وقال على: أنا أخذتها وهي بنت عمى.

وقال زيد: ابنة أخى؛ لأن النبى صلى الله عليه وآله قد آخى بين زيد وحمزة.

فحكّم النبى بأن تكون مع جعفر وزوجته.

وقال: «الخالة بمنزلة الأم»..

وقد أسلم بعد هذه العمرة المباركة مباشرة جمع من المشركين ممن بهرت أنظارهم قوة الإسلام والمسلمين..

و صدق الله رسوله بما وعد به المسلمين، وقد تحققت رؤياه التى أراه الله تعالى فى منامه قبل عام تقريباً، وكتب الله له ولمن معه دخول البيت والطواف به..

فنزلت الآية الكريمة ٢٧ من سورة الفتح، وهى تحمل بشائر عديده، وهو ما سنراه عبر أقوال بعض المفسرين بعد قليل.

الرملة والاضطباع بين اللغة والفقه الإسلامى

الرملة لغة: الهرولة.. وفى الطواف: هو أن يمشى سريعاً يهز فى مشيته الكتفين كالمبارز بين الصفيين.

والاضطباع من اضطبع بالثوب ونحوه: أدخله من تحت إبطه الأيمن، وردّ طرفه، فألقاه على عاتقه الأيسر، وبدا منكبه الأيمن وتغطى الأيسر. وكان يفعل

ص: ٢١٩

ذلك من يريد أن ينشط للعمل (١).

مع أن سبب الرمل قد زال وهم يقولون بذلك إلا أنهم جعلوا من سنن الطواف عندهم أن يرمل الطائف في الأشواط الثلاثة الأولى في كل طواف، بأن يسرع مشيه مقارناً خطاه، ويمشي في الباقي من طوافه على هينته، ويروون أن رجلاً سأل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب في خلافته وقال: يا أمير المؤمنين! في نفسى شىء، رملنا لما كنا خائفين، يعنى: أول ما رملنا، فعلام الرمل الآن؟ قال: يا ابن أخى! حج رسول الله، وطاف ورمل فرملنا.

ولما رواه الشيخان عن ابن عمر: «كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا طاف بالبيت طواف الأول حبّ ثلاثاً، ومشى أربعاً، وليقل أثناء الرمل: اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وسعيّاً مشكوراً».

ويضطبع الذكر- ولو صبيّاً- في الطواف والسعى على الصحيح اتّباعاً للسنة، وهو جعل وسط ردايته تحت منكبه الأيمن وطرفيه على الأيسر. ولا ترمل المرأة ولا تضطبع. ومن سنن السعى أن يمشى ثم يرمل بين الميلين الأخضرين.. (٢).

والرسول صلى الله عليه وآله حينما فتح مكة سنة ثمان، يعنى: بعدها بسنة واحدة، حينما طاف بالعمرة التى أهلّ بها من حين عند عودته من الطائف من ثقيف، رمل ومكة فتحت في العام الثامن، وهو اعتمر في نفس العام بعد الفتح، وقد أصبحت مكة في إمرة رسول الله وله عليها أمير، ومع ذلك رمل، وفي حجة الوداع سنة عشر من الهجرة حج وطاف بالبيت ورمل.

إذن، العلة كانت موجودة في أول رمل، وبعد ذلك انتفت تلك العلة ولم تعد موجودة، أى لم تكن العلة موجودة في الحج، ولم يكن هناك خوف ولا مؤامرة، ولكن أمر شرع فاستمرت مشروعيته. وعلى هذا يتفقون على أن الرمل يكون في

١- انظر: القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً لسعدى أبو جيب.

٢- انظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامى وأدلته ٣: ١٠٤-١٠٥، وغيره.

ص: ٢٢٠

الطواف الأول الذى يعقبه سعى، وهذه قاعدة: أن كل طواف يعقبه سعى ففيه رمل، وكل طواف بدأ به الحاج أو المعتمر فإن فيه رملاً، فالذى يأتى مفرداً الحج سيطوف طواف القدوم، وله أن يسعى بعده سعى الحج، ففي طوافه رمل، والذى يأتى معتمراً فإنه سيأتى ويطوف، وطوافه ركن فى العمرة، وبعده سعى ففى طوافه رمل.

وأما طواف الإفاضة، فمن كان قد سعى قبل عرفات فلا سعى عليه، وعلى هذا لا رمل فيه.

وأما طواف الوداع فلا سعى بعده وعلى هذا لا رمل فيه.

وهكذا أصبح الرمل مشروعاً فى أول طواف يطوفه الناسك حاجاً كان أو معتمراً، وإن كان قد انتهى سببه وانقطعت علقته، إلا أنه أمر شرع وداوم عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وفعله مع انتفاء العلة، وهو الذى يقول الأصوليون فيه الاعتراض أو الإيماء، وهو بقاء الحكم مع انتفاء العلة.

ص: ٢٢١

موقف الإمامية

وأما ما ورد من أن رسول الله صلى الله عليه وآله رمل في الطواف، فهو قضية في واقعه لإظهار جلادة أصحابه في الجملة، ولا يستفاد منها الاستحباب، وفي نوادر ابن عيسى عن أبيه قال: «سئل ابن عباس فقيل: إن قوماً يروون أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بالرمل حول الكعبة فقال: كذبوا وصدقوا. فقلت: وكيف ذلك؟»

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله دخل مكة في عمرة القضاء وأهلها مشركون وبلغهم أن أصحاب محمد مجهودون، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: رحم الله امرأاً أراه من نفسه جلدًا، فأمرهم فحسروا عن أعضادهم ورملوا بالبيت ثلاثة أشواط، ورسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته، وعبد الله بن رواحة أخذ بزمامها والمشركون بحيال الميزاب ينظرون إليهم، ثم حج رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك فلم يرمل ولم يأمرهم بذلك، فصدقوا في ذلك، وكذبوا في هذه».

وعن زرارة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الطواف: أيرمل فيه الرجل؟»

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما أن قدم مكة وكان بينه وبين المشركين الكتاب الذي قد علمتم، أمر الناس أن يتجلدوا وقال: أخرجوا أعضادكم، وأخرج رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم رمل بالبيت ليريهم أنه لم يصبهم جهد، فمن أجل ذلك يرمل الناس، وإنى لأمشى مشياً، وقد كان على بن الحسين عليه السلام يمشى مشياً».

وفي نوادر أحمد بن عيسى عن أبيه عن جده قال: «رأيت على بن الحسين عليه السلام يمشى ولا يرمل».

والمراد من الرمل: الهرولة على ما يستفاد من أقوال اللغويين (١).

وقفه

لم أجد فيما تيسر لي من مصادر تاريخية وتفسيرية وروائية إلا الشروط التي ذكرت فيما تضمنته لائحة الصلح بين رسول الله صلى الله عليه وآله ومشركي مكة، والتي ذكرناها

١- انظر: وسائل الشيعة، باب ٢٩ من أبواب الطواف، الأحاديث ٢، ٥، ٤.

ص: ٢٢٢

أعلاه، إلا خبراً ذكره تفسير العياشي - وهو من تفاسير الإمامية - عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن السعي بين الصفا والمروة فريضة هو أو سته؟ قال: فريضة، قال: قلت: ليس الله يقول: «فلا جناح عليه أن يطوف بهما» قال: كان ذلك في عمرة القضاء، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان شرطه عليهم أن يرفعوا الأصنام، فتشاغل رجل من أصحابه حتى أعيدت الأصنام فجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه وقيل له: إن فلاناً لم يطف وقد أعيدت الأصنام، قال:

فأنزل الله «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»، أي والأصنام عليهما (١).

قال الفيض (رحمه الله) في الوافي: يعني شرط على المشركين أن يرفعوا أصنامهم التي كانت على الصفا والمروة حتى ينقضى أيام المناسك، ثم يعيدوها، فتشاغل رجل من المسلمين عن السعي حتى انقضت الأيام وأعيدت الأصنام، فزعم المسلمون عدم جواز السعي حال كون الأصنام على الصفا والمروة.

والذي يبدو لي أن هذا الشرط لم يكن مع بنود الصلح، وإنما جاء بعد ذلك عندما أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يسعي بين الصفا والمروة طلب من قريش أن يرفعوا أصنامهم، ويمكن أن يستفاد هذا مما جاء في تفسير القمي: «فإن قريشاً كانت وضعت أصنامهم بين الصفا والمروة وكانوا يتمسحون بها إذا سعوا فلما كان من أمر رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان في غزاة الحديبية وصدّه عن البيت، وشرطوا له أن يخلوا له البيت في عام قابل حتى يقضى عمرته ثلاثة أيام ثم يخرج عنها، فلما كان عمرة القضاء في سنة سبع من الهجرة دخل مكة وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول الله صلى الله عليه وآله بين الصفا والمروة وقد

ص: ٢٢٣

رفعت الأصنام، وبقي رجل من الطواف ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة، فجاء الرجل الذى لم يسع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: قد ردّت قريش الأصنام بين الصفا والمروة ولم أسع، فأنزل الله عزوجل: «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» والأصنام فيه...

فهذه العبارة تبين أن طلب الرفع كان ورسول الله صلى الله عليه وآله في مكة: «فلما كان عمرة القضاء فى سنة سبع من الهجرة دخل مكة وقال لقريش: ارفعوا أصنامكم من بين الصفا والمروة حتى أسعى، فرفعوها فسعى رسول الله صلى الله عليه وآله..» إذن هو طلب متأخر. وإلا لو كان موجوداً ومتفقاً عليه لذكرته لائحة الصلح، وليس هناك مصلحة فى إخفائه وفى عدم تدوينه ونقله، بل بالعكس هو شرط لصالح المسلمين..

ثم إن الكلام يقع فى مدى استجابتهم، والذى أميل إليه أنه حتى لو طلب ذلك منهم فإنهم لم يستجيبوا له، لأنه طلب منهم أن يسمحوا له بدخول الكعبة، وهو أمر أسير عليهم من قلع أصنامهم وإخلاء البيت أو المسعى منها لتعلقهم بها وأنها رمز عبادتهم وقدموا فى سبيلها كل غال من دماء وأموال فأبوا وقالوا: لم يكن فى شرطك.. ورفضوا طلبه الآخر: «وما عليكم لو تركتمونى فأعرس بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه؟ قالوا: لا حاجة لنا فى طعامك...».

ثم إن رفعها ثم إعادتها ليس أمراً سهلاً خصوصاً وأن عددها ليس بالقليل (٣٦٠ صنماً) فى المسجد والمسعى مرصصة بالرصاص، كما تذكر بعض مصادر التاريخ (١). وأيضاً لو طلب منهم رفعها لنقلت الأخبار ذلك كما نقلت لنا طلبه لدخول البيت فهو أمر ليس بالهين والبسيط حتى يتغافل عنه.

ثم هناك رواية أخرى تقول: قال أبو عبد الله فى خبر حماد بن عثمان: إنه كان

ص: ٢٢٤

على الصفا والمروة أصنام فلما أن حج الناس لم يدروا كيف يصنعون، فأنزل الله هذه الآية، فكان الناس يسعون والأصنام على حالها، فلما حج النبي صلى الله عليه وآله رمى بها (١).

والأمر إما يحتاج إلى معالجة. وإما إلى الأخذ بهذه الرواية، خصوصاً وهي مؤيدة بما لم تختلف عليه المصادر في نقلها لبنود الصلح ولم تذكر شرط رفع الأصنام كبند من البنود المتفق عليها بين الطرفين..

وفي تفسير التبيان للشيخ الطوسي:

وإنما قال: «فَلَا-جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» وهو طاعة، من حيث إنه جواب لمن توهم أن فيه جناحاً، لصنمين كانا عليه: أحدهما إساف، والآخر نائلة، في قول الشعبي، وكثير من أهل العلم. وروى ذلك عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام..

وكان ذلك في عمرة القضاء ولم يكن فتح مكة بعد، وكانت الأصنام على حالها حول الكعبة، وقال قوم: سبب ذلك أن أهل الجاهلية كانوا يطوفون بينهما، فكره المسلمون ذلك خوفاً أن يكون من أفعال الجاهلية، فأنزل الله تعالى الآية. وقال قوم عكس ذلك:

إن أهل الجاهلية كانوا يكرهون السعي بينهما، فظن قوم أن في الإسلام مثل ذلك، فأنزل الله تعالى الآية. وجملته أن في الآية رداً على جميع من كرهه، لاختلاف أسبابه. ومثله في مجمع البيان: «.. فكان الناس يسعون والأصنام على حالها فلما حج النبي صلى الله عليه وآله رمى بها».

وفي أسباب النزول للواحدى يذكر ابن عباس في ذيل روايته عنه:

... فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما- بين الصفا والمروة- لأجل الصنمين؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ...».

أى إن كرههم وقع بعد فتح مكة وتكسير الأصنام لأنهما كانا مكاناً لها.

ص: ٢٢٥

مع تفسير الآية المباركة

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» (١).

هذه الآية المباركة جاءت مصدقة لرؤيا النبي صلى الله عليه وآله، ولترسم نتيجة مهمة من نتائج قصة الحديبية، فحملت بشائر طالما اشأبت لها الأعناق فاستيقنتها نفوس وانتظرتها أخرى واستعجلها قوم آخرون...

إن عمرة القضاء (هذا الوعد الرباني النبوي) التي أداها رسول الرحمة صلى الله عليه وآله والمسلمون، ما كانت إلا تمهيداً لبيعة الرضوان ولفتح مكة فيما بعد، ولفتح خيبر قبلها... فقد ترك هذا الحدث آثاراً كبيرة على الوضع النفسى والاجتماعى وأيضاً السياسى لكلا الطرفين، فالوضع الإسلامى صار يتمتع أبناؤه بالقوة والتفأول بانتشار دينهم والقضاء على الشرك والمشركين وعلى أعدائهم المنتشرين من القبائل العربية وآخرين يحيطون بهم، وبالعودة إلى بلدهم الذى هجروا منه قسراً وهو مكة المشرفة، وهم رافعو الرؤوس ينشدون أناشيد النصر والخلاص من الكفر والشرك والظالمين وأصنامهم وأوثانهم وطغيانهم.. هذا من جانب.

ومن جانب آخر، إن مشاهدة قريش للعدد الكثير من المسلمين الأنصار والمهاجرين وهم محذقون برسول الله صلى الله عليه وآله فى طوافهم وسعيهم وباقى مناسكهم، وما كانوا عليه من حماس ونشاط، لم يكن يتوقعه المشركون رغم كل محاولاتهم إجهاض مظهر العز والقوة اللتين يتمتع بهما المسلمون، وكان لذلك أبلغ الأثر فى نفوسهم، فقد داخلتهم الرهبة والهيبة من المسلمين، إذ فوجئوا بأمر لم يكونوا يألفوه، بل لم يكونوا يتوقعوه..

حتى ورد عن ابن عباس: «أن المشركين لما رأوا رمل المسلمين (والرمل هو



ص: ٢٢٦

الإسراع في المشى مع مقاربه الخطأ) حول الكعبة، قال بعضهم لبعض: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم؟! هؤلاء أجلد من كذا وكذا».

إذن، كان ولا ريب لعمرة القضاء- وبالشكل الذى تمت به وبالصورة التى انتهت إليها وما تركته من ثمار وانتصارات توالى بعدها- آثار بالغه فى نفوس المشركين فى الجزيرة العربية وما حولها، مهّدت لفتح مكة فيما بعد ذلك..

إن صلح الحديبية- وكما وصفه الكتاب العزيز ووصف نتائجه عبر سورة سميت بسورة الفتح- كان فتحاً مبيناً وفوزاً عظيماً ونصراً عزيزاً ومغفرةً وهدايةً ونعمةً تامةً...: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا\* لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا\* وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا\* هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا\* لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا\* وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا\* وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا\* إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا\* لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزُّوهُ وَتُوَفُّوهُ وَتَسْبِّحوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (١).

كما أن هناك دلالات وأهداف وبصمات كبيرة من هذا الحدث تركه على مسيرة الدين وأهله من خلال الإعداد الصحيح للمسلمين، ليثمر هذا الإعداد عن قوة معنوية وقوة مادية على حد سواء تثبت قواعد المؤمنين، وإبرازهما فى الوقت المناسب لتحقيق لهم هبة ورهبة فى قلوب أعدائهم المتربصين بهم، وتغيظ جميع أعدائهم والمتآمرين عليهم وتضعف معنوياتهم...

ص: ٢٢٧

هذا وإن ما أصاب بعض الصحابة ممن سمعوا رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وقد كانوا مستبشرين بتحققها من تشكيك وارتياب آذى رسول الله صلى الله عليه وآله بعد الذي حدث في الحديبية من الصلح، وعدم تحقق الرؤيا في سنتها، وهم قد استعدوا لدخول مكة لولا منع المشركين، وما حصل من اتفاق وإبرام صلح، ومنه أن لا يدخلوا المسجد الحرام إلا في عامهم القادم. يؤكد الله تعالى لهم أن هذه الرؤيا منه وهي صادقة، وأنها لا تتخلف بل هي واقعة بعد حين، وأنها تحمل نتائج كبيرة وانتصارات، وأن خوفهم وهلعهم لا مبرر له إلا ضعف إيمانهم وعدم وعيهم لخطوات رسول الله صلى الله عليه وآله ولما يأتيهم به فثقلت على نفوسهم تفاصيلها وما انتهت إليه من بنود.. فأعادوا النظر بوضعهم الإيماني هذا، وهي درس بليغ لهم يربيههم على الطاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله وعلى الامتثال البعيد عن التردد، وعلى الاستسلام الخالي من الارتياب.. وأعلنوا ندمهم على ما ظهر منهم وما سببوه من ألم لرسول الله صلى الله عليه وآله. وأن الطاعة الصادقة يجب أن تتجذر في قلوبهم ونفوسهم، وأنها من أهم واجبات الإيمان بغض النظر عن العواقب ودون النظر إلى ما يترتب من ربح أو خسارة...

فيما تلقى المنافقون الذين أضمروا السوء وأن لا- عودة للرسول ولمن معه إلى المدينة وإلى أهليهم فهم ذاهبون إلى حتفهم.. ولم يعلموا أن الله تعالى ناصر نبيه، وهو الحامي له وللصادقين من عباده. تلقى هؤلاء ضربة موجعة أفقدتهم صوابهم وخيبت تقديراتهم وآمالهم وأفشلت خططهم...

مع أقوال بعض المفسرين

إن لصلح الحديبية دوراً كبيراً ورائداً في تهيئة الأجواء لدخول المسلمين مكة والمكوث فيها ثلاثة أيام يؤدون مناسك عمرتهم بطمأنينة وسلام، ثم يعودون أهليهم ويتفقدون منازلهم...، كل هذا كان يجري على مسمع ومرأى من مشركي مكة، وهم صاغرون.. وهو ما نراه في أقوال عدد من المفسرين..

ولنبداً مع ما ذهب إليه صاحب الميزان حيث يقول:

ص: ٢٢٨

... اللام في «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ» للقسم، وقوله: «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ» جواب القسم.  
 وقوله: «بِالْحَقِّ» حال من الرؤيا والباء فيه للملابسة، والتعليق بالمشيئة في قوله: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» لتعليم العباد  
 والمعنى:

أقسم لقد صدق الله رسوله في الرؤيا التي أراه لتدخلن أيها المؤمنون المسجد الحرام إن شاء الله حال كونكم آمنين من شر  
 المشركين محلّقين رؤوسكم ومقصرين، لا تخافون المشركين.

وقوله: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» ذلك إشارة إلى ما تقدم من دخولهم المسجد الحرام آمنين، والمراد بقوله:  
 «من دون ذلك» أقرب من ذلك والمعنى: فعلم تعالى من المصلحة في دخولكم المسجد الحرام آمنين ما جهلتموه ولم تعلموه،  
 ولذلك جعل قبل دخولكم كذلك فتحاً قريباً ليتيسر لكم الدخول كذلك.

ومن هنا يظهر أن المراد بالفتح القريب في هذه الآية فتح الحديبية؛ فهو الذي سوى للمؤمنين الطريق لدخول المسجد الحرام آمنين  
 ويسر لهم ذلك، ولولا ذلك لم يمكن لهم الدخول فيه إلا بالقتال وسفك الدماء، ولا عمرة مع ذلك لكن صلح الحديبية وما اشترط  
 من شرط أمكنهم من دخول المسجد معتمرين في العام القابل.

ويأخذ السيد الطباطبائي من هذا دليلاً على أن المراد بالفتح الوارد في الآية هو صلح الحديبية لا غيره، حيث يقول:

ومن هنا تعرف أن قول بعضهم: إن المراد بالفتح القريب في الآية فتح خيبر بعيد من السياق، وأما القول بأنه فتح مكة فأبعد.

وسياق الآية يعطى أن المراد بها إزالة الريب عن بعض من كان مع النبي صلى الله عليه وآله، فإن المؤمنين كانوا يزعمون من رؤيا  
 رآها النبي صلى الله عليه وآله من دخولهم المسجد آمنين

ص: ٢٢٩

محلّقين رؤوسهم ومقصرين، أنهم سيدخلونه كذلك في عامهم ذلك، فلما خرجوا قاصدين مكة معتمرين فاعترضهم المشركون بالحديبية وصدّوهم عن المسجد الحرام ارتاب بعضهم في الرؤيا فأزال الله ريبهم بما في الآية. ومحصله: أن الرؤيا حقه أراها الله نبيه صلى الله عليه وآله وقد صدق تعالى في ذلك، وستدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون، لكنه تعالى أخره وقدم عليه هذا الفتح، وهو صلح الحديبية ليتيسر لكم دخوله؛ لعلمه تعالى بأنه لا يمكن لكم دخوله آمنين محلّقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون إلا بهذا الطريق. قوله تعالى: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»، تقدم تفسيره في سورة التوبة الآية ٣٣، وقوله: «وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» أي شاهداً على صدق نبوته والوعد أن دينه سيظهر على الدين كله أو على أن رؤياه صادقة، فالجملة تذييل ناظر إلى نفس الآية أو الآية السابقة (١).

أما صاحب تفسير الأمثال، فمما يقوله عند تفسير الآية: ينبغى الالتفات إلى أن «اللام» في «لَتَدْخُلَنَّ» هي لام القسم، وأن «النون» في آخر الفعل هي للتوكيد، بأن هذا هو وعد إلهي قطعي في المستقبل وتنبؤ معجز صريح عن أداء المناسك والعمرة في كامل الأمان ومنتهى الطمأنينة، وكما سنبين كان هذا التوقع والتنبؤ صادقاً في شهر ذي القعدة ذاته من السنة المقبلة، وهكذا أدى المسلمون مناسك العمرة بهذه الصورة!

التعبير «فَتَحًّا قَرِيبًا» كما يعتقد كثير من المفسرين هو إشارة إلى صلح الحديبية الذي عبّر عنه القرآن بالفتح المبين، ونعرف أن هذا الفتح كان السبيل إلى دخول المسجد الحرام في السنة التالية. على حين أن جماعة آخرين يعتقدون أن «فَتَحًّا قَرِيبًا» إشارة إلى «فتح خيبر».

١- انظر: الطباطبائي، الميزان، سورة الفتح، الآية ٢٧.

ص: ٢٣٠

وبالطبع فإن كلمة «قريباً» فيها تناسب أكثر مع «فتح خبير»؛ لأنه كان «تحققه العيني» بعد هذه الرؤيا في فترة أقل زمناً من فتح مكة بعدها، ثم بعد هذا فإن القرآن يقول في الآية (١٨) من هذه السورة ذاتها عند الكلام على بيعه الرضوان:

«فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا». وكما قلنا ويعتقد بذلك أكثر المفسرين أيضاً أن المراد من هذا الفتح هو «فتح خبير» والقرائن الموجودة... وفي تفسير على بن إبراهيم رواية تشير إلى هذا المعنى أيضاً.. (١) جملة: «مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها وهو «التقصير»، وبه يخرج المحرم من إحرامه، وقد استدل بعضهم بالآية في التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير في تقليم الأظافر والحلق، لأن الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.

جملة: «فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» إشارة إلى مسائل مهمة مطوية في صلح الحديبية، وقد انكشفت بمرور الزمن إذ قويت قواعد الإسلام وانتشر صوته وترامت أصداؤه في كل مكان وطويت نزعة الحرب عند المسلمين، واستطاعوا أن يفتحوا «خبير» بفارغ البال وقرار البلبال، وأرسلوا المبلغين إلى أطراف الجزيرة العربية، وبعث النبي صلى الله عليه وآله رسائله إلى أعظم رؤساء الدول آنئذ، فهذه مسائل كان الفرد المسلم لا يعرفها لكن الله كان يعلمها...

نواجه في هذه الآية الكريمة موضوع الرؤيا، وهي رؤيا النبي صلى الله عليه وآله الصادقة التي تعدد (غصناً من غصون) الوحي، وهي مشابهة لقصة رؤيا إبراهيم عليه السلام وذبح ولده، الآية تحكى عن هذا الفتح أيضاً، ومع الالتفات إلى أن الآية محل البحث تنسجم مع تلك الآية يبدو أن الآيتين بمعنى واحد.. (٢).

والآية محل البحث واحدة من المسائل الغيبية التي أخبر عنها القرآن، وهي شاهد على أن هذا الكتاب سماوي، وأنه من معجزات النبي الكريم حيث يخبر قاطعاً

١- لاحظ: نور الثقلين ٥: ٧٦.

٢- انظر: الصافات: ١٠٢.

ص: ٢٣١

عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب وعن الفتح القريب قبله أيضاً، وكما نعلم فإن هذين التبتين قد حدثا فعلاً..

وحول هذا المقطع من الآية المباركة «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...» وتعلق الوعد على المشيئة الإلهية رغم أن الله تعالى هو الخالق للأشياء كلها وهو العالم بها قبل وقوعها وهو المخبر بوقوع العمرة، أى ما وجه دخول «إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فى إخبار الله عز وجل؟ وهنا أقوال:

١- إنه حكاية قول الملك للرسول صلى الله عليه وآله.

٢- إن هذا التعليق تأدب بأدب الله تعالى، وإن كان الموعود به محقق الوقوع.

أو أن يعلق الله تعالى عدته بالمشيئة تعليماً لعباده أن يقولوا فى عداتهم مثل ذلك متأدين بأدب الله ومقتدين بسنته «وَلَا تَقُولَنَّ لِسَيِّئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ».

٣- استثنى الله فيما يعلم ليستثنى الناس فيما لا يعلمون.

٤- «إِنْ» هنا بمعنى «إِذ» التى تذكر لتعليل ما قبلها- وهو زعم الكوفيين- أى إذ شاء الله حين أرى رسوله ذلك، وعن أبى عبيدة ومثله قوله: وأنتم الأعلون إن

ص: ٢٣٢

كنتم مؤمنين، قال معناه: إذ كنتم.. وقالوا: وليست شرطية؛ لأن الشرط مستقبل وهذه القصة قد مضت.

٥- إن الاستثناء من الدخول، وكان بين نزول الآية والدخول مدة سنة، وقد مات منهم أناس في السنة، فيكون تقديره لتدخلن كلكم إن شاء الله، إذ علم الله أن منهم من يموت قبل السنة أو يمرض فلا يدخلها، فأدخل الاستثناء لأن لا يقع في الخبر خلف. وقيل: إن الاستثناء داخل على الخوف والأمن، فأما الدخول فلا شك فيه، وتقديره لتدخلن المسجد الحرام آمين من العدو إن شاء الله. وهذه الأقوال الثلاثة كما يذكر الطبرسي في تفسيره مجمع البيان للبصريين.

ويقول سيد قطب في ظلاله:

ولكن الله سبحانه يؤدب المؤمنين بأدب الإيمان وهو يقول لهم:

«لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ...» فالدخول واقع لأن الله أخبر به، ولكن المشيئة يجب أن تظل في نفوس المسلمين في صورتها الطليقة لا يقيدها شيء حتى تستقر هذه الحقيقة في القلوب، وتصبح هي قاعدة التصور للمشيئة الإلهية.

والقرآن يتكئ على هذا المعنى ويقرر هذه الحقيقة، ويذكر هذا الاستثناء في كل موضع، حتى المواضع التي يذكر فيها وعد الله. ووعد الله لا يخلف. ولكن تعلق المشيئة به أبداً طليق. إنه أدب يلقيه الله في روع المؤمنين، ليستقرّ منهم في أعماق الضمير والشعور.

أما صاحب تفسير الأمل فيقول:

ولعلها نوع من تعليم العباد لكي يعولوا على مشيئة الله عند الإخبار عن المستقبل وأن لا ينسوا إرادة الله، وأن لا يجدوا أنفسهم غير محتاجين أو مستقلين عنه. وربما هي إشارة للظروف التي يهيوها الله لهذا التوفيق «توفيق الله المسلمين لزيارة بيته في المستقبل القريب» والبقاء على خط «التوحيد والسكينة والتقوى»...

كما يمكن أن تكون إشارة إلى بعض المسلمين الذين تنتهي أعمارهم في هذه

ص: ٢٣٣

الفترة والفاصلة الزمانية ولا يوقفون إلى زيارة بيت الله، والجمع بين هذه المعاني كلها لا مانع منه أبداً...

وختاماً هذا تلخيص لما ورد عن بعض المفسرين إضافة لما ذكرناه طى المقالة من أقوالهم:

لقد رأى النبي صلى الله عليه وآله في المدينة رؤيا أنه يدخل مكة مع أصحابه لأداء مناسك العمرة، فحدث أصحابه بذلك، غير أنهم أصيبوا بإحباط وارتباب بعد أن منعتهم قريش ووقع الصلح.

فكان جواب النبي لهم: هل قلت لكم: إن هذه الرؤيا ستتحقق هذا العام؟

فنزلت الآية الأنفة في هذا الصدق والنبي عائد من الحديبية إلى المدينة، وأكدت أن هذه الرؤيا كانت صادقة ولا بد أنها كائنة... تقول

الآية: «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ»، فما رآه النبي في المنام كان حقاً وصدقاً.

ثم تضيف الآية قائلة: «لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسِهِمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» وكان في هذا التأخير حكمة: «فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا».

اللام في «لَتَدْخُلَنَّ» هي لام القسم، والنون للتوكيد، وهو وعد إلهي قطعي الوقوع ويتضمن نبوءة عن أداء المناسك والعمرة بأمان وطمأنينة.. وهو أمر غيبي وبالتالي فهو شاهد على أن هذا الكتاب سماوي وأنه من معجزات النبي الكريم حيث يخبر قاطعاً عن أداء مناسك العمرة ودخول المسجد الحرام في المستقبل القريب وعن الفتح القريب «صلح الحديبية أو فتح خيبر»، وأن هذين التنبؤين قد وقعا فعلاً..

جملة «محلّقين رؤوسكم ومقصرين» إشارة إلى واحد من مناسك العمرة وآدابها، وهو «التقصير» وبه يخرج المحرم من إحرامه، وقد استدل بعضهم بالآية في التخيير عند الخروج من الإحرام بين التقصير في تقليم الأظافر والحلق، لأن الجمع بينهما ليس واجباً قطعاً.



ص: ٢٣٤

«فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» ما لم تعلموا من الخير والصلاح وما ستثمر هذه الخطوة وهذا الحدث من خير عميم ونصر كبير وعزة للإسلام والمسلمين..

وأما عمرة القضاء فهي العمرة التي أداها النبي صلى الله عليه وآله مع أصحابه بعد صلح الحديبية بعام، أي في ذى القعدة من السنة السابعة للهجرة (على وجه الدقة بعد عام من منع المشركين أن يدخل الرسول وأصحابه مكة).

وجاءت هذه العمرة طبقاً لإحدى مواد كتاب صلح الحديبية التي أصبح من المقرر بموجبها أن يؤدى رسول الله صلى الله عليه وآله - ومعه المسلمون - العمرة وزيارة بيت الله الحرام ليس في عامهم هذا عام الصلح بل في العام المقبل، على أن لا يمكثوا في مكة أكثر من ثلاثة أيام، وفي الوقت ذاته يخرج المشركون ورؤسأؤهم من مكة أيضاً.

حتى لا يرى المشركون شيئاً قد يثيرهم وعبادة قد تغضبهم ونداء أو شعاراً قد يغضبهم.. ودرءاً لما قد يقع من احتكاك بينهم و اختلاف، وبالتالي قد يكون ذلك كله سبباً لنزاع مسلح بين الفريقين...

لقد أحرم النبي صلى الله عليه وآله في السنة المقبلة وأصحابه ومعهم جمالهم المساقاة للهدى، وتحزّكوا جميعاً حتى بلغوا أطراف مَر الظهران وضواحيها، وعندها بعث النبي صلى الله عليه وآله ما كان عنده من أسلحة وخيول تستلقت النظر مع الصحابي محمّد بن مسلمة، فلما وقعت عيون المشركين عليها أصيبوا بفرع وهلع وانتابهم خوف شديد وظنّوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يريد أن ينقض العهد بمدته عشر سنين وقاتلهم وسرعان ما انتشر الخبر في مكة.

غير أنّ النبي صلى الله عليه وآله حين وصل منطقة قريبة من مكة، أمر أن توضع الأسلحة من السهام والرماح وغيرها من الأسلحة في منطقة تدعى يأجج، ودخل هو وأصحابه مكة بالسيوف المغمدة في قرابها.

فلما رأى أهل مكة من النبي ما رأوا فرحوا؛ إذ وفي النبي بوعدده، فكأنّ النبي بعمله هذا وجه إنذاراً لمشركي مكة إن سولت لهم أنفسهم أمراً فنقضوا العهد وأرادوا سوءاً فسيجدون قوة عظيمة تقهرهم وتفشل عليهم تأمرهم.

ص: ٢٣٥

فخرج رؤساء مكة وأتباعهم من مكة لئلا تتأثر نفوسهم بما يرونه من عزه المسلمين والكيفية التي يؤدون بها مناسك عمرتهم... ومع هذا ظل جمع منهم - رجالاً ونساءً وأطفالاً - مجتمعين على سطوح مكة وتلالها القريبة من المسجد وفي الطرقات المؤدية إليه وحول الكعبة ليشاهدوا رسول الله محمداً صلى الله عليه وآله وقد عاد إلى مدينته بقوة وانتصار في تظاهرة المسلمين الذين يحيطون به.. فعاملهم بلطف ومحبة وحنين من جهة، ومن جهة أخرى أمر المسلمين أن يسرعوا أثناء الطواف وأن يزيحوا الإحرام عن أكتافهم قليلاً لتبدو علائم القدرة والقوة فيهم وأن تترك هذه الحالة في أفكار أهل مكة وأنفسهم تأثيراً كبيراً ودليلاً حياً على قوة المسلمين وحكمتهم!

وعلى كل حال، فإن «عمرة القضاء» كانت عبادة، كما كانت في الوقت ذاته عرضاً «للعضلات المفتولة»، وينبغي القول: إن «فتح مكة» الذي تحقق بعد سنة أخرى كان قد نثر بذره في هذه السنة وهياً الأرضية لاستسلام أهل مكة للفتاحين (المسلمين). وكان هذا الأمر مدعاةً لقلق رؤساء قريش إلى درجة أنهم بعثوا رجلاً بعد مضي ثلاثة أيام إلى النبي يطلب منه أن يغادر بسرعة هو وأصحابه مكة طبقاً للمعاهدة...

ومن الطريف هنا أن النبي تزوج أرملةً من نساء قريش وكانت من أقرباء بعض رؤسائهم المعروفين، وذلك ليشد أواصره بهم ويخفف من غلوائهم وبغضائهم.

وحين سمع النبي اقتراحهم بالمغادرة قال: «ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه». قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنا.

ولو كان تم ذلك لكان له أثره في نفوذ أمر النبي في قلوبهم، غير أنهم لم يقبلوا ذلك منه... (١).

١- هذا موجز لما ذكر في تفسير الأمل للشيخ مكارم ملخصاً لما جاء في ظلال القرآن ومجمع البيان..

ص: ٢٣٦

## قراءة في حجة الوداع

تعليم المناسك ورواية الفريقين

خطبة الغدير - ما نزل فيها من قرآن

حسن محمد

في العام العاشر من الهجرة النبوية وفي شهر ذي القعدة، راح رسول الله صلى الله عليه وآله يجهز نفسه وأهله وأصحابه والمسلمين عموماً من شتى البلاد طالباً منهم جميعاً الحضور في موسم الحج.

والذي يبدو من هذا الحشد والإعداد الكبير له والاهتمام العظيم به هو أنه صلى الله عليه وآله إضافة إلى أنه يريد بذلك توديعهم فهو مقبل على ربه وجواره تعالى عن قريب «أيها الناس اسمعوا قولي، فإنني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا..» ولهذا سميت بحجة الوداع، فقد ودّع الناس بعد انتهاء خطبته في عرفات ومنى، وتأتينا أسماؤها الأخرى في فصل: ما نزل فيها من قرآن.

و أراد أن يبين لهم أموراً، غاية بالدقة والأهمية لما تركه في حياتهم الإيمانية ومسيرتهم نحو الله تعالى وهم يؤدّون ما عليهم من تكاليف وما تنتظرهم من مهام، وكان منها:

- مناسك فريضة الحج المقدسة كما رسمتها السماء، وتخليصها مما علق بها من

ص: ٢٣٧

بدع وشوائب وانحرافات...

- أحكام ومفاهيم أخرى تضمنتها خطبه في ميادين هذه الفريضة.

- قيادة المسيرة الإسلامية من بعده صلى الله عليه وآله وعلى جميع المستويات.

ونحن هنا، وليبان ما يرتبط بالأمور المذكورة نقف عند النقاط التالية ويبيجاز نأمل أن يكون نافعاً بإذنه تعالى:

سنته صلى الله عليه وآله التي اتبعها عبر أفعاله وأقواله وغدت مدرسة تعليمية، تلامذتها المسلمون، ينهلون منها الصحيح من المناسك والسليم من الأعمال والأذكار، ورسول الله في ذلك قدوتهم والأسوة التي يتأسون بها ويأخذون عنها «لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ» ولقد كلفته هذه الفريضة كما غيرها جهوداً كبيرة مضيئة من خلال ما قام به من دور تبليغي..

ونلقى الضوء من خلال ذلك على طريقة عمله و تبليغه صلى الله عليه وآله لفريضة مهمة من فرائض الله تعالى على عباده، وهي فريضة الحج وإنما اخترناها لأنها مهمة عملية تطبيقية استغرقت منه وقتاً طويلاً وجهداً فائقاً، خصوصاً وأنه أراد من خلال ذلك الإطاحة بكل عمل مارسوه باعتقاد أنه جزء من الحج وما هو من الحج، وبكل شائبة تركها تعاقب السنين أو انحراف عن السيرة السليمة للحج أو بدعة دخلت على مناسك نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام التي بلغها من قبل كما تحمله الآية الكريمة:

«... وَ أَرْنَا مَنَاسِكَنَا...» (١)

وكيف بذل رسول الله صلى الله عليه وآله جهده في تعليمهم مفاصلها النقية ومناسكها الخالصة وما يتعلق بها كما أرادته السماء وبلغها نبي الله إبراهيم عليه السلام، وكان يؤدي ذلك لا- نظرياً فقط بل راح يمارسه أمامهم ويطبقه عملياً في ميادين المناسك المتعددة وهدفه العظيم يرافقه وهو تربيتهم وتعليمهم توحيد الله إخلاصاً وعبادته بالطريقة التي يريدتها سليمة والإخلاص له في جميع العبادات، مع العناية باتباعه صلى الله عليه وآله في الأقوال والأعمال، وأن تُؤدى مناسك الحج وسائر العبادات على الوجه الذي شرعه الله لعباده على لسانه، فهو المعلم والمرشد والمبلغ، وبالتالي فهو القدوة والأسوة... وهكذا بعثه الله تعالى رحمةً للعالمين.

ص: ٢٣٨

وهو القائل لهم: «خذوا عني مناسككم».

إن حجة الوداع هي الحجة الوحيدة التي أداها رسول الله صلى الله عليه وآله بعد هجرته إلى المدينة المنورة، وقد وقعت في العام العاشر الهجري كما سبق ذكره، ونظراً لهدفها الكبير بخصوص ما يتعلق بالفريضة، وهو تعليم المسلمين الحج وتبليغهم أحكامه ومناسكه من قبل الرسول صلى الله عليه وآله؛ لهذا وجه دعوة عامة إلى المسلمين في الجزيرة العربية لحضور هذه الفريضة، للاشتراك في تلك الحجة. ومن هنا تعد حجة الوداع سفرة تعليمية ميدانية عملية يتدرب فيها المسلمون على كيفية أداء مناسك الحج، وهو ما أكدته مصادر التاريخ والرواية، وهذا الهدف من الأهداف الكبيرة لحجة الوداع.

وما قاله سراقه بن مالك بن جعشم الكناني دليل واضح على ما أداه رسول الله صلى الله عليه وآله من أعمال نافعة كأنها جديدة عليهم، تخص فريضة الحج وإبعاها عما اعتادوا عليه في أدائها: يا رسول الله! علمنا ديننا كأننا خلقنا اليوم، فهذا الذي أمرتنا به لعامنا هذا أم لما يستقبل؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: بل هو للأبد إلى يوم القيامة، ثم شبك أصابعه وقال:

دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة...

«واجتمعوا لحج رسول الله صلى الله عليه وآله وإنما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه أو يصنع شيئاً فيصنعونه..» (١).

إن لحجة الوداع في الفقه السني وفي الفقه الشيعي وفي أحاديثهم أهمية كبيرة تولدت عندهم؛ لأنها تتضمن أحكام الحج، وهو أمر مهم وجيد ومتفق عليه عندهم، وإن هذا الحديث يمكن أن يكون حكماً ومرجعاً في المسائل المختلف عليها بين فقهاء الفريقين، إلا أنها لدى الشيعة تحظى بأهمية أخرى أكبر، لإعلان نبي الرحمة ولأية ابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، بعد أن اختتم حجته

١- انظر رواية معاوية بن عمار، واللفظ لها، وكذا رواية جابر.

ص: ٢٣٩

وعند عودته منها وتوقفه قريباً من «الجحفة» في «غدير خم»، وكان ذلك بأمر من الله تعالى، ثم أخذ البيعة من الناس.

وفي بعض روايات مدرسة أهل البيت عليهم السلام جاءت قصة الغدير في أعقاب حديث حجة الوداع..

وهناك رواية أخرى يرويها معاوية بن عمار عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام تبين ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله من

أعمال في حجة الوداع تحمل اختلافاً عن رواية الصحابي جابر، لسنا بصدد بيان ذلك، لأن ما نبتغيه من مقالتنا هنا هو تبيين الدور

التعليمي التدريبي للحج الصحيح ونبذ ما تعلق به من شوائب..

وأنا هنا أكتفي بنقل نصّ الروايتين عن حج النبي صلى الله عليه وآله وهي كما قلنا حجة تبليغية تعليمية لتلمس ذلك الدور.

نبدأ برواية للصحابي الجليل جابر الأنصاري:

كان عمر جابر يومها عشرين سنة وكان يقود ناقه رسول الله صلى الله عليه وآله؛

فتابع تفاصيل هذه الحجة مشاهدةً وسماعاً وحفظاً ونقلها بدقة.

فجاءت رواية كاملة لحجة الوداع. وهو القائل: «على يدي دار الحديث» (١).

وهي تعد نقطة التقاء بين فقه وحديث كل من أهل السنة والشيعة حول حجة الوداع.

مما قالوه عن حديث جابر

وقبل أن نذكر نصها هذه بعض الأقوال في حديث جابر لحجة الوداع:

فالإمام يحيى بن شرف أبو زكريا محيي الدين النووي الشافعي (٦٧٦-٦٣١ هـ) في شرحه لصحيح مسلم يقول: هو حديث عظيم

مشمتم على جملة من الفوائد والنفائس من مهمات القواعد.. حتى يقول: وقد تكلم الناس على

١- رواه مسلم في صحيحه ٨: ١٦٨.

ص: ٢٤٠

ما فيه من الفقه وأكثرها.

وصنّف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً وخزج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً، ولو تقصّى لزيد على هذا القدر أو هو قريب منه.. والنووي في شرح أحاديث الحج من صحيح مسلم يستند مراراً إلى هذا الحديث، ويشرح بالتفصيل مبهمات ومشكلاته (١). وقال صاحب التاج الجامع الشيخ ناصيف عن حديث جابر: هذا حديث جليل القدر عظيم الفضل، حوى كل ما فعله النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع من أركان وواجبات ومندوبات إلا قليلاً، وهو أول حديث طويل في كتاب التاج يليه في الطول حديثا: الإسراء والهجرة الآتيان في كتاب النبوة... ثم يقول: وجابر رضى الله عنه كان يقود راحلة النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، فلذا كان أعلم الناس بها.

ثم بدأ بذكر الرواية ونحن نقلها مع هامشها من التاج الجامع:

عن جعفر بن محمد رضى الله عنه عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم، حتى انتهى إلّي فقلت: أنا محمد بن علي بن الحسين. فأهوى بيده إلى رأسي فتزع زري الأعلى، ثم حلّ زري الأسفل، ثم وضع كفه بين شديي، وأنا يومئذ غلام شاب. فقال: مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت، فسألته وهو أعمى وحضر وقت الصلاة، فقام في نساجه ملتخفاً بها، كلما وضعها على منكبيه رجع طرفاها إليه، من صغرها، ورداؤه إلى جنبه على المشجب، فصلى بنا.

فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله صلى الله عليه وآله فقال بيده، فقعد تسعاً وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله مكث تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله حاج، فقدم المدينة بشرّ كثير، كلهم يلتمس أن يأتهم برسول الله صلى الله عليه وآله ويعمل مثل عمله. فخرجنا معه، حتى أتينا ذا الحليفة، فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: كيف أصنع؟ قال: اغتسلي واستثفري

١- انظر: صحيح مسلم ٨: ١٧٠.

ص: ٢٤١

بثوب وأحرمي. فصلّى رسول الله صلى الله عليه وآله في المسجد، ثم ركب القصواء حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مدّ بصرى بين يديه، من راكب وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، ما عمل به من شيء عملنا به، فأهلّ بالتوحيد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك. وأهلّ الناس بهذا الذي يهلّون به، فلم يردّ رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم شيئاً منه. ولزم رسول الله صلى الله عليه وآله تليته.

قال جابر: لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه، استلم الركن، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقال:

«وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى»

فجعل المقام بينه وبين البيت. وكان يقرأ في الركعتين:

قل هو الله أحد- وقل يا أيها الكافرون، ثم رجع إلى البيت إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، حتى إذا دنا من الصفا قرأ:

«إِنَّ الصِّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ»

ابدأوا بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فرقى عليه، حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرّات، ثم نزل إلى المروة، حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعداً مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، فلمّا كان آخر طوافه على المروة قال: لو أنّي استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحلل وليجعلها عمرة.

فقام سراقه بن مالك فقال: يا رسول الله! ألعاننا هذا أم لأبد؟



ص: ٢٤٢

– فشَبَّكَ رسول الله صلى الله عليه وآله أصابعه واحدة في الأخرى، وقال: دخلت العمرة في الحج مرتين لا، بل لأبدياً أبدياً. وقدم عليّ من اليمن بِيَدِ النبي صلى الله عليه وآله، فوجد فاطمة رضي الله عنها ممّن حلّ، ولبست ثياباً صبيغاً، واكتحلت، فأنكر ذلك عليها، فقالت: إن أبي أمرني بهذا، قال:

فكان عليّ يقول بالعراق: فذهبتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مُحَرَّشاً على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً لرسول الله صلى الله عليه وآله فيما ذكرت عنه، فأخبرته أنني أنكرتُ ذلك عليها، فقال: صدقت، صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قلت: اللهم! إنني أهلُّ بما أهلَّ به رسولك صلى الله عليه وآله، قال: فإنّ معي الهدى فلا تُحلّ.

قال: فكان جماعة الهدى الذي قدم به عليّ من اليمن، والذي أتى به النبي صلى الله عليه وآله مائة. قال: فحلّ الناس كلّهم وقصروا، إلّا النبي صلى الله عليه وآله ومن كان معه هدى.

فلما كان يوم التروية توجّهوا إلى منى، فأهلّوا بالحجّ وركب رسول الله صلى الله عليه وآله فصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقتية من شعر فضربت له بنمرة، فسار رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا تشكُّ قريش إلّا أنّه واقفٌ عند المشعر الحرام أو المزدلفه، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى أتى عرفه فوجد القبّة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها، حتى إذا زاغت الشمس، أمر بالقصواء فرُحلت له. فأتى بطن الوادي. فخطب الناس وقال:

إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوعٌ، ودماء الجاهلية موضوعة. وإنّ أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث. كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيلٌ، وربّ الجاهلية موضوع، وأول ربّ أضع من ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنّه موضوع كلّ، فاتّقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنّ بأمان الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله، ولكم عليهنّ ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهنّ ضرباً غير مبرح، ولهنّ عليكم رزقهنّ

ص: ٢٤٣

وكسوتهن بالمعروف. وقد تركت فيكم ما لم تصلوا إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأدبت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات. ثم أذن، ثم أقام فصلي الظهر، ثم أقام فصلي العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وآله حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل جبل المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس. وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله صلى الله عليه وآله وقد شق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول- أي يشير بيده اليمنى-: أيها الناس! السكينة السكينة كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد. حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله حتى طلع الفجر، وصلاه حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحدته. فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس،

ص: ٢٤٤

وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر، أبيض، وسيماً. فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وآله، مرت به ظعن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع النبي صلى الله عليه وآله يده على وجه الفضل فحوّل الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحوّل رسول الله صلى الله عليه وآله يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، حتى أتى بطن محسر، فحرّك قليلاً، ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمره الكبرى.

حتى أتى الجمره التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف، رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنه ببضعة، فجعلت في قدر، فطبخت، فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وآله فأفاض إلى البيت، وصلّى بمكة الظهر، فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم، فقال: انزعوا بنى عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرّب منه (١).

- القصواء: لغة، الناقة التي قطع طرف أذننها. وقيل: اسم لناقته بلا قطع أذن.

وقيل: بل للقطع.

- النساجة - ويقال: ساجة - هي الطيلسان.

- والمشجب كمنبر، عيدان تضم أصولها وتفرج رؤوسها توضع عليه الملابس.

- استتفري بالسين والتاء والتاء والفاء، أى تحفظى بثوب من نزول الدم وأحرمى. بذى الحليفة، صلاة العصر.

ركب ناقته القصواء وأهل بالحج، أى فى أيام الحج وإلا فهى معلومة وعملوها غير مرة...

١- انظر التاج الجامع ٢: ١٥٣-١٥٩؛ رواه مسلم وأبو داود بهذا اللفظ، ورواه النسائي مختصراً، وللبخارى والترمذى بعضه.

ص: ٢٤٥

- استلم الركن، أى الحجر الأسود بمسحه وتقبيله.
- أى الباب القريب من الصفا ويسمى باب بنى مخزوم.
- من استقبال الكعبة والتوحيد يتخلله الدعاء.
- أى لو أمكننى استدراك ما فات أو لو ظهر لى قبل الآن ما ظهر لى الآن ما سقت هدياً وعملت العمرة أولاً لأتمتع بمحظور الإحرام قبل الحج ولنفى ما يزعمه الناس من قبيحها فى أشهره وتطيباً لقلب من لم يهد من الأصحاب، ولا منافاة بين ما هنا وبين ما تقدم فى القرآن من الحديث القائل: وقل عمرة فى حجة، فإن هذا إباحة لها بعد حظرها.
- أى هل فسخ الحج إلى عمرة وجوازها فى شهر خاص بعامنا فقط أم دائماً؟
- فأجابه بالثانى وأكدته بتشبيك أصابعه وتكرير الجواب مرتين، وقوله: لا بل لابد أبد أى ليس جوازها خاصاً بهذا العام بل للأبد.
- أى بالورس ونحوه مما لا يجوز للمحرم.
- أى مع من أمرهم بالتمتع.
- أى بمنى وقد نزلوا وباتوا فيها.
- نمره بفتح فكسر، موضع قبيل عرفات ليس منها، بل بين الحل والحرم.
- إلا زائدة ونظم الكلام، ولا تشكك قريش فى أنه واقف بالمشعر الحرام وهو لفظ أبى داود، وكانت قريش تقف به فى الجاهلية؛ لأنه من الحرم ويقولون: نحن أهل الحرم فلا- نخرج عنه، وأما سائر العرب فكانوا يقفون بعرفات، فأمر النبى صلى الله عليه وآله بالوقوف بها، وهو قوله تعالى: «ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ»
- وادى عرنة الذى ليس من عرفة عند كافة العلماء إلا مالكا، وفيه استحباب الخطبة فى هذا المكان، وعليه أهل العلم كلهم إلا مالكا، ومذهب الشافعى وأحمد:
- أن فى الحج أربع خطب مندوبة: إحداها يوم السابع من ذى الحجة عند الكعبة، والثانية هذه التى يبطن عرنة يوم عرفات، والثالثة يوم النحر، والرابعة يوم النفر الأول، وكلها أفراد وبعد صلاة الظهر إلا التى يوم عرفة فإنها خطبتان، وقيل:

ص: ٢٤٤

الظهر، ويعلمهم فى كل خطبة ما يحتاجون إليه إلى الأخرى.

- لا قيمة له كالشىء الذى يداس.

- اسمه إياس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وآله.

- وهى فى حرب بنى سعد أصابه حجر، وهو يحبو بين البيوت فقتله.

- إنما نصّ على الدماء والربا لعظم شأنهما، ونص على دم ابن عمه وربا عمه لأنه أدعى إلى امتثال أمره حيث بدأ بنفسه وأهله، كقول

خطيب الأنبياء شعيب:

«وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ» (١)

- أى بأمانته وعهده فى شرعه.

- التى أمرنا بها وهى الإيجاب والقبول.

- أى فى الآخرة.

- ينكتها، بالتاء وصوابه بالموحدة أى يردّها إليهم.

- أى أمر بهما، وصلى الظهر والعصر جمع تقديم للنسك عند الحنفية وللسفر عند الشافعية.

- الموقف الخاص به فى عرفات، وهو بجوار الصخرات، أى الأحجار المفترشات فى أسفل جبل الرحمة الذى بوسط عرفات، فيستحب

الوقوف فيه أو بقربه بقدر الإمكان.

- نزل من عرفة إلى مزدلفة ويده زمام ناقته.

- الحبل: التلّ من الرمل.

- أى صلاهما جمع تأخير.

- بنحو لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير.

ص: ٢٤٧

- الظعن، بضمّتين جمع ظعينة كسفينته، وهي المرأة في الهودج.
  - مُحَسَّرٌ كُمُحَدَّثٌ: مكان قبل منى نزلت فيه النقمة على الجيش الذي جاء لهدم الكعبة، وسُمِّيَ بذلك لأن الفيل حسر فيه أى تعب وكلّ، كقوله تعالى: «يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ»، أى كليل.
  - وهي غير الطريق التي ذهب منها إلى عرفات تفاقلاً بتغير الحال كما دخل مكة من عليها وخرج من سفلاها.
  - بقرب مسجد الخيف وقوله: مثل حصى الخذف، صفة لسبع أى كحب الفول.
  - لا من أعلاه. وعن يمينه منى وعن يساره مكة المكرمة.
  - المنحر مكان النحر بقرب مسجد الخيف.
  - وهي التي ساقها معه، ونحر على ما غبر أى ما بقى من المائه، وهي ما جاء بها من اليمن فكان على شريكاً فى الهدى والنحر.
  - أى النبي صلى الله عليه وآله وعلى عليه السلام، فالأكل من هدى التطوع سنّه، بخلاف الهدى الواجب فلا يجوز الأكل منه..
  - أى ذهب إلى البيت فطاف طواف الإفاضة، وأما طوافه الأول فكان للقدوم.
  - أولاد العباس، لأن السقاية كانت وظيفتهم.
- أما رواية معاوية بن عمار فى حجّة الوداع، فهي كما فى كتاب الكافى:
- على بن إبراهيم، عن أبيه؛ ومحمد بن إسماعيل، عن الفضل بن شاذان جميعاً عن ابن أبي عمير، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله أقام بالمدينة عشر سنين لم يحجّ، ثم أنزل الله عزّ وجلّ عليه: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ» (١).

ص: ٢٤٨

فأمر المؤذنين أن يؤذنوا بأعلى أصواتهم بأن رسول الله صلى الله عليه وآله يحج في عامه هذا، فعلم به من حضر المدينة وأهل العوالي والأعراب، واجتمعوا لحج رسول الله صلى الله عليه وآله وإنما كانوا تابعين ينظرون ما يؤمرون ويتبعونه أو يصنع شيئاً فيصنعونه، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله في أربع بقين من ذي القعدة، فلما انتهى إلى ذي الحليفة (١) زالت الشمس فاغتسل، ثم خرج حتى أتى المسجد الذي عند الشجرة فصلّى فيه الظهر وعزم بالحج مفرداً، وخرج حتى انتهى إلى البيداء عند الميل الأوّل فصّف له سماطان، فلبى بالحج مفرداً وساق الهدى ستاً وستين أو أربعاً وستين حتى انتهى إلى مكة في سلخ أربع من ذي الحجة (٢) فطاف بالبيت سبعة أشواط ثم صلّى ركعتين خلف مقام إبراهيم عليه السلام ثم عاد إلى الحجر فاستلمه، وقد كان استلمه في أوّل طوافه ثم قال: إن الصفا والمروة من شعائر الله. فأبدأ بما بدأ الله تعالى به.

وإن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون فأنزل الله عزّ وجلّ: «إِنَّ الصَّفاَ وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا» (١)

، ثم أتى الصفا فصعد عليه واستقبل الركن اليماني فحمد الله وأثنى عليه ودعا مقدار ما يقرأ سورة البقرة مترسلاً، ثم انحدر وعاد إلى الصفا فوقف عليها، ثم انحدر إلى المروة حتى فرغ من سعيه، فلما فرغ من سعيه وهو على المروة أقبل على الناس بوجهه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

إنّ هذا جبرئيل - وأوماً بيده إلى خلفه - يأمرني أن آمر من لم يسق هدياً أن يحلّ، ولو استقبلت من أمرى ما استدبرت لصنعت مثل ما أمرتكم (٣)، ولكنتى سقت الهدى ولا - ينبغى لسائق الهدى أن يحلّ حتى يبلغ الهدى محلّه؛ قال: فقال له رجل من القوم: لنخرجن حجّاجاً ورؤوسنا وشعورنا تقطر (٤)؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: أما

ص: ٢٤٩

إِنَّكَ لَنْ تَؤْمِنَ بِهَذَا أَبَدًا، فَقَالَ لَهُ سِرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جَعْشَمِ الْكِنَانِيِّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَّمْنَا دِينَنَا كَأَنَّا خَلَقْنَا الْيَوْمَ فَهَذَا الَّذِي أَمَرْتَنَا بِهِ لَعَامِنَا هَذَا أَمْ لِمَا يَسْتَقْبَلُ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: بَلْ هُوَ لِلْأَبَدِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ شَبَّكَ أَصَابِعَهُ وَقَالَ: دَخَلْتَ الْعَمْرَةَ فِي الْحَجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَ: وَقَدِمَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْيَمَنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ بِمَكَّةَ فَدَخَلَ عَلَيَّ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَهِيَ قَدْ أَحَلَّتْ فَوَجَدَ رِيحًا طَيِّبَةً وَوَجَدَ عَلَيْهَا ثِيَابًا مَصْبُوغَةً، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا فَاطِمَةُ؟ فَقَالَتْ: أَمَرْنَا بِهَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَخَرَجَ عَلَيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُسْتَفْتِيًا، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنِّي رَأَيْتُ فَاطِمَةَ قَدْ أَحَلَّتْ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ مَصْبُوغَةٌ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَنَا أَمَرْتُ النَّاسَ بِذَلِكَ فَأَنْتِ يَا عَلِيُّ يَا عَلِيُّ بِمَا أَهَلَّلْتَ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِهْلَالًا كِإِهْلَالِ النَّبِيِّ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: قَرِّ عَلِيَّ إِحْرَامَكَ مِثْلِي وَأَنْتَ شَرِيكِي فِي هُدْيِي.

قَالَ: وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِمَكَّةَ بِالْبَطْحَاءِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَلَمْ يَنْزِلِ الدَّوْرُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ أَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَغْتَسِلُوا وَيَهْلُوا بِالْحَجِّ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ» (١)، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابُهُ مَهْلِينَ بِالْحَجِّ، حَتَّى أَتَى مِنْهُ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ الْآخِرَةَ وَالْفَجْرَ، ثُمَّ غَدَا وَالنَّاسَ مَعَهُ وَكَانَتْ قَرِيشٌ تَفِيضُ مِنَ الْمَزْدَلِفَةِ وَهِيَ جَمْعٌ، وَيَمْنَعُونَ النَّاسَ أَنْ يَفِيضُوا مِنْهَا، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَرِيشٌ تَرْجُو أَنْ تَكُونَ إِفَاضَتَهُ مِنْ حَيْثُ كَانُوا يَفِيضُونَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ: «تُمْ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ» (٢)، يَعْنِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ فِي إِفَاضَتِهِمْ مِنْهَا وَمَنْ كَانَ بَعْدَهُمْ.

فَلَمَّا رَأَتْ قَرِيشٌ أَنَّ قَبِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَدْ مَضَتْ كَأَنَّهُ دَخَلَ فِي أَنْفُسِهِمْ شَيْءٌ لِلَّذِي كَانُوا يَرْجُونَ مِنَ الْإِفَاضَةِ مِنْ مَكَانِهِمْ حَتَّى انْتَهَى إِلَى نَمْرَةَ وَهِيَ بَطْنُ عَرْنَةَ بِحِيَالِ الْأَرَاكِ، فَضَرَبَتْ قَبِيَّةَ وَضَرَبَ النَّاسَ أَخِيَّتَهُمْ عِنْدَهَا، فَلَمَّا زَالَتْ

١- آل عمران: ٨٩.

٢- البقرة: ١٩٨.



ص: ٢٥٠

الشمس خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه قريش وقد اغتسل وقطع التلبية حتى وقف بالمسجد، فوعظ الناس وأمرهم ونهاهم، ثم صلى الظهر والعصر بأذان وإقامتين.

ثم مضى إلى الموقف فوقف به فجعل الناس يتدرون أخفاف ناقته يقفون إلى جانبها فنحاهما، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيها الناس ليس موضع أخفاف ناقتي بالموقف، ولكن هذا كله - وأوما بيده إلى الموقف - فتفرق الناس وفعل مثل ذلك بالمزدلفة فوقف الناس حتى وقع القرص قرص الشمس، ثم أفاض وأمر الناس بالدعة حتى انتهى إلى المزدلفة وهو المشعر الحرام، فصلى المغرب والعشاء الآخرة بأذان واحد وإقامتين، ثم أقام حتى صلى فيها الفجر، وعجل ضعفاء بني هاشم بليل وأمرهم أن لا يرموا الجمره جمره العقبة حتى تطلع الشمس، فلما أضاء له النهار أفاض حتى انتهى إلى منى، فرمى جمره العقبة وكان الهدى الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وأمه وأربعه وستين أو ستين وستين.

وجاء على عليه السلام بأربعه وثلاثين أو ستاً وثلاثين، فنحر رسول الله صلى الله عليه وآله ستين وستين، ونحر على عليه السلام أربعاً وثلاثين بدنه، وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يؤخذ من كل بدنه منها جذوة (٥) من لحم، ثم تطرح في برمه، ثم تطبخ، فأكل رسول الله صلى الله عليه وآله وعلى وحسيا من مرقها، ولم يعطيا الجزارين جلودها ولا جلالها ولا قلائدها، وتصدق به وحلق، وزار البيت ورجع إلى منى وأقام بها حتى كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق.

ثم رمى الجمار ونفر حتى انتهى إلى الأبطح فقالت له عائشة: يا رسول الله! ترجع نساؤك بحجته وعمره معاً وأرجع بحجته؟ فأقام بالأبطح وبعث معها عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم، فأهلت بعمره ثم جاءت وطافت بالبيت وصلت ركعتين عند مقام إبراهيم عليه السلام وسعت بين الصيفا والمروة، ثم أتت النبي صلى الله عليه وآله فارتحل من يومه ولم يدخل المسجد الحرام ولم يطف بالبيت ودخل من أعلى مكة من عقبه المدنين وخرج من أسفل مكة من ذى طوى.

ص: ٢٥١

تعليقات وتوضيحات

١- ذو الحليفة: موضع على ستة أميال من المدينة، وقوله: مفرداً، أى من دون عمرة معه فى نية واحدة، والبيداء: أرض ملساء بين الحرمين.

٢- أى آخر اليوم الرابع.

٣- يقصد أنه لو جاءنى جبرئيل بحج التمتع وإدخال العمرة فى الحج قبل سيقى الهدى كما جاءنى بعد ما سقت الهدى لصنعت مثل ما أمرتكم، يعنى لتمتعت بالعمرة وما سقت الهدى.

٤- تقطر من ماء غسل الجنابة.

٥- الجذوة: القطعة وهى مثلثة، والبرمة- بالضم- قدر من الحجارة.

نكتفى بهاتين الروايتين اللتين توضحان الدرس التعليمى للحج وسننه، الذى كان رسول الله صلى الله عليه وآله أستاذة، والحجاج المسلمون تلاميذه، وهو أول عمل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يهدف إليه فى حجة وداعه وفى لقائه الأخير مع المسلمين..

يقول الخبير:

«إن رسول الله حين وقف بعرفة، قال: هذا الموقف- للجبل الذى هو عليه- وكل عرفة موقف». وقال حين وقف على قزح صبيحة المزدلفة: «هذا الموقف، وكل مزدلفة موقف». ثم لما نحر بالمنحر، قال: «هذا المنحر، وكل منى منحر».

ففضى رسول الله الحج وقد أراهم مناسكهم، وعلمهم ما افترض عليهم فى حجهم فى المواقف ورمى الجمار والطواف بالبيت، وما أحل لهم فى حجهم وما حرم عليهم» (١).

وقد تخلل حجه هذا ومواقفه هنا وهناك فى مشاعر الحج ومنازله خطب راح صلوات الله عليه يلقى فيها أحكاماً شرعية وأهدافاً ومبادئ قيمة تحملها رسالته السماوية:

فخطب الناس فقال: «إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام عليكم... ألا كلّ

ص: ٢٥٢

شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة... وربما الجاهلية موضوع... فاتقوا الله فى النساء...». إنه حديث الغدير

ونتقل إلى دور آخر لا يقل أهمية عن ذلك الدور الأول إن لم نقل بأنه قد يفوقه، لما يتحمله من مسؤوليات عظيمة ينتظره المسلمون وتنتظره الرسالة. إنه دور القيادة من بعده صلى الله عليه وآله وهو يقف موقفه الأخير كما حج حجه الأخير. وكل ما صدر منه صلى الله عليه وآله كان تلبيةً لما أمرت به السماء وصاغته له إرادتها وهو ما نراه فى قراءتنا هذه لما نزل من قرآن وهو يغادر منازل الحج عائداً إلى المدينة المنورة، وإذا به يفاجئ الجميع ليوقفهم فى صحراء ملتهبة وتحت شمس حارقة، فى غدير خم، وهو ما يبين عظم ما كان يريد به ويهدف إليه، وليؤدى ما بقى عليه أداءه... إنه أمر السماء وما عليه إلا الامتثال بتليغه..

إنه حديث عرف عند الإمامية بأنه حديث الغدير، حديث الولاية الكبرى، وحديث إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الله تعالى. إنه حديث نزل به كتاب الله المبين: الآية ٦٧ و ٣ من سورة المائدة فى حجة الوداع.

حديث تواترت به السنة النبوية متناً وسنداً منذ عهد الصحابة والتابعين، وحظى بالكثير الكثير كتاباً وشعراً وأجادت فيه أفكارهم وقرائحهم..

وبدءاً نعرض ما جاء به الخبر:

... فلما قضى مناسكه، وانصرف راجعاً إلى المدينة، ومعه من كان من الجموع، ووصل إلى غدير «خم» من الجحفة التى تشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وذلك يوم الخميس، الثامن عشر من ذى الحجة، نزل جبرئيل الأمين عن الله تعالى بقوله: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ...» (١).

ص: ٢٥٣

وكان أوائل القوم قرييين من الجحفة، فأمر رسول الله أن يردّ من تقدم منهم، ويحبس من تأخر عنهم، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، نودي بالصلاة، صلاة الظهر، فصلّى بالناس، وكان يوماً حاراً، يضع الرجل بعض رداءه على رأسه وبعضه تحت قدميه من شدة الرمضاء، فلما انصرف من صلاته، قام خطيباً وسط القوم على أقتاب الإبل، وأسمع الجميع رافعاً عقيرته، فقال:

«أحمد لله، ونستعينه، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضل ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

أيها الناس، إني أوشك أن أدعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت ونصحت، وجهدت، فجزاك الله خيراً.

قال: ألتستم تشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن جنّته

ص: ٢٥٤

حق، وناره حق، وأن الموت حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من فى القبور؟  
قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: اللهم اشهد. ثم قال: أيها الناس، ألا تسمعون؟  
قالوا: نعم.

قال: فإننى فرط على الحوض، فانظرونى كيف تخلفونى فى الثقلين؟  
فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر، كتاب الله، والآخر الأصغر، عترتى، وإن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فلا تقدموهما  
فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم أخذ بيد على فرفعها، حتى رؤى إباطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟  
قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم.

فمن كنت مولا، فعلى مولا - يقولها ثلاث مرات - ثم قال: الله وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه،  
وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب.

ثم لم يتفرقا حتى نزل أمين وحى الله بقوله:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي».

فقال رسول الله: الله أكبر على إكمال النعمة ورضا الرب برسالتى والولاية لعلى من بعدى.

وقال حسان بن ثابت: أتأذن لى يا رسول الله أن أقول أبياتاً؟

قال: قل.

يناديهم يوم الغدير نبيهم بخم وأسمع بالنبى مناديا

بأنى مولاكم نعم ووليكم فقالوا ولم يبدو هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت ولينا ولا تجدن فى الخلق للأمر عاصيا

ص: ٢٥٥

فقال له قم يا على فإننى رضيتك من بعدى إماماً وهاذا  
فمن كنت مولاه فهذا ليه فكونوا له أنصار صدق مواليا  
هناك دعا اللهم وال وليه وكن للذى عادى علياً معاديا (١)

هذا مجمل ما جرى فى واقعه الغدير وحديثه، الذى لم يبلغ أى حديث درجته فى التواتر والتضافر ولا فى الاهتمام نشرًا ونظامًا..  
ونحن إذ نذكر هذا لنبين مورد نزول هاتين الآيتين، وأن الأولى جاءت لتأمر النبى صلى الله عليه وآله بتبليغ أمر ولاية على عليه السلام،  
وأن الثانية نزلت بعد إتمام ذلك التبليغ...

وبالتالى فهما آيتان قرآنيتان أنزلتا على صدره الشريف فى حجة الوداع، وهذه قراءة فيهما:

قراءة فيما نزل من القرآن فى حجة الوداع

«يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»  
(٢).

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» (٣)

فى شهر ذى القعدة من السنة العاشرة للهجرة النبوية قرر رسول الله صلى الله عليه وآله الخروج من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة  
حاجاً، لأنه لم يحج منذ أن هاجر من مكة إلى المدينة، وأذن فى الناس بالحج، فقدم المدينة خلق كثير من المسلمين ليأتوا به فى  
حجته التى سميت بعدة أسماء:

حجة الوداع، وحجة الإسلام، وحجة البلاغ، وحجة الكمال، وحجة التمام.

واستندت تسميتها بالأسماء الثلاثة الأخيرة إلى الآيتين الكريمتين من سورة

١- انظر الميزان، البحث الروائى، ومجمع البيان فى تفسير الآيه، وكتاب الغدير للشيخ الأمينى.

٢- المائدة: ٦٧.

٣- المائدة: ٣.

ص: ٢٥٦

المائدة اللتين نزلتا في حجته المذكورة واللتين ذكرناهما آنفاً.

وهي حجة الوداع لأنه لم يحج بعدها إلى أن توفاه الله تعالى بعد ثلاثة أشهر تقريباً. فقد ودّع الناس بعد انتهاء خطبته في عرفات ومنى، ومن هنا قال الناس عنها: حجة الوداع، ويقول الطبرى: إنها سميت حجة الوداع وحجة البلاغ. ووجه التسميتين الأخيرتين يعود إلى نزول الآية التي أعلنت إتمام الدين «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» في تلك السفرة، وإلى قول الرسول صلى الله عليه وآله: «ألا هل بلغت، اللهم اشهد» تكراراً في خطبته (١). التفت حول رسول الله صلى الله عليه وآله في حجته هذه جموع كثيرة لا يعلم عددها إلا الله تعالى. وأقل ما حملته الروايات هو تسعون ألفاً أو يزيدون بعد أن انضم إليه في حجه المقيمون في مكة والقادمون من اليمن.

وقت نزول الآية ٦٧ من المائدة

وقع الخلاف بين المفسرين في وقت نزول هذه الآية:

فبعد اتفاقهم أنها نزلت في السنة العاشرة للهجرة وفي حجة الوداع، اختلفوا في يوم نزولها ومكانه.

رأى يقول: إن هذه الآية نزلت يوم الجمعة، وكان يوم عرفة بعد العصر في حجة الوداع سنة عشر، والنبى صلى الله عليه وآله واقف بعرفات على ناقته العضاء. وهو ما عليه مشهور أهل السنة.

ورأى يقول: لما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله مناسكه وانصرف راجعاً إلى المدينة المنورة ووصل إلى غدير «خم» من الجحفة، مفترق تشعب فيه طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، وكان ذلك يوم الخميس، الثامن عشر من ذى الحجة. نزل جبرئيل الأمين بالآية. وهو ما عليه الإمامية.

١- انظر: طبقات ابن سعد ٢: ١٨٤؛ وتاريخ الطبرى ٢: ٢٠٦.

ص: ٢٥٧

وفى سند عن أبى سعيد الخدرى أنه قال:

نزلت هذه الآية: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» يوم «غدیر خم» فى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

المراد من الآية الكريمة

اختلفوا فى مراد الآية وفيمن نزلت حتى تجاوز ذلك عشرة أقوال، وقبل التحدث عن أهمها أرى من المناسب أن نستخلص ما حملته الآية نفسها من خصائص أو نكات علمية يمكننا الاستعانة بها والاتكاء عليها لمعرفة أى الآراء هو المناسب أو الأرجح لمعرفة المراد من الآية الكريمة.

فقد استوقفتنى هذه الخصائص طويلاً والذى استوقفتنى أكثر هو الآراء التى راح عدد من المفسرين يذكرونها لتفسير مراد الآية الكريمة دون النظر والاعتناء بمقاطع الآية التى تتوفر على أمور مهمة لا يصح التغافل عنها أو تركها إذا ما أراد أحد معرفة مراد الآية وما تريده وما تهدف إليه.

هناك أمور خمسة تتوفر عليها الآية المباركة يمكن أن يتوكأ عليها الباحث لمعرفة مراد الآية المباركة التى ابتدأت بخطاب:

«يا أَيُّهَا الرَّسُولُ» وهو أمر لم يأت فى الخطابات القرآنية إلا- هذه المرة و «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ...» (١).

ربما تكون الحكمة- والله أعلم- فى أنه ناداه بأشرف الصفات وهو «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ» لأن الرسول مهمته الرئيسية هى التبليغ، ولإعطاء أهمية كبيرة للوظيفة التى كلف بها...

بعد هذا نعود إلى ذكر الأمور أو النكات، وهى:



ص: ٢٥٨

أولاً:

إن الآية كانت في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وقد تكون الأخيرة أو آخر ما نزل من القرآن الكريم، فقد انتقل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى جوار ربه تعالى بعد واحد وثمانين يوماً أو اثنين وثمانين يوماً من نزولها.

ثانياً:

إنه أمر نازل من السماء، وليس لرسول الله صلى الله عليه وآله أى علاقة فى صناعته لا من قريب ولا من بعيد. صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ \* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ» (١). وأنه لا يؤسس قراراً أو حكماً من نفسه ما لم يأت به وحى السماء وأمرها وكيف ينشئ حكماً أو أمراً دون إرادة السماء «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ \* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ \* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ \* فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (٢).

لكن هذا التأكيد الوارد فى الآية له ما يبرره، وهو أن الآية والأمر الوارد فيها فيه مجال أو مساحة يتحرك فيها المتقولون والمتشككون الذين يلقون بدلهم تقولاً وتشكيكاً فيما تريده الآية، وهم كثر فى وقت نزولها... ولهذا راحت الآية تبعد رسول الله صلى الله عليه وآله كما هو واضح من أسلوبها، عن أى مسؤولية وتبعه فى تحمل ما جاءت به وليس له دور إلا فى تبليغها وتبليغها فقط. ومع هذا لم ينجو من الاتهام..

ثالثاً:

إنه أمر مهم جداً وليس أمراً فرعياً أو جزئياً بل هو بدرجة أن عدم تبليغه يساوى عدم تبليغ الرسالة كاملة بما بذله النبى صلى الله عليه وآله طيلة ثلاث وعشرين سنة أو تزيد، وبما تحمله من توضيحات جسام منه صلى الله عليه وآله وممن معه.

رابعاً:

إن هناك فى الآية خطاباً أو شرطاً وجزاء يتصف بأنه شديد اللهجة «وَأِنْ لَمْ تَفْعَلْ» ولا يخلو هذا من تهديد للرسول صلى الله عليه وآله إذا ما تأخر فى تبليغ ما أنزل أو امتنع لأى سبب كان، يأتى الجزاء وهو يحمل تهديداً ووعيداً يتمثل فى «فَمَا بَلَغَتْ رَسُولَتُهُ» أى إن لم تفعل ذلك فلك ما يوجب كتمان الوحي أو الرسالة كلها من العقاب، وهو شىء خطير.

١- النجم: ٣-٤.

٢- الحاقة: ٤٤-٤٧.

ص: ٢٥٩

خامساً:

إن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يخشى الناس فى تبليغه أو كان يحذر تبليغه بدليل ذيل الآية: «والله يعصمك من الناس» إن كنت خائفاً منهم أو متردداً. وهذا الخوف منه صلى الله عليه وآله أو التردد لم يكن على نفسه صلى الله عليه وآله - كما يتضح من سيرته وكدحه وجهده وجهاده فى سبيل الدعوة إلى الله تعالى ونشر دينه وتحكيم شريعته - بل على الرسالة نفسها أو عدم تحقق الأمر ومصاديقه خارجاً وعدم استجابة الناس له وخوفه عليهم وهو الحريص عليهم من أن يؤدى عدم استجابتهم للأمر النازل دخول النار، أو حذره من التشكيك به بل وقد يكون هناك اتهام لرسول الله صلى الله عليه وآله بالمحابة كما سنرى فى الوضع التاريخى إذا ما تحدثنا عنه. فكان يحتاج إلى تسديد جديد وعصمة من السماء تفلح من نفسه أسباب الخوف أو التردد و تمنع عنه كيد الآخرين ومزاعمهم ولو أثناء تبليغه الأمر أو حتى تتم الحجة فيه على الجميع...

بعد هذا نأتى إلى مناقشة أهم الأقوال فى الآية التى جمعها الفخر الرازى فى تفسيره الكبير، ومدى انطباق نكات الآية عليها لنصل أخيراً إلى الرأى الذى يمكن أن تنطبق عليه النكات المذكورة، فىكون هو المناسب أو الأرجح لتفسير مرادها، طبعاً هذا مع استبعاد الروايات من الفريقين، لأننا كما أسلفنا نريد أن نعيش مع الآية وأجوائها ونكاتها من داخلها فقط بعيداً عن الواقع التاريخى والروائى...

آراء فى سبب نزولها

بعد هذا نأتى إلى أهم آراء المفسرين حول سبب نزول الآية الكريمة، وبالتالى تبين المراد من الآية، ونرى مدى انطباق النكات أعلاه على كل واحد منها، لنصل أخيراً إلى الرأى الذى تنطبق عليه النقاط الخمس المذكورة، ويكون هو الراجح لمعرفة سببها ومرادها من داخل الآية نفسها ومن أجوائها بالذات بعيداً كما قلنا عن الروايات من الفريقين وما تذهب إليه فى تفسير الآية. نعم بعد أن نصل إلى القول المناسب لمراد الآية يمكن أن تكون الروايات وأيضاً الأمر التاريخى، أى اجتماع رسول الله صلى الله عليه وآله بالمسلمين فى موضع يقال له: غدیر خم، وحديثه إليهم وتبليغه ما

ص: ٢٦٠

أمرته السماء بقوله: «من كنت مولاه فهذا على مولاه...» وهو الرأى العاشر الذى دونه الفخر الرازى فى تفسير الآيه المباركه. تلك الروايات وهذه الواقعة فى غدیر خم وحتى ما ورد من قصائد وأشعار وآراء علماء ومؤرخين وأقوال عدد من الصحابه تؤيد وتبارك، وهى ليست قليلة يمكن أن تكون قرائن على صحة ما ذهب إليه الإمامية فى تفسير الآيه.

فنحن إذن أمام تفسيرات للآيه وآراء متعددة فى سبب نزولها، وحتى نرجح رأياً منها لا بد لنا من الاستعانة بما تحمله الآيه نفسها من قرائن وخصائص تعيننا على ذلك، والأخذ بالرأى المناسب لتفسيرها وترك غيره من الآراء التى قد تبتعد عن هذه القرائن أو لا تنطبق عليه تلك النكات الخمس التى اقتبست من داخل الآيه المباركه ومن دون اللجوء إلى الروايات أو إلى كل ما يمت إلى الروايات من الفريقين.

وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره القيم عشر أقوال ذكرها المفسرون فى سبب نزول الآيه نكتفى به؛ لأنه جمعها و نقف عند أهمها:

الأول:

لما نزلت آيتا التخيير وهما قوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكُ إِنْ كُنْتُمْ تُرْذِنُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتَّعُكُمْ وَأَسْرِحُكُمْ سِرَاحاً جَمِيلاً» وَإِنْ كُنْتُمْ تُرْذِنُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْراً عَظِيماً» (١) فلم يعرضها عليهن خوفاً من اختيارهن الدنيا فنزلت.

الجواب:

أولاً:

هاتان الآيتان نزلتا من سورة الأحزاب قبل آيتنا المذكورة فى البحث.

ثانياً:

إن هذا التخيير فى الآيتين يعد أمراً جزئياً لا يكون بدرجة كبيرة من الأهمية حتى يكون عدم تبليغه عدم تبليغ للرسالة بكاملها.

ص: ٢٤١

ثالثاً:

هل الخوف من اختيارهنّ الدنيا وبالتالي طلاقهن، وهو لا يريد ذلك لهنّ، يجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يحجم عن تخييرهن، وبالتالي يحتاج إلى آية أخرى تصرّ وتؤكد عليه أن يبلغهن ويخيرهن، وهل يحتاج التخيير هذا إلى «وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ»؟

رابعاً:

لقد أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله أزواجه بهذا التخيير الوارد فى الآيتين كما تقول التفاسير ولم يؤخره أو يتردد أو يخشى أحداً فيه.

الثانى:

نزلت فى أمر زيد وزينب بنت جحش.

«وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» (١).

الجواب:

أولاً:

جاءت هذه الآية فى بيان وتوضيح المناكح، وهى نزلت قبل آيتنا المذكورة فى السنة الخامسة للهجرة.

ثانياً:

تحمل أمراً جزئياً وليس له أهمية كبيرة يعادل عدم تبليغه على فرض أن لم يتم ذلك- عدم تبليغ الرسالة كاملة.

ثالثاً:

تزوج رسول الله صلى الله عليه وآله بزینب بعد طلاقها من قبل زيد، ووقع هذا فى السنة الخامسة للهجرة وقبل حجة الوداع بخمس سنوات تقريباً، وقبل نزول آية التبليغ التى نحن بصدددها. كما أن الأمر لا يحتاج إلى آية أخرى تحت رسول الله صلى الله عليه وآله على إجراء ذلك.

رابعاً:

انتهت الخشية المذكورة فى الآية على فرض وجودها بعد أن انتهى كل

ص: ٢٦٢

شئ وعرف الناس أنه صلى الله عليه وآله تزوج بزینب فلا- داعى للعصمة من الناس، كما فى آية التبليغ. فأى ضرورة لإنزال آية أخرى تحت الرسول صلى الله عليه وآله على إظهار ما عنده نحو زينب وقد بان كل شئ واتضح.

خامساً:

ثم ألا يعد هذا فى هذه الآية وآيتى التخيير أيضاً وطيلة هذه المدة حتى نزلت آية البلاغ «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» كتماً للوحى؟! وهذه أم المؤمنين عائشة تقول: «من زعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله كتم شيئاً من الوحى فقد أعظم الفرية على الله، والله تعالى يقول: «يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ» ولو كتم رسول الله شيئاً من الوحى لكتمت قوله «وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ» (١).

الثالث:

لما نزل قوله تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٢).

سكت الرسول صلى الله عليه وآله عن عيب آلهتهم فنزلت هذه الآية، وقال «بَلِّغْ»، يعنى معايب آلهتهم ولا- تخفها عنهم، والله يعصمك منهم.

الجواب:

أولاً:

الآية تحمل نهيًا عن سبّ الذين كفروا، يعنى لا تسبهم. وقد التزم رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا النهى ولم يسبهم فهو عمل بالآية ولم يخالفها. فما ضرورة لآية البلاغ وما تحمله. والرسول صلى الله عليه وآله لم يعمل شيئاً مخالفاً. نعم لو كان قد أمر بسبهم وامتنع- أى لم يعمل بذلك- تأتى آية البلاغ لتأمره بسبهم. اللهم إلا أن نقول: إنها أنهت العمل بتلك الآية الناهية عن السب فأمرت الرسول صلى الله عليه وآله بأن يسبهم ولا يخشاهم لأن الله يعصمه منهم. وليس فى آية البلاغ ما يشير إلى هذا ولو بلفظة قريبة للسباب.

١- انظر: الفخر الرازى، التفسير الكبير، تفسير الآية ٦٧ من سورة المائدة.

٢- الأنعام: ١٠٨.

ص: ٢٦٣

ثانياً:

هل سب الآلهة وعدمه يكون مساوياً لأصل الرسالة في الأهمية والخطورة؟!

ثالثاً:

وهل سب آلهتهم أهم من تهديمها وقد هدمها رسول الله صلى الله عليه وآله في فتح مكة؟!

رابعاً:

الآية المذكورة متقدمة على آية البلاغ.

الرابع:

نزلت في الجهاد، فإن المنافقين كانوا يكرهونه، فكان يمسك أحياناً عن حثهم على الجهاد.

الجواب:

وهو رأى عجيب وآيات الجهاد نزلت قبل آيتنا المذكورة، نزلت أثناء الدعوة، والإسلام في مسيرته كان محتاجاً إلى الجهاد ومقارعة الظالمين والمشركين والمنافقين. وآيات الجهاد عديدة نزل بها القرآن الكريم تحث المسلمين عليه وتبين أجر من جاهد وعمل به، وتفصح المتخلفين عنه وأكثرهم من المنافقين. ومن تلك الآيات: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» (١).

«انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ\* لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَمَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعِدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ\* عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» (٢).

وفيها حث عام على الجهاد.

وسورة التوبة نزلت في السنة التاسعة للهجرة، وسميت بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين بإظهار نفاقهم، وسميت المبعثرة لأنها تبعثر أسرار المنافقين. فهم

١- التوبة ٧٣، وانظر: التحريم: ٩.

٢- التوبة: ٤١-٤٣.

ص: ٢٦٤

مطالبون بالجهاد وراحوا يلوذون بأعداء باطله وبأيمان كاذبه...

فلم يتردد رسول الله صلى الله عليه وآله في تبليغ آيات الجهاد للمسلمين وفيهم المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، وكانوا يعيشون بين المسلمين، ولم يخش أحداً أبداً.

الخامس:

والفخر الرازي يذهب إلى أن الأولى حملة على أنه تعالى آمنه من مكر اليهود والنصارى وأمره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم، وذلك لأن ما قبل هذه الآية بكثير وما بعدها بكثير لما كان كلاماً مع اليهود والنصارى امتنع إلقاء هذه الآية الواحدة في السنين على وجه تكون أجنبية عما قبلها وما بعدها (١).

إذن ليس للرازي دليل يثبت به هذه الأولوية التي ذهب إليها إلا أن هذه الآية مسبوقة وملحوقه بآيات تتحدث عن اليهود والنصارى، فهو يستدل بسباق الآيات وحتى لا تكون هذه الآية مقحمة بينها، فلا بد من أن تكون ناظرة لمكرهم وخوف النبي صلى الله عليه وآله من ذلك.

والجواب:

أولاً:

إن الذي يناسب تفسيره أن تكون آية البلاغ نازلة أول دخول رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة المنورة أو وهو في المدينة، ويمتنع من التبليغ لخشيته اليهود والنصارى.

أما أنه صلى الله عليه وآله وقبل أن ينزل المدينة مهاجراً يرسل المبلغين، ومنهم مصعب بن عمير رضوان الله عليه، من مكة بعد بيعه الرضوان ليعلّموا من آمن من أهل المدينة أحكام الدين الجديد، ثم يهاجر إلى المدينة ويواصل دعوته وأنشطته ويقدم التضحيات العظيمة في معاركه، وينزل في السنة الخامسة للهجرة بعد معركة الخندق بيهود بنى قريظة حكم الصحابي الجليل سعد بن معاذ، فقتلت رجالهم

١- انظر: الرازي، التفسير الكبير، الآية.

ص: ٢٦٥

وسبيت نساؤهم وقسّمت أموالهم. وبعد أن قويت دولة رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة وعظمت شوكتها... تأتي الآية في السنة العاشرة للهجرة تؤمنه مكر أهل الكتاب وتأمّره بإظهار التبليغ من غير مبالاة منه بهم وهم ليسوا من القوة بحيث يخشاهم! أما القول بأنه صلى الله عليه وآله أمر بهذه الآية: «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» بتبليغ الرسالة أحكاماً وشرائع ومفاهيم فهو لا يصح؛ لأن الآية من أواخر ما أنزل من القرآن الكريم، وجاءت بعد ثلاث وعشرين سنة ورسول الله صلى الله عليه وآله يدعو قومه وأمتة إلى عبادة الله تعالى وتحكيم شريعته والتزام أحكامه وتعاليمه. فهو بلّغ الرسالة. ولو كانت الآية نازلة في بداية الدعوة لكان هذا الكلام سليماً.

ولو قلنا: إن «... ما أنزل...» هو تبليغ الرسالة أي «وإن لم تبّلع الرسالة فما بلغت الرسالة» فهو كلام مختل لاتحاد الشرط والجزاء، وهذا كقولنا: «إن أتى زيد فقد جاء زيد» أو: «إن درست فقد درست». وهذا لا وجه له إلا في شواذ البلاغة. ويحتاج إلى مزيد عناية وتأويل. والمفروض أن الشرط والجزاء متغايران فتغايرهما تتم الفائدة، ويكون الكلام متيناً سليماً. إذن، الشيء المأمور به رسول الله صلى الله عليه وآله في الآية «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» هو: شيء آخر غير أصل الرسالة.

وهو شيء اختصت السماء به، وليس هو من اجتهاد رسول الله وعندياته.

وأن هذا الشيء ليس أمراً عادياً أو حكماً فرعياً، بل هو شيء كبير بدرجه أن عدم تبليغه يساوق عدم تبليغ الرسالة.

وأن عدم تبليغه من قبلك يارسول الله صلى الله عليه وآله وأنت في آخر حياتك يساوى عدم تبليغ الرسالة التي بلغت واستغرقت ثلاثاً وعشرين سنة وجهوداً عظيمة وتضحيات جساماً وأموالاً كثيرة... وأن كل هذا سيذهب سدى إن لم تبليغ يارسول الله صلى الله عليه وآله و آله «ما أنزل إليك من ربك».

وأن هذا الشيء يثير في نفس رسول الله الخوف أو التردد، أو أن يؤخره



ص: ٢٦٦

إلى وقت آخر أكثر مناسبة فيحتاج معه إلى «وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ». فيمنع هذا المقطع من الآية كل ذلك ويلقى الحجة عليه بتحذيره من التأخر فى الأداء.

إذن هوشىء مهم جداً يحتاج معه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى دعم خاص من السماء وتسديد خاص أيضاً «والله يعصمك من الناس».

فيكون تقدير الكلام هكذا:

إن لم تبلغه فما بلغت رسالته.

فالآية جاءت وأمرته بتبليغ شىء آخر غير الرسالة فما هو هذا الشىء؟

إنه القول الذى ذكره الفخر الرازى فى تفسيره الكبير قولاً عاشراً وهذا نصه:

القول العاشر:

نزلت الآية فى فضل على بن أبى طالب عليه السلام، ولما نزلت هذه الآية أخذ بيده وقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه».

فلقبه عمر فقال: هنيئاً لك يا ابن أبى طالب، أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن على (١).

وهذا هو قول الإمامية وتنطبق عليه النكات التى تستخلص من الآية نفسها، وهو ما أيدته روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام ومن غيرهم.

ويخلص السيد الطباطبائى فى تفسيره للآية إلى القول التالى:...

«ومن جميع ما تقدم يظهر أن تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبى صلى الله عليه وآله فى حفظه وتديير أمره، وإرشاد الأمة القائمة به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحلة القيام بالحامل الشخصى إلى مرحلة القيام بالحامل النوعى، ويكون ذلك إكمالاً للدين بتحويله من صفة الحدوث إلى صفة البقاء، وإتماماً لهذه النعمة، وليس يبعد أن يكون قوله تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ

١- أنظر: تفسير الرازى، الآية.

ص: ٢٤٧

الْكِتَابِ لَوْ يُرَدُّوْنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْرِفُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١)

باشتماله على قوله: «حتى يأتى» إشارة إلى هذا المعنى.

وهذا يؤيد ما ورد من الروايات أن الآية نزلت يوم غدیر خم، وهو اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة فى أمر ولاية على عليه السلام، وعلى هذا فى ربط الفقرتان أوضح الارتباط، ولا يرد عليه شى من الإشكالات المتقدمة...  
ثم يواصل السيد حديثه حتى يصل به إلى:

«فمحصل معنى الآية: اليوم- وهو اليوم الذى يئس فيه الذين كفروا من دينكم- أكملت لكم مجموع المعارف الدينية التى أنزلتها إليكم بفرض الولاية، وأتممت عليكم نعمتى وهى الولاية التى هى إدارة أمور الدين وتديرها تديراً إلهياً، فإنها كانت إلى اليوم ولاية الله ورسوله، وهى إنما تكفى ما دام الوحي ينزل، ولا تكفى لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي، ولا رسول بين الناس يحمى دين الله ويذب عنه، بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك، وهو ولى الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه وآله القيم على أمور الدين والأمة.

فالولاية مشروعاً واحدة، كانت ناقصة غير تامة حتى إذا تمت بنصب ولى الأمر بعد النبى، وإذا كمل الدين فى تشريعه، وتمت نعمه الولاية فقد رضيت لكم- من حيث الدين- الإسلام الذى هو دين التوحيد الذى لا يعبد فيه إلا الله ولا يطاع فيه- والطاعة عبادة- إلا الله ومن أمر بطاعته من رسول أو ولى.

فالآية تنبئ عن أن المؤمنين اليوم فى أمن بعد خوفهم، وأن الله رضى لهم أن يتدينوا بالإسلام الذى هو دين التوحيد، فعليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً بطاعه غير الله أو من أمر بطاعته...» (٢).

١- البقرة: ١٠٩.

٢- انظر تفسير الميزان للعلامة الطباطبائى، الآية، وفيه بحث قيم و نافع.

ص: ٢٦٨

وختاماً نقول:

إن الواقعة التاريخية التي حدثت في غدير خم وما تعرّض له رسول الله صلى الله عليه وآله من اتهام بمحاباة ابن عمه، كما عن بعضهم، وبعدم قبول من آخرين بعد ذلك، قد يكون كل هذا وغيره هو ما يبرر خشيته صلى الله عليه وآله. صحيح أن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يتعرّض حينها إلى أذى عظيم منهم، إلا أنهم راحوا يحيكون المؤامرات للإيقاع بمشروعه في الإمامة بعد ذلك.

وصدق القائل:

فلم أر مثل ذاك اليوم يوماً ولم أر مثله حقاً أضيعاً

فالإمامة أمر عظيم وخطير، ودورها في الأمة مسؤوليه ولها آثار ليست سهلة، لأنها مكمله لدور النبوة التي ختمت برسول الله صلى الله عليه وآله، بل لا تقل أهمية عن ذلك الدور في بناء فكر الأمة وعقيدتها ومعارفها والمحافظة عليها، وتجذير التغيير النفسى والاجتماعى فيها، ومنعها من الانحراف عن الصراط المستقيم، وصيانتها من التشتت والتمزق، وذلك بتقديم النموذج الرائع للإسلام النقى الأصيل، الذى لا بد أن يتم عبر شخصيات قد صيغت صياغة خاصة وبنيت بناءً متيناً وامتلكت قدرات وملاكات تفردت بها وجعلتها قادرة على مواصلة وظيفتها بكل وعى وعلم وخلق وحرص وصدق وإخلاص...

## مشاهد البعثة النبوية الشريفة من خلال نهج البلاغة

الدكتور نادر الفضلي

تمهيد

نهج البلاغة: هو كتاب الحياة، كتاب الأخلاق، كتاب الإنسانية، كتاب الدين، كتاب العقيدة. وصدقاً ففي هذا الكتاب الشريف توجد الإجابة على كثير من التساؤلات، وحلولها العملية، وهو يلبي الكثير من الطلبات الفكرية والروحية في حياة الناس.

لقد لقبوا «نهج البلاغة» بلقبٍ ممتاز: «وليد القرآن» وما أليقهُ من لقبٍ!!

فكما أن القرآن هو دليل الحياة في الدنيا، ومرشد الإنسان إلى السعادة في الآخرة؛ فإنّ تعاليم نهج البلاغة كذلك تضمن فلاحنا في الدنيا والآخرة.

وكما أن القرآن يؤمّن حاجات البشر إلى يوم القيامة؛ فنهج البلاغة كذلك يحتوي على تعاليم خالدة تؤمّن حاجاتٍ فكرية وروحية للناس.

وكما أن القرآن أصبح بيننا - نحن المسلمين - غريباً مهجوراً وبعيداً؛ فوليد القرآن أصبح أكثر غربةً وهجراناً.

وكما أن من اللازم أن نتعرّف على القرآن وتعاليمه أكثر فأكثر؛ فكذلك من اللازم أن نتعرّف على نهج البلاغة ونطبّق تعاليمه الإلهية والسماوية.

ص: ٢٧٠

ونريد الآن أن نتقدم إلى الأمام خطوةً فخطوةً، ونتعرف على نهج البلاغة أكثر ونستأنس به أكثر. نريد أن نجبر تقصيرنا ونترك الثثرة وندخل ميدان التطبيق.

ونريد هنا أن نتعلم نهج البلاغة، ونتعرف على فصول مختارة من هذا الكتاب المعجب، ونطبق تعاليمه الحيوية في حياتنا الفردية و علاقاتنا الاجتماعية.

ندعوكم إلى صُحبتنا على هذا الطريق المقدس، معاً، سدّد الله خطواتكم في السير أبداً على طريق عليّ عليه السلام.

ونتعرّف هنا على موضوع مهمّ وشيق، وهو بحث النبوة الخاصّة به يعنى حوادث نبوة سيدنا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و ثمار بعثته، و اعتمادنا أساساً على ما نستفيده من كلمات الإمام عليّ عليه السلام، ونسعى أن نقدّم صورةً واضحةً وهادفةً من حادثه البعثة النبوية المثيرة.

نقدّم (رواية البعثة الشريفة) في ستّة فصول، تحتوى على ثلاثين مشهداً، قال تعالى: «لقد جاءكم رسولٌ من أنفسكم عزيزٌ عليه ما عنتم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ»

إنّ الوقوف على الفترة الموحشة والسنوات السوداء للعالم في عصر البعثة النبوية، وسماع رواية من كان هو يعيش تلك الفترة ويستمدّ من العلم الإلهي، وسماع حديث البعثة المثير من لسانه، وهو ممّن حضر ونظر ذلك الحدث المثير والوحيد في التاريخ، لهو أمرٌ شيق ولذيذ!

ومعرفة الحوادث التي استتبعها البعثة، وما جرى على يد الرسول والمسلمين الصادقين الأوائل من المواقف الرجولية، في ذلك العالم المضطرب حينذاك، وبلسان ذلك الراوى العظيم نفسه، أيضاً أمرٌ ملفت وشيق.

فلنسمع حديث البعثة الشريفة من وريثها الإمام عليّ عليه السلام؛ كي تصبح معرفتنا

ص: ٢٧١

والتفاتنا إلى هذا الحدث العجيب وآثاره مصباحاً يضيء لنا في حياتنا في هذا العالم المضطرب الذي لا يعدو ذلك العصر المظلم.

الفصل الأول: العالم في عصر البعثة

المشهد الأول: الهرج و المرج العالمي

المشهد الثاني: سعة الضلال

المشهد الثالث: حكومة الشيطان

المشهد الرابع: زوال الدنيا

المشهد الخامس: من أيام العرب

المشهد الأول: الهرج و المرج العالمي

«أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَ طُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَ اعْتِرَافٍ مِنَ الْفِتَنِ وَ انْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وَ تَلَطُّ مِنَ الْحُرُوبِ، وَ الدُّنْيَا كَأَنَّهَا نُورٌ ظَاهِرٌ الْغُرُورِ، عَلَى حِينِ اضْتِفَارٍ مِنْ وَرَقِهَا وَ إِيَاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَ اغْوَارٍ مِنْ مَائِهَا، قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى وَ ظَهَرَتْ أَعْلَامُ الرَّدَى، فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ لِأَهْلِهَا غَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا، ثَمَرُهَا الْفِتْنَةُ وَ طَعَامُهَا الْجِيفَةُ، وَ شِعَارُهَا الْخَوْفُ وَ دِتَارُهَا السَّيْفُ (١).

المشهد الثاني: سعة الضلال

بَعَثَهُ وَ النَّاسُ ضَلَالٌ فِي حَيْرَةٍ، وَ حَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ وَ اسْتَرَلَتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَ اسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَ بَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ (٢).

١- نهج البلاغة: ١٢١، الخطبة ٨٩؛ اعتمدنا النص الذي حققه الدكتور صبحي الصالح، طبعه أولى، دار الكتاب اللبناني، بيروت،

١٣٨٧-١٩٦٨.

٢- نهج البلاغة: ١٤٠، الخطبة ٩٥.

ص: ٢٧٢

وَ أَهْلَ الْأَرْضِ يُؤْمِنُ مِلًّا مُتَّفَقَةً، وَأَهْوَاءَ مُتَشَرِّهَةً، وَ طَرَائِقَ مُشْتَبِهَةً بَيْنَ مُسَبِّهِ لَلَّهِ بِخَلْقِهِ، أَوْ مُلْحِدٍ فِي اسْمِهِ، أَوْ مُشِيرٍ إِلَى غَيْرِهِ (١).  
ابْتَعَثَهُ وَ النَّاسَ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ، وَ يَمْوَجُونَ فِي حَيْرَةٍ، قَدْ قَادَتْهُمْ أَرْمَةُ الْحَيْنِ، وَ اسْتَعَلَقَتْ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ أَقْفَالُ الرَّيْنِ (٢).

المشهد الثالث: حكومة الشيطان:

النَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَدَمَ فِيهَا حَيْلُ الدِّينِ، وَ تَزَعَزَعَتْ سَوَارِي الْيَقِينِ، وَ اخْتَلَفَ النَّجْرُ وَ تَشَدَّتْ الْأَمْرُ، وَ ضَاقَ الْمَخْرَجُ وَ عَمِيَ الْمَضِيدُ،  
فَالْهُدَى حَامِلٌ وَ الْعَمَى شَامِلٌ، عُصَى الرَّحْمَنِ وَ نُصِرَ الشَّيْطَانُ وَ خُذِلَ الْإِيمَانُ، فَانْهَارَتْ دَعَائِمُهُ وَ تَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَ دَرَسَتْ سُبُلُهُ وَ عَفَتْ  
شُرُكُهُ، أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ وَ وَرَدُوا مَنَاهِلَهُ، بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ وَ قَامَ لَوَاؤُهُ، فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا وَ وَطِئَتْهُمْ بِأُظْلَافِهَا وَ  
قَامَتْ عَلَى سِنَابِكِهَا، فَهُمْ فِيهَا تَائِهُونَ حَائِزُونَ جَاهِلُونَ مُفْتُونُونَ، فِي خَيْرِ دَارٍ وَ شَرِّ جِيرَانٍ، نَوْمُهُمْ سُهُودٌ وَ كَحْلُهُمْ دُمُوعٌ، بِأَرْضٍ عَالِمِهَا  
مُلَجَّمٌ وَ جَاهِلِهَا مُكْرَمٌ (٣).

المشهد الرابع: زوال الدنيا:

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْانْقِطَاعُ، وَ أَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعُ، وَ أَظْلَمَتْ بِهِجَتِهَا بَعْدَ  
إِشْرَاقِ، وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَ حَسُنَ مِنْهَا مَهَادٌ، وَ أَرَفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي انْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَ اقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وَ تَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا،  
وَ أَنْفِصَامٍ مِنْ حَلَقَتِهَا، وَ انْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَ عَفَاءٍ مِنْ أَعْلَامِهَا وَ تَكْشُفٍ مِنْ

١- نهج البلاغة: ٤٤، الخطبة ١.

٢- نهج البلاغة: ٢٨٣، الخطبة ١٩١.

٣- نهج البلاغة: ٤٦، الخطبة ٢.

ص: ٢٧٣

عَوْرَاتِهَا، وَ قَصَرَ مِنْ طَوْلِهَا (١).

المشهد الخامس: فى أيام العرب:

إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَ أَمِينًا عَلَى التَّنْزِيلِ، وَ أَنْتُمْ - مَعْشَرَ الْعَرَبِ - عَلَى شَرِّ دِينٍ وَ فِي شَرِّ دَارٍ، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ، وَ حَيَاتٍ صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الْكَدِرَ، وَ تَأْكُلُونَ الْجَشِبَ، وَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَ تَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَ الْأَثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ (٢).

فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَفْرَأُ كِتَابًا، وَ لَا يَدْعَى نُبُوَّةً وَ لَا وَحْيًا (٣).

الفصل الثانى: حادثة البعثة

المشهد الأول: الرسول المختار من الله

المشهد الثانى: شاهد البعثة

المشهد الثالث: الشكّ والإنكار

المشهد الرابع: علامات النبوة

المشهد الخامس: آية الإيمان

المشهد الأول: الرسول المختار من الله

اخْتَارَهُ مِنْ شَجَرَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَ مَشَكَاهُ الضِّيَاءِ، وَ ذُوَائِيهِ الْعُلْيَاءِ، وَ سِرَّةَ الْبُطْحَاءِ، وَ مَصَابِيحِ الظُّلْمِ، وَ يَنَابِيعِ الْحِكْمَةِ. طَيِّبٌ دَوَّارٌ بِطَبِّهِ قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَهُ وَأَحْمَى

١- نهج البلاغة: ٣١٤، الخطبة ١٩٨.

٢- نهج البلاغة: ٦٨، الخطبة ٢٦.

٣- نهج البلاغة: ١٥٠، الخطبة ١٠٤.



ص: ٢٧٤

مَوَاسِمَهُ، يَضَعُ ذَلِكُ حَيْثُ الْحَاجِئُ إِلَيْهِ، مِنْ قُلُوبِ عُمِيٍّ وَأَذَانِ صُمٍَّ وَالسَّيْنَةِ بِكُمْ، مُتَّبِعٍ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْعَفْلَةِ وَمِوَاطِنَ الْحَيْرَةِ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ، فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالْأَنْعَامِ السَّائِمَةِ وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ (١).

حَتَّى أَفْضَتْ كَرَامِيَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَيَّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنبِتًا، وَأَعَزَّ الْأَرْوَاحَ مَغْرَسًا، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءُهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أَمْنَاءُهُ، عَثْرَتُهُ خَيْرُ الْعَثَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الْأُسْرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتْ فِي حَرَمٍ وَبَسَقَتْ فِي كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طَوَالٌ وَثَمَرٌ لَا يُنَالُ، فَهِيَ إِمَامٌ مِنَ اتَّقَى، وَبَصِيرَةٌ مِنَ اهْتَدَى، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَفْصُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلَامُهُ الْفَضْلُ وَحُكْمُهُ الْعَدْلُ (٢).

المشهد الثاني: شاهد البعثة

وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيمًا أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، يَسِيلُكَ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ وَمَحَاسِنِ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَهُ وَنَهَارُهُ، وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرُ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَيَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِزَاءِ؛ فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ وَاحِدٍ يَوْمَيْنِ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةَ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ، وَلَقَدْ سَمِعْتُ رَبَّنَا الشَّيْطَانَ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا هَذِهِ الرَّئَةُ؟

فَقَالَ: هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ آيَسَ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّكَ تَسْمِعُ مَا أَسْمِعُ وَتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَشَيْءٌ بِنَبِيِّي وَلَكِنَّكَ لَوْزِيرِي، وَإِنَّكَ لَعَلَى خَيْرٍ (٣).

المشهد الثالث: الشك والإنكار

وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا أَتَاهُ الْمَلَأُ مِنْ قُرَيْشٍ فَقَالُوا لَهُ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّكَ قَدْ ادَّعَيْتَ عَظِيمًا لَمْ يَدَّعِهِ آبَاؤُكَ وَلَا أَحَدٌ مِنْ بَنِيكَ، وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَمْرًا إِنْ أَنْتَ أَجَبْتَنَا إِلَيْهِ وَ

١- نهج البلاغة: ١٥٦، الخطبة ١٠٨.

٢- نهج البلاغة: ١٣٩، الخطبة ٩٤.

٣- نهج البلاغة: ٣٠٠، الخطبة ١٩٢.

ص: ٢٧٥

أَرَيْتَنَاهُ عَلِمْنَا أَنَّكَ نَبِيٌّ وَرَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ عَلِمْنَا أَنَّكَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: وَمَا تَسْأَلُونَ؟ قَالُوا: تَدْعُو لَنَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ حَتَّى تَنْقَلِعَ بِعُرْوِقِهَا وَتَقِفَ بَيْنَ يَدَيْكَ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فَإِنْ فَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ ذَلِكَ أَتُؤْمِنُونَ؟ وَتَشْهَدُونَ بِالْحَقِّ؟ قَالُوا:

نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي سَأُرِيكُمْ مَا تَطْلُبُونَ، وَإِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَاتَفِيئُونَ إِلَيَّ خَيْرٍ، وَإِنَّ فِيكُمْ مَنْ يُطْرَحُ فِي الْقَلْبِ، وَمَنْ يُحْزَبُ الْأَحْزَابِ (١).

المشهد الرابع: علامات النبوة

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يَا أَيَّتُهَا الشَّجَرَةُ! إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؛ فَانْقَلِعِي بِعُرْوِقِكِ حَتَّى تَقِفِي بَيْنَ يَدَيَّ، يَا ذَنُ اللَّهِ. فَوَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ لَأَنْقَلِعَتْ بِعُرْوِقِهَا، وَجَاءَتْ، وَلَهَا دَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَقَصْفٌ كَقَصْفِ أَجْنَحِ الطَّيْرِ، حَتَّى وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مُرْفَرَفَةً، وَأَلْقَتْ بِغُضَنِهَا الْأَعْلَى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَغَضِ أَغْصَانِهَا عَلَى مَنْكَبِي، وَكُنْتُ عَنِ يَمِينِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَلَمَّا نَظَرَ الْقَوْمُ إِلَيَّ ذَلِكَ قَالُوا- عَلُوءًا وَسِتِّكِبَارًا-: فَمُرَّهَا فَلْيَأْتِكَ نَضْفُهَا وَبِتَقِي نَضْفُهَا. فَأَمَرَهَا بِذَلِكَ فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ نَضْفُهَا كَأَعْجَبِ إِقْبَالٍ وَأَشَدِّهِ دَوِيًّا، فَكَادَتْ تَلْتَفُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. فَقَالُوا- كُفْرًا وَعُتُوًّا-: فَمُرَّ هَذَا النُّضْفَ فَلْيَرْجِعْ إِلَيَّ نَضْفِهِ كَمَا كَانَ. فَأَمَرَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَرَجَعَ (٢).

المشهد الخامس: آية الإيمان

قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ أَنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنِّي أَوَّلُ مُؤْمِنٍ بِكَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقْرَبَ بَانَ الشَّجَرَةَ فَعَلَتْ مَا فَعَلَتْ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى تَصِيرُ دِيْقًا بُبُوتِكَ وَإِجْلَالًا لِكَلِمَتِكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ كُلُّهُمْ: بَلْ سَاحِرٌ كَذَّابٌ عَجِيبُ السَّحْرِ خَفِيفٌ فِيهِ، وَهَلْ يُصَدِّقُكَ فِي أَمْرِكَ إِلَّا مِثْلُ هَذَا؟- يَعْتُونَنِي-

وَإِنِّي لَمِنْ قَوْمٍ لَا- تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، سَيِّمَاهُمْ سَيِّمَاتِ الصَّادِقِينَ وَكَلَامُهُمْ كَلَامُ الْأَبْرَارِ، عُمَارُ اللَّيْلِ وَمَنَارُ النَّهَارِ، مُتَمَسِّكُونَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ، يُحْيُونَ سُنَنَ اللَّهِ

١- نهج البلاغة: ٣٠١، الخطبة ١٩٢.

٢- نهج البلاغة: ٣٠١، الخطبة ١٩٢.

ص: ٢٧٦

وَسَنَّ رَسُولِهِ، لَا يَشْتَكِرُونَ وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يَغْلُونَ وَلَا يُفْسِدُونَ، قُلُوبُهُمْ فِي الْجَنَانِ وَأَجْسَادُهُمْ فِي الْعَمَلِ (١).

الفصل الثالث: صعوبات البعثة

المشهد الأول: الجهد في سبيل الهداية

المشهد الثاني: الجهاد في سبيل الله

المشهد الثالث: الصحابة الصادقون

المشهد الرابع: المقاومة والنصر

المشهد الخامس: نعمة الإسلام

المشهد الأول: الجهد في سبيل الهداية

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ دَعَا إِلَى طَاعَتِهِ، وَقَاهَرَ أَعْدَاءَهُ جِهَادًا عَنِ دِينِهِ، لَا يَتْنَبَهُ عَنِ ذَلِكَ اجْتِمَاعٌ عَلَى تَكْذِيبِهِ وَالتَّمَسُّسِ لِإِطْفَاءِ نُورِهِ (٢).

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ اللَّهِ كُلَّ عَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ، وَقَدْ تَلَوْنَ لَهُ الْأَذْنَونَ وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الْأَقْصُونَ، وَخَلَعَتْ إِلَيْهِ الْعَرَبُ أَعْتَتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مَحَارِبَتِهِ بَطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عِيدَاوَتَهَا مِنْ أَبْعَادِ الدَّارِ وَأَشِيْحِ الْمَزَارِ (٣).

أَرْسَلَهُ دَاعِيًا إِلَى الْحَقِّ وَشَاهِدًا عَلَى الْخَلْقِ، فَبَلَّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ غَيْرَ وَأَنْ، وَلَا مُقَصِّرٍ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ أَعْدَاءَهُ غَيْرَ وَاهِنٍ، وَلَا مُعَدِّرٍ، إِمَامٌ مِنْ اتَّقَى وَبَصُرَ مِنْ اهْتَدَى (٤).

١- نهج البلاغة: ٣٠٢، الخطبة ١٩٢.

٢- نهج البلاغة: ٢٨١، الخطبة ١٩٠.

٣- نهج البلاغة: ٣٠٧، الخطبة ١٩٤.

٤- نهج البلاغة: ١٧٣، الخطبة ١١٦.

ص: ٢٧٧

المشهد الثاني: الجهاد في سبيل الله

وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَابْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا، مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا، وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقْمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلْمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعِدْوِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ، يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمُنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عِدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعِدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بَعْدُونَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمَتَّبِعًا أَوْطَانَهُ، وَلَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيْتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ، وَلَا اخْضَرَ لِلْإِيمَانِ عُودٌ (١).

المشهد الثالث: الصحابة الصادقون

لَقَدْ رَأَيْتُ أَصِيحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَمَا أَرَى أَحَدًا يُشَبِّهُهُمْ مِنْكُمْ، لَقَدْ كَانُوا يُضِيحُونَ شَعْنًا غُبْرًا، وَقَدْ بَاتُوا سُجَّدًا وَقِيَامًا، يُرَاوِحُونَ بَيْنَ جَبَاهِهِمْ وَخُدُودِهِمْ وَيَقْفُونَ عَلَى مِثْلِ الْجَمْرِ مِنْ ذِكْرِ مَعَادِهِمْ، كَأَنَّ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ رُكْبَ الْمِعْزَى مِنْ طُولِ سِجُودِهِمْ، إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ هَمَلَتْ أَعْيُنُهُمْ حَتَّى تَبُلَّ جُيُوبُهُمْ، وَمَادُوا كَمَا يَمِيدُ الشَّجَرُ يَوْمَ الرِّيحِ الْعَاصِفِ، خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءً لِلثَّوَابِ (٢).

أَيْنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَقَبِلُوهُ وَقَرَأُوا الْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَهَيَّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلَّهُوا وَلَهُ اللَّقَاحِ إِلَى أَوْلَادِهِمَا، وَسَلَبُوا السُّيُوفَ أَعْمَادَهَا وَأَخَذُوا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ زَحْفًا زَحْفًا وَصَيْفًا صَيْفًا، بَعْضُ هَلَكَكَ وَبَعْضُ نَجَا، لَا يُبَشِّرُونَ بِالْأَحْيَاءِ وَلَا يُعَزُّونَ عَنِ الْمَوْتَى، مُرَّةُ الْعُيُونِ مِنَ الْبُكَاءِ، حُمْصُ الْبُطُونِ مِنَ الصِّيَامِ، دُبُلُ الشَّفَاهِ

١- نهج البلاغة: ٩١، الخطبة ٥٦.

٢- نهج البلاغة: ١٤٣، الخطبة ٩٧.

ص: ٢٧٨

مِنَ الدُّعَاءِ، صِيْفُرُ الْأَثْوَانِ مِنَ السَّهْرِ، عَلَى وُجُوهِهِمْ عَبْرَةُ الْحَاشِيَيْنِ، أَوْلَيْكَ إِخْوَانِي الدَّاهِبُونَ، فَحَقَّ لَنَا أَنْ نَنْظُمَا إِلَيْهِمْ، وَنَعُضَّ الْأَيْدِي عَلَى فِرَاقِهِمْ (١).

المشهد الرابع: المقاومة والنصر

قَدْ صِيْرَفَتْ نَحْوُهُ أَفْنِدَةُ الْأَبْرَارِ، وَتُبَيْتَتْ إِلَيْهِ أَرْزَمَةُ الْأَبْصَارِ، دَفَنَ اللَّهُ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَأَ بِهِ الثَّوَائِرَ، أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَانًا، أَعَزَّ بِهِ الدَّلَّةَ وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلَامُهُ بَيَانٌ وَصَمْتُهُ لِسَانٌ (٢).

وَ أَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الصَّفِيُّ وَ أَمِينُهُ الرَّضِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله، أَرْسَلَهُ بِوُجُوبِ الْحُجَجِ وَ ظُهُورِ الْفَلَجِ وَ إِيْضَاحِ الْمَنْهَجِ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ صَادِعًا بِهَا، وَ حَمَلَ عَلَى الْمَحَجَّةِ دَالِمًا عَلَيْهَا، وَأَقَامَ أَعْلَامَ الْاِهْتِدَاءِ وَ مَنَارَ الضِّيَاءِ، وَ جَعَلَ أَمْرَاسَ الْإِسْلَامِ مَتِينَةً وَ عَرَى الْإِيمَانَ وَثِيقَةً (٣).

جَعَلَهُ اللَّهُ بَلَاغًا لِرِسَالَتِهِ، وَ كَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَ رَبِيعًا لِأَهْلِ زَمَانِهِ وَ رِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَ شَرَفًا لِأَنْصَارِهِ (٤).

المشهد الخامس: نعمة الإسلام

الْحَمِيدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَعَ الْإِسْلَامَ، فَسَيَّهَلَ شَرَائِعُهُ لِمَنْ وَرَدَهُ وَ أَعَزَّ أَرْكَانَهُ عَلَى مَنْ غَالَبَهُ، فَجَعَلَهُ أَمْنًا لِمَنْ عَلِقَهُ وَ سَلَمًا لِمَنْ دَخَلَهُ وَ بُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَ شَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ عَنْهُ وَ نُورًا لِمَنْ اشْتِضَاءَ بِهِ، وَ فَهَمًا لِمَنْ عَقَلَ وَ لُبًّا لِمَنْ تَدَبَّرَ وَ آيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَ تَبَيُّرَةً لِمَنْ عَزَمَ وَ عَبْرَةً لِمَنْ اتَّعَطَّ، وَ نَجَاةً لِمَنْ صَدَّقَ وَ ثِقَةً لِمَنْ تَوَكَّلَ، وَ رَاحَةً لِمَنْ فَوَّضَ وَ جُنَّةً لِمَنْ صَبَرَ، فَهُوَ أَبْلَجُ الْمَنَاهِجِ وَ أَوْضَحُ الْوَلَايِحِ، مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُشْرِقُ الْجَوَادِّ مُضِيءُ الْمَصَابِيحِ كَرِيمُ الْمُضْمَارِ رَفِيعُ الْعَايَةِ جَامِعُ الْحَلِيَّةِ مُتَنَافِسُ السُّبُقَةِ شَرِيفُ الْفُرْسَانِ، التَّصْدِيقُ مِنْهَاجُهُ وَ الصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ وَ الْمَوْتُ غَايَتُهُ وَ الدُّنْيَا

١- نهج البلاغة: ١٧٧، الخطبة ١٢١.

٢- نهج البلاغة: ١٤١، الخطبة ٩٦.

٣- نهج البلاغة: ٢٦٩، الخطبة ١٨٥.

٤- نهج البلاغة: ٣١٥، الخطبة ١٩٨.

ص: ٢٧٩

مُضْمَارُهُ وَالْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ وَالْجَنَّةُ سَبِقَتُهُ (١).

الفصل الرابع: ثمار البعثة

المشهد الأول: البيئته الخالدة

المشهد الثاني: الطلعة الأبدية

المشهد الثالث: نهاية الرسالة

المشهد الرابع: التأسي بالرسول

المشهد الخامس: وديعه النبوة

المشهد الأول: البيئته الخالدة

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، نُورًا لَا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجًا لَا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْرًا لَا يُدْرِكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَا جَا لَا يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعًا لَا يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُوقَانًا لَا يُخَمِّدُ بُرْهَانُهُ، وَتَبَيَانًا لَا تُهْدِمُ أَرْكَانُهُ، وَشَيْمَاءً لَا تُخْشَى أَسَدِقَامَتُهُ، وَعِزًّا لَا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقًّا لَا تُخَذَلُ أَعْوَانُهُ، فَهُوَ مَعْدِنُ الْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَبِنَايِيعِ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضِ الْعَدْلِ وَعُدْرَانُهُ، وَأَثَافِي الْإِسْلَامِ وَبُتْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةِ الْحَقِّ وَغَيْطَانُهُ، وَبَحْرًا لَا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعَيْوُنٌ لَا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلٌ لَا يَغِيْضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلٌ لَا يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلَامٌ لَا يَغْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لَا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ، جَعَلَهُ اللَّهُ رِيًّا لِعَطَشِ الْعُلَمَاءِ، وَرَبِيعًا لِقُلُوبِ الْفُقَهَاءِ، وَمَحَاجِّ لِبَطْنِ الصُّلَحَاءِ، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعِيدَهُ دَاءٌ، وَنُورًا لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلًا وَثِيقًا عَزْوَتُهُ، وَمَعْقَلًا مَنِيعًا ذِرْوَتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلَّاهُ، وَسَلْمًا لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنْ اتَّتَمَّ بِهِ، وَعُدْرًا لِمَنْ اتَّخَلَّهُ، وَبُرْهَانًا لِمَنْ تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِدًا لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجًا لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلًا لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيئَةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّاهُ، وَجَنَّةً لِمَنْ اسْتَلَّاهُ، وَعِلْمًا لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثًا لِمَنْ رَوَى، وَحُكْمًا لِمَنْ قَضَى (٢).

١- نهج البلاغة: ١٥٣، الخطبة ١٠٦.

٢- نهج البلاغة: ٣١٥، الخطبة ١٩٨.

ص: ٢٨٠

المشهد الثاني: الطلعة الأبدية

تُسَمُّ إِنَّ هَذَا الْإِسْلَامَ دِينُ اللَّهِ الَّذِي أَضِيَطَفَاهُ لِنَفْسِهِ وَ أَضِيَطَنَعُهُ عَلَى عَيْنِهِ وَ أَضِيَفَاهُ خَيْرَةَ خَلْقِهِ، وَ أَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ، أَذَلَّ الْأَذْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَ وَضَعَ الْمَلَلَ بِرَفْعِهِ، وَ أَهْيَانَ أَعْيَادَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَ خَذَلَ مُجَادِيَهُ بِبَصِيرَتِهِ، وَ هَيَّأَ أَرْكَانَ الضَّلَالَةِ بِرُكْنِهِ، وَ سَقَى مَنْ عَطَشَ مِنْ حَيَاتِهِ، وَ أَتَأَقَّ الْحَيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ، ثُمَّ جَعَلَهُ لَا- أَنْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَ لَا- فَكَّ لِحَلْقَتِهِ وَ لَا أَنْهِيَدَامَ لِأَسَاسِهِ وَ لَا زَوَالَ لِتَدْعَائِمِهِ وَ لَا انْقِلَاعَ لِشَجَرَتِهِ وَ لَا- انْقِطَاعَ لِمِدَّتِهِ، وَ لَا عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ وَ لَا حِيَدًا لِفُرُوعِهِ وَ لَا ضَمَنًا لَطُرُقِهِ وَ لَا وُغُوشَةً لِسُهُولَتِهِ، وَ لَا سَوَادَ لَوْضَحِهِ وَ لَا عَوَجَ لِانْتِصَابِهِ وَ لَا- عَصِيلَ فِي عُودِهِ، وَ لَا وَعَثَ لِفَجِّهِ وَ لَا انْطِفَاءَ لِمَصَابِيحِهِ وَ لَا مَرَارَةَ لِحِلَاوَتِهِ، فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاحٍ فِي الْحَقِّ أَشِدْنَاخَهَا، وَ تَبَّتْ لَهَا أَسَاسُهَا، وَ يَنَابِيعُ عِزَّتِهَا، وَ مَصَابِيحُ شَبَبَتِ نِيرَانُهَا، وَ مَنَارٌ اقْتَدَى بِهَا سِفَارُهَا، وَ أَعْلَامٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَ مَنَاهِلٌ رَوَى بِهَا وُرَادُهَا. جَعَلَ اللَّهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ وَ ذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ وَ سِنَامَ طَاعَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ وَثِيقُ الْأَرْكَانِ رَفِيعُ الْبُنْيَانِ مُنِيرُ الْبُرْهَانِ مُضِيءُ النَّيِّرَانِ عَزِيزُ السُّلْطَانِ مُشْرِفُ الْمَنَارِ مُعَوِّذُ الْمَنَارِ، فَشَرَفُوهُ وَ اتَّبَعُوهُ وَ أَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ وَ ضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ (١).

المشهد الثالث: انتهاء عصر الرسول

اللَّهُمَّ اجْعَلْ شَرَائِفَ صِلَمَاتِكَ وَ نَوَامِي بَرَكَاتِكَ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَ رَسُولِكَ، الْخَاتِمَ لِمَا سَبَقَ وَ الْفَاتِحَ لِمَا انْغَلَقَ، وَ الْمُعْلِنَ الْحَقِّ بِالْحَقِّ وَ الدَّافِعَ جِيَشَاتِ الْآبَاطِيلِ وَ الدَّمَاعِ صَوْلَاتِ الْأَصَالِيلِ، كَمَا حُمِّلَ فَاضْطَلَعَ قَائِمًا بِأَمْرِكَ، مُسْتَوْفِرًا فِي مَرْضَاتِكَ،

ص: ٢٨١

غَيْرَ نَاكِالٍ عَنْ قُدُمٍ، وَلَا وَاهٍ فِي عَزْمٍ، وَاعِيًا لَوْحِيكَ حَافِظًا لِعَهْدِكَ مَا ضَيَّأَ عَلَى نَفَازِ أَمْرِكَ، حَتَّى أَوْرَى قَبَسَ الْقَابِسِ وَأَصَاءَ الطَّرِيقِ لِلخَابِطِ، وَهَيْدِيَتْ بِهِ الْقُلُوبُ بَعِيدَ خَوْضَاتِ الْفَتَنِ وَالْآثَامِ، وَأَقَامَ بِمُوضِعَاتِ الْأَعْلَامِ وَتَبَرَاتِ الْأَحْكَامِ، فَهُوَ أَمِينُكَ الْمَأْمُونُ وَخَازِنُ عِلْمِكَ الْمَخْزُونُ وَشَهِيدُكَ يَوْمَ الدِّينِ وَبَعِيثُكَ بِالْحَقِّ وَرَسُولُكَ إِلَى الْخَلْقِ (١).

المشهد الرابع: التأسى بالرسول

فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ الْأَطْيَبِ الْأَطْهَرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ؛ فَإِنَّ فِيهِ أَسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى، وَأَحْبَّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالْمُقْتَضَى لِأَثَرِهِ، فَصَمَّ الدُّنْيَا قَضَمًا وَلَمْ يُعِزَّهَا طَرْفًا، أَهْضَمَ أَهْلَ الدُّنْيَا كَشْحًا، وَأَخْمَضَ هُمَّ مِنَ الدُّنْيَا بَطْنًا، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَبْغَضَ شَيْئًا فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئًا فَحَقَّرَهُ وَصَغَّرَ شَيْئًا فَصَغَّرَهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيْنَا إِلَّا حُبْنَا مَا أَبْغَضَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَتَعْظِيمَنَا مَا صَغَّرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَكَفَى بِهِ شِقَاقًا لِلَّهِ وَمِحَادَّةً عَنِ أَمْرِ اللَّهِ، وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَأْكُلُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَجْلِسُ جَلْسَةَ الْعَبِيدِ وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بِيَدِهِ ثَوْبَهُ، وَيَرْكُبُ الْحِمَارَ الْعَارِيَّ، وَيُزِدُّ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السُّتْرَ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ يَقُولُ: يَا فَلَانُ- لِإِخْدَى أَزْوَاجِهِ- عَيْبِيهِ عَنِّي؛ فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدُّنْيَا وَزَخَّارِفَهَا، فَأَعْرَضَ عَنِ الدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِهِ، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلَا- يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشًا، وَلَا يَعْتَقِدَهَا قَرَارًا، وَلَا يَرْجُو فِيهَا مَقَامًا، فَأَخْرَجَهَا مِنَ النَّفْسِ وَأَشْخَصَهَا عَنِ الْقَلْبِ وَعَيْبَهَا عَنِ الْبَصِيرِ، وَكَذَلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئًا أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَهُ، وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِي الدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا، إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ وَزُوَيْتَ عَنْهُ زَخَّارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ نَاطِرٌ بِعَقْلِهِ، أَكْرَمَ اللَّهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَمْ أَهَانَهُ؟ فَإِنْ قَالَ: أَهَانَهُ؛ فَقَدْ كَذَبَ وَاللَّهِ الْعَظِيمِ بِالْإِنْفِكَ الْعَظِيمِ. وَإِنْ قَالَ: أَكْرَمَهُ؛ فَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ وَزَوَّاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، فَتَأَسَّى مُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَأَفْتَصَّ أَثَرَهُ وَوَلَّجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلَّا فَلَا يَأْمَنُ الْهَلَكَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِلْمًا لِلْسَّاعَةِ، وَمُبَشِّرًا بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِرًا بِالْعُقُوبَةِ،



ص: ٢٨٢

خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا حَمِيصًا، وَوَرَدَ الآخِرَةَ سَلِيمًا، لَمْ يَضَعِ حَجْرًا عَلَى حَجْرٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجَابَ دَاعِيَ رَبِّهِ. فَمَا أَعْظَمَ مِنْهُ اللَّهُ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفًا تَتَّبِعُهُ وَقَائِدًا نَطَأَ عَقْبَهُ (١).

المشهد الخامس: وديعة النبوة

هُم مَوْضِعُ سِرِّهِ، وَلَجِئًا أَمْرِهِ وَعَيْبِيَهُ عِلْمِهِ، وَمَوْثِلُ حُكْمِهِ، وَكُهُوفُ كُتُبِهِ، وَجِبَالُ دِينِهِ، بِهِمْ أَقَامَ انْحِنَاءَ ظَهْرِهِ، وَأَذْهَبَ اِرْتِعَادَ فَرَائِصِهِ (٢).

لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مِنْ هَيْدِهِ الأُمَّةُ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَدًا، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ العَالِي وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الوَصِيَّةُ وَالْوَرَاثَةُ، الْآنَ، إِذْ رَجَعَ الحَقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وَنَقَلَ إِلَى مُنْتَقَلِهِ (٣).

الفصل الخامس: ما بعد البعثة

المشهد الأول: عروج النور

المشهد الثاني: الردة إلى الجاهلية

المشهد الثالث: الفتنة العمياء

المشهد الرابع: حماية وحراسة

المشهد الخامس: الامة الجاحدة للمعروف

المشهد الأول: عروج النور

وَلَقَدْ قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي، وَلَقَدْ سَأَلْتُ نَفْسَهُ فِي كَفِّي،

١- نهج البلاغة: ٢٢٧-٢٢٩، الخطبة ١٦٠.

٢- نهج البلاغة: ٤٧، الخطبة ٢.

٣- نهج البلاغة: ٤٧، الخطبة ٢.

ص: ٢٨٣

فَأَمْرُوتَهَا عَلَى وَجْهِي، وَ لَقَدْ وُئِيتُ عُسَلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ الْمَلَائِكَةُ أَعْوَانِي، فَصَجَّتِ الدَّارُ وَ الْأَقْبِيَةُ، مَلَأَ يَهْبُطُ وَ مَلَأَ يَعْزُجُ، وَ مَا فَارَقْتُ سَمْعِي هَيْئَمَةً مِنْهُمْ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرْبِهِ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَ مَيِّتًا؟ (١).

إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنكَ وَ إِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ، وَ إِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ وَ إِنَّهُ قَبْلَكَ وَ بَعْدَكَ لَجَلَلٌ (٢).

المشهد الثاني: الردة إلى الجاهلية

حَتَّى إِذَا قَبَضَ اللهُ رَسُوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى الْأَعْقَابِ، وَ غَالَتْهُمْ السُّبُلُ، وَ اتَّكَلُوا عَلَى الْوَلَايَةِ، وَ وَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَ هَجَرُوا السَّبَبَ الَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَ نَقَلُوا الْبِنَاءَ عَن رِصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنُوهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، مَعَادِنٌ كُدَلَّ حَطِيئَتُهُ، وَ أَبْوَابٌ كُلُّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ، قَدْ مَارُوا فِي الْحَيْرَةِ، وَ ذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى الدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ (٣).

المشهد الثالث: الفتنة العمياء

أَمَّا وَ اللهُ لَقَدْ تَقَمَّصَ بِهَا فُلَانٌ وَ إِنَّهُ لَيَعْلَمُ أَنَّ مَحَلِّيَّ مِنْهَا مَحَلُّ الْقُطْبِ مِنَ الرَّحَى، يَنْحَدِرُ عَنِّي السَّنِيلُ وَ لَا يَزْفِي إِلَيَّ الطَّيْرُ، فَسَدَلْتُ دُونَهَا ثَوْبًا وَ طَوَيْتُ عَنْهَا كَشْحًا، وَ طَفَقْتُ أَرْتَبِي بَيْنَ أَنْ أَصُولَ بَيْنَ جَدَاءٍ، أَوْ أَصْبِرَ عَلَى طَخِيئَةِ عَمِيَاءٍ، يَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ وَ يَشْتَبِ فِيهَا الصَّغِيرُ وَ يَكْدُحُ فِيهَا مُؤْمِنٌ حَتَّى يَلْقَى رَبَّهُ، فَرَأَيْتُ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى هَاتَا أَحْجَى، فَصَبِرْتُ وَ فِي الْعَيْنِ قَدَى وَ فِي الْحَلْقِ شَجَى أَرَى تُرَائِي نَهْبًا (٤).

١- نهج البلاغة: ٣١١، الخطبة ١٩٧.

٢- نهج البلاغة: ٥٢٧، الحكمة ٢٩٢.

٣- نهج البلاغة: ٢٠٩، الخطبة ١٥٠.

٤- نهج البلاغة: ٤٨، الخطبة ٣.

ص: ٢٨٤

المشهد الرابع: حماية وحراسة

أَمَّا بَعِيدٌ: فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعِثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ، وَمُهَيِّمًا عَلَى الْمُؤَسِّلِينَ، فَلَمَّا مَضَى عَلَيْهِ السَّلَامُ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ مِنْ بَعِيدِهِ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رَوْعِي وَلَا يَخْطُرُ بِنَالِي أَنْ الْعَرَبَ تُزَعِّجَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنْحَوَةٌ عَنِّي مِنْ بَعِيدِهِ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا أَنْبِيَاءُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايَعُونَهُ، فَأَمْسَيْتُ يَدِي حَتَّى رَأَيْتُ رَاجِعِيهِ النَّاسَ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ، يَدْعُونَ إِلَى مَحَقِّ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ: أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَدْمًا، تَكُونُ الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَيَّ أَعْظَمَ مِنْ قُوَّةِ وَلَايَتِكُمْ الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ يَزُولُ مِنْهَا مَا كَدَّانَ كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ أَوْ كَمَا يَتَفَشَّعُ السَّحَابُ، فَهَضَمْتُ فِي تِلْكَ الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاخَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ، وَأَطْمَأَنَّ الدِّينَ وَتَنَهَّنَهُ (١).

المشهد الخامس: الامّة الجاحدة للمعروف

قَالَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ دَفْنِ سَيِّدَةِ النِّسَاءِ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، كَالْمُنَاجِي بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَنِّي وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ وَالسَّرِيعَةِ اللَّحَاقِ بِكَ، قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَنِ صِدْقِيَّتِكَ صَبْرِي، وَرَقِّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلْمَانًا فِي التَّأْسِي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزُّ، فَلَقَدْتُ وَسَدَدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ وَفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، فَلَقَدِ اسْتَرْجَعَتِ الْوُدِيعَةَ، وَأَخَذَتِ الرَّهِيئَةَ، أَمَا حَزْنِي فَسِرْمَدٌ، وَأَمَا لَيْلِي فَمُسِيهِدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ اللَّهُ لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ، وَسَتُبْتُكَ ابْتِكُكَ بِتَضَافُرِ امْتِكِكَ عَلَى هَضْمِهَا، فَأَحْفِهَا السُّؤَالَ وَاسْتَخْبِرْهَا الْحَالَ، هَذَا، وَلَمْ يَطَّلِ الْعَهْدُ، وَ لَمْ يَخْلُ مِنْكَ الذِّكْرُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا سَلَامَ مَوَدِّعٍ لَا قَالٍ وَلَا سِيَمٍ، فَإِنْ أَنْصَرِفْ فَلَا عَن مَلَالَةٍ، وَإِنْ أَقْمِ فَلَا

ص: ٢٨٥

عَنْ سُوءِ ظَنِّ بِمَا وَعَدَ اللَّهُ الصَّابِرِينَ (١).

الفصل السادس: امتداد البعثة

المشهد الأول: التاريخ يعيد نفسه

المشهد الثاني: فتنه آخر الزمان

المشهد الثالث: طريق الفلاح

المشهد الرابع: الحجّة الخالدة

المشهد الخامس: طلائع الأمل

المشهد الأول: التاريخ يعيد نفسه

فَاعْتَبِرُوا عِبَادَ اللَّهِ، وَاذْكُرُوا تِيكَ الَّتِي آبَاؤُكُمْ وَآخَوَانُكُمْ بِهَا مُرْتَهِنُونَ، وَعَلَيْهَا مُحَاسِبُونَ، وَلَعَمْرِي مَا تَقَادَمَتْ بِكُمْ وَلَا بِهِمِ الْعُهُودُ، وَلَا خَلَّتْ فِي مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمُ الْأَحْقَابُ وَالْقُرُونُ، وَمَا أَنْتُمْ الْيَوْمَ مِنْ يَوْمِ كُنْتُمْ فِي أَصْلَابِهِمْ بِبَعِيدٍ، وَاللَّهُ مَا أَسْمَعَهُمُ الرَّسُولُ شَيْئًا إِلَّا وَهَا أَنَا ذَا الْيَوْمِ مُسْمِعُهُمْ، وَمَا أَسْمَاعُكُمْ الْيَوْمَ بِدُونِ أَسْمَاعِهِمْ بِالْأَمْسِ، وَلَا شَقَّتْ لَهُمُ الْأَبْصَارُ وَلَا جُعِلَتْ لَهُمُ الْأَفْتِدَةُ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ إِلَّا وَقَدْ اعْطَيْتُمْ مِثْلَهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ، وَاللَّهُ مَا بَصُرْتُمْ بَعْدَهُمْ شَيْئًا جَهْلُوهُ، وَلَا أَصْفَيْتُمْ بِهِ وَحُرْمُوهُ، وَلَقَدْ نَزَلَتْ بِكُمْ اللَّيْلَةُ جَائِلًا خِطَامُهَا، رِخْوًا بِطَانُهَا، فَلَا يُغَرِّتُكُمْ مَا أَصْبَحَ فِيهِ أَهْلُ الْغُرُورِ، فَإِنَّمَا هُوَ ظُلٌّ مَمْدُودٌ، إِلَى أَجَلٍ مَعْدُودٍ (٢).

المشهد الثاني: فتنه آخر الزمان

إِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ الْحَقِّ وَلَا أَظْهَرَ مِنَ الْبَاطِلِ، وَلَا أَكْثَرَ مِنَ الْكَذْبِ عَلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرُ مِنَ الْكِتَابِ إِذَا تَلَى حَقَّ تِلَاوَتِهِ، وَلَا أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا فِي

١- نهج البلاغة: ٣١٩، الخطبة ٢٠٢.

٢- نهج البلاغة: ١٢٢، الخطبة ٨٩.

ص: ٢٨٦

البلاد شىء أنكر من المعروف، ولا أعرف من المنكر، فقد نبذ الكتاب حملته وتناساه حفظته، فالكتاب وأهله يومئذ طريدان، منفيان، وصاحبان مصطحبان في طريق واحد، لا يؤويهما مؤوي؛ فالكتاب وأهله في ذلك الزمان في الناس وليسا فيهم، ومعهم وليسا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى، وإن اجتمعا فاجتمع القوم على الفرقة وافتروا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه، ولا يعرفون إلا خطه وزبره، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثله، وسيموا صدقهم على الله فريته، وجعلوا في الحسنه عقوبة السيئة (١).

المشهد الثالث: طريق الفلاح

فأين تذهبون؟ وأنى توفكون؟ والأعلام قائمة والآيات واضحة، والمنار منصوية، فأين يثاب بكم؟ بل كيف تعمهون؟ وبينكم عترة نبيكم وهم أزمه الحق وأعلام الدين وألسنة الصديق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن ورددوهم ورود الهيم العطاش. أيها الناس! خذوها عن خاتم النبيين صلى الله عليه وآله: إنه يموت من مات متياً وليس بميت، ويئلى من يئلى من ليس ببال، فلا تقولوا بما لا تعرفون، فإن أكثر الحق فيما تنكرون، وأعدروا من لا حججه لكم عليه، وأنا هو! ألم اعمل فيكم بالثقل الأ-كبر؟ وأترك فيكم الثقل الأصغر؟ وركزت فيكم راية الإيمان؟ ووقفتم على حدود الحلال والحرام، وألبستكم العافية من عدلى وفرشتكم المعروف من قولى وفعلى، وأزيتكم كرائم الأخلاق من نفسى، فلا تستعملوا الزأى فى ما لا يدرك فعره البصر ولا يتغلغل إليه الفكر (٢).

المشهد الرابع: الحججة الخالدة

اللهم بلى! لا تخلو الأرض من قائم لله بحججه، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً؛ لئلا تبطل حجج الله وبيئاته، وكم ذا؟ وأين؟

١- نهج البلاغة: ٢٠٤، الخطبة ١٤٧.

٢- نهج البلاغة: ١١٩، الخطبة ٨٧.

ص: ٢٨٧

أولئك - واللّه - الأفلون عِدَدًا، والأعظمون عند اللّه قدرًا، يحفظ اللّه بهم حُجَجَه وَبَيِّنَاتِه، حتّى يُودِعُهَا نُظْرَاءَهُمْ وَيَزْرَعُهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمَ عَلَى حَقِيقَتِهِ الْبَصِيرَةَ، وَبَاشَرُوا رُوحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلَانُوا مِمَّا اسْتَوْعَرَهُ الْمُتَرْفُونَ، وَأَنَسُوا بِمِمَّا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَدَّجُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانِ أرواحها مُعَلَّقَةً بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى، أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَالدُّعَاءُ إِلَى دِينِهِ، آه آه شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ (١).

المشهد الخامس: طلائع الأمل

فَلَبِثْتُمْ بَعْدَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ حَتَّى يَطْلُعَ اللَّهُ لَكُمْ مَنْ يَجْمَعُكُمْ وَيَضُمُّ نَشْرَكُمْ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي غَيْرِ مُقْبِلٍ، وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ مُدْبِرٍ، فَإِنَّ الْمُدْبِرَ عَسَى أَنْ تَزِلَّ بِهِ إِحْدَى قَائِمَتِيهِ وَتَثْبُتَ الْآخَرَى فَرَجِعَا حَتَّى تَثْبُتَا جَمِيعًا. أَلَا إِنَّ مَثَلَ آلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَثَلِ نُجُومِ السَّمَاءِ، إِذَا حَوَى نَجْمٌ، طَلَعَ نَجْمٌ، فَكَأَنَّكُمْ قَدْ تَكَامَلْتُمْ مِنَ اللَّهِ فِيكُمْ الصَّنَائِعُ، وَأَرَائِكُمْ مَا كُنْتُمْ تَأْمُلُونَ (٢).

لَتَعْطِفَنَّ الدُّنْيَا عَلَيْنَا بَعْدَ شِمَاسِهَا عَطْفَ الضُّرُوسِ عَلَى وَلَدِهَا، - وَتَلَا عَقِيبَ ذَلِكَ -: «وَأُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ» (٣).

١- نهج البلاغة: ٤٩٧، الحكمة ١٤٧.

٢- نهج البلاغة: ١٤٦، الخطبة ١٠٠.

٣- نهج البلاغة: ٥٠٦، الحكمة ٢٠٩.

## مجتمع النبي صلى الله عليه وآله في الجاهلية

عبد الخالق الصانع

تمهيد

لكي يتسنى لنا الوقوف على عظمة نبينا صلى الله عليه وآله يلزم أن نحيط بالظروف التي عمل فيها على نشر دعوة الحق، فنطلع على الأحوال الاجتماعية والدينية التي كانت سائدة في ذلك المحيط- العبادات والعادات- والتي استطاع هذا النبي العظيم أن يغيرها ويغير أهلها..

هنا وباختصار، حاولت أن أكتب عن ذلك المجتمع بما يسمح به المقام، كي يصير بإمكاننا تصوّر مدى الجهد الكبير الذي بذله صلى الله عليه وآله في سبيل التغيير، ليس تغيير ذلك المجتمع فحسب، بل تغيير مسار الإنسانية ككل، وذلك حين أخرج الناس من الظلمات إلى النور، فانتشرت دعوته في أصقاع الأرض، فحيثما تذهب في قارات العالم الخمس تجد أمامك أثر هذا العمل ملموساً من خلال:

لا إله إلا الله محمد رسول الله.. فانظر إلى عظمة هذا الإنسان الاستثنائي من خلال معرفته بيئته عمله.

كان المجتمع الجاهلي الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وآله مجتمعاً بسيطاً لا- يعرف تعقيدات الحضارة، يعيش أعرافاً وتقاليد متوارثة، توارثها الأبناء عن آباءهم ولم يناقشوا

ص: ٢٨٩

فيها، فكانت هذه التبعية من غير تدبر، وقد عبر القرآن الكريم عن حالهم هذه في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة المائدة: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنَا سِيئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» (١)، وفي سورة الأعراف: «وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا...» (٢)، وفي سورة لقمان: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا لَنَا سِيئًا نَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ» (٣).

فكانوا يرتعون في جاهليتهم الجهلاء، لا يصغون لكلمة الخلاص التي جاءهم بها سيد الخلق صلى الله عليه وآله: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

وفي هذا المجتمع الحنيفي المنشأ في عقائده، حصلت تغيرات عديدة في مسائل العبادة والعقائد، نتجت عن تباعد الزمن عن الحنيفية، وقد جرّ هذا التباعد بالتالي إلى ظهور عبادة الأصنام التي كانت السبب في إطلاق لفظ الجاهلية عليه كما سيأتي لاحقاً، وكان سبب العبادة لها التقليد على الأكثر، حتى عندما تكلموا عن نشوء هذه العبادة في مجتمع مكة على يد عمرو بن لحي الخزاعي قالوا: إنه جاء بها من نواحي الأردن، وسيأتي الكلام فيه تحت عنوان مستقل، وقيل عن عمرو هذا إن العرب حين غلبت خزاعة على البيت ونفت عنه جرهم جعلت منه ريباً، لا يتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعاً، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم فربما نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة (٤).

والنتيجة أن القوم وجدوا آباءهم على هذا الأمر فتبعوهم بلا تدبر، وكانت تظهر نتائج التدبر في بعض الأحيان عند التأمل في حال هذا المعبود، وقصة صنم عمرو بن الجموح التي رواها ابن هشام تدلّك على حالهم في ذلك وإليك القصة:

١- المائدة: ١٠٤.

٢- الأعراف: ٢٨.

٣- لقمان: ٢١.

٤- معجم البلدان، الحموي ٥: ٤.



ص: ٢٩٠

قال ابن هشام في سيرته: كان عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرفهم، وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة، كما كانت الأشراف يصنعون، تتخذة إلهاً تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتیان بنی سلمة: معاذ بن جبل وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح في فتیان منهم ممن أسلم وشهد العقبة، كانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بنی سلمة، وفيها عذر الناس منكساً على رأسه؛ فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من فعل هذا بك لأخزينه! فإذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ففعلوا به مثل ذلك؛ فيغدو فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى، فيغسله ويظهره ويطيبه، ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك؛ فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بنی سلمة فيها عذر من عذر الناس، ثم عدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به.. فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه فأسلم برحمة الله وحسن إسلامه (١).

إن هذه القصة تغنيك عن غيرها بعد أن تجعلك تسخر من عقول تلك الأقوام فيما ذهبت إليه في عبادتها لتلك الجمادات.. هل كان في الجاهلية شيء من خير؟

قبل الخوض في وصف أهل الجاهلية، قد يكون من الملائم التعرض لهذا العنوان، وهو الحديث عن فضائل كان يتحلّى بها أهل هذا المجتمع على ما فيه من

ص: ٢٩١

عظائم الآثام، التي تودى بمقترفها في أسفل درك الجحيم، وعلى رأس تلك الآثام الشرك الذي ليس بعده ذنب، لذا وُصف في محكم الكتاب بقوله تعالى: «إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» (١)، ولكن وبالرغم مما كان فيه القوم، فقد كان البعض منهم يتحلّى بأصناف من الفضائل والصفات الحميدة، كالكرم والشجاعة والنخوة وحفظ العهود وغيرها من جميل الصفات؛ ولا يغيب عنا حديث النبي صلى الله عليه وآله المشهور: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» الذي رواه غير واحد (٢)، والذي يدلّك على وجود شيء منها بين الناس، وجاء ليكمل ما بين أيديهم من مكارم الأخلاق. وأيضاً تجدر الإشارة هنا إلى حديث الإمام أبي عبد الله الصادق عليه السلام الذي رواه الحر العاملي في الوسائل، والذي ذكر فيه شيئاً من حال العرب في عباداتهم وقربهم من الحنيفية، واستدل على ذلك بشواهد عديدة منها أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة، والاعتسال من خالص شرائع الحنيفية، وكانوا يختنون وهو من سنن الأنبياء، وإن أول من فعل ذلك إبراهيم الخليل؛ وكانوا يغسلون موتاهم ويوارونهم في القبور ويلحدونهم؛ وحرّمت العرب نكاح المحارم النسيئة؛ وكانوا يعظّمون بيت الله الحرام ويحجون إليه ويقولون: بيت ربّنا... (٣).

وقد ورد في كتب التواريخ أن بعضاً من جميل صنعهم أقروه على شكل عهود ومواثيق كحلف الفضول الذي «تعاهدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تردّ عليه مظلمته» (٤). ثم تجدد هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان، قال ابن الأثير في الكامل: ثم إن قبائل من قريش تداعت إلى ذلك الحلف فتحالفوا في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنّه، وكانوا بنى هاشم وبنى المطلب وبنى أسد بن

١- لقمان: ١٣.

٢- كما في كنز العمال، المتقى الهندي ٣: ١٦، ح ٥٢١٧؛ و السنن الكبرى للبيهقي ١٠: ١٩٢؛ وغيرها.

٣- راجع نص الحديث في وسائل الشيعة آل البيت ٢: ١٧٧؛ لأن ما نقلناه هنا كان مضمون الحديث.

٤- سيرة ابن هشام: ١١١.

ص: ٢٩٢

عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة... وشهده رسول الله صلى الله عليه وآله فقال حين أرسله الله تعالى: لقد شهدت مع عمومى حلفاً في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعيم [النعيم] ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت (١).

وروى فى سيرة ابن هشام ما يشير الى هذا الحضور (٢). وقد ظل هذا الحلف سارياً حتى فى الإسلام على ما ورد فى بعض الكتب. روى ابن الأثير فى الكامل أنه كان بين الحسين بن على بن أبى طالب وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان منازعة فى مال كان بينهما، والوليد يومئذ أمير على المدينة لعمه معاوية، فتحامل الوليد لسلطانه فقال له الحسين: أقسم بالله لتنصفنى أو لآخذن سيفى ثم لأقومن فى مسجد رسول الله ثم لأدعون بحلف الفضول؛ فقال عبد الله بن الزبير وكان حاضراً: وأنا أحلف بالله لو دعا به لأجبت حتى ينصف من حقه أو نموت؛ وبلغ المسور بن مخرمة الزهرى فقال مثل ذلك؛ وبلغ عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمى فقال مثل ذلك؛ فلما بلغ الوليد ذلك أنصف الحسين من نفسه حتى رضى (٣).

وروى أيضاً أن الإمام الحسين عليه السلام دعى بهذا الحلف عند تشييع أخيه الحسن المجتبى عليه السلام وخروج بنى أمية وأحلافهم مع مروان، لمنعه من دفن أخيه بجوار جدّه المصطفى صلى الله عليه وآله، قال ابن عساكر فى ترجمه الحسن عليه السلام فى تاريخ دمشق: «فصاح حسين بحلف الفضول، فاجتمعت بنو هاشم وتيم وزهرة وأسد وبنو جعونة بن شعوب من بنى ليث قد تلبسوا السلاح...» (٤).

وكان مما عندهم من جميل الصفات: الجوار وحسن الجوار، فإذا ما أجار شخص شخصاً، فإنّ المجير فى هذه الحالة قد يكون مستعداً للتضحية بنفسه وأهله

١- الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٢: ٤١.

٢- سيرة ابن هشام: ١١٢.

٣- الكامل فى التاريخ ٢: ٤١-٤٢.

٤- ابن عساكر، ترجمه الحسن عليه السلام فى تاريخ دمشق: ٢٢٢.

ص: ٢٩٣

في سبيله، وتحكى كتب السير كيف أن النبي صلى الله عليه وآله دخل مكة بعد رجوعه من الطائف بجوار المطعم بن عدى، وكان ذلك بعد أن فقد رسول الله صلى الله عليه وآله حاميته وكافله، عمه أبو طالب سلام الله عليه الذى ما إن انتقل ابن أخيه إلى كنفه حتى فضله على بنيه في الرعاية، وكان يحرص عليه حرصاً منقطع النظير؛ ويلمس المتتبع للتاريخ ذلك بسهولة، خاصة بعد البعثة وحين صرح صلى الله عليه وآله أنه مبعوث من الله، وكان في ذلك يتحدث كل قريش في دفاعه عن النبي صلى الله عليه وآله، فلم يكن يدعهم ليصلوا إليه بسوء، وقد صرح بذلك حين قال:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوّسد في التراب دفيناً

وبلغ الأمر أنه آثر أن يكون محاصراً مع النبي صلى الله عليه وآله الذى آمن به على أن يسلمه للقوم، حتى مات سلام الله عليه في السنة العاشرة للبعثة (١)، وذلك بعد مواقف عظيمة تنم عن سمو إيمان؛ ولشدة تأثر النبي صلى الله عليه وآله بفقدته سمى ذلك العام عام الحزن حيث فقد فيه أيضاً - إلى جانب العم العظيم - زوجته الوفيّة أم المؤمنين السيدة خديجة سلام الله عليها. ولم يكن له بُد من الخروج من مكة بعد هذه الحادثة، فقد جاءه الوحي من ربه، فقال له جبرئيل عليه السلام: إن الله عزوجل يقرؤك السلام، ويقول لك: اخرج عن مكة فقد مات ناصرك (٢)، ما كان له أن يعود ما لم يكن له من يحميه، فاختر صلى الله عليه وآله المطعم.

وقد ورد في كتب التواريخ والسير أن المطعم لبس سلاحه ومعه بنوه وبنو أخيه ودخلوا المسجد فاستقبلهم أبو جهل، وقال للمطعم: أمجير أم تابع؟ فقال: بل مجير، فقال أبو جهل: قد أجرنا من أجرت (٣). ومضى صلى الله عليه وآله يتابع دعوته في جوار المطعم

١- السيد جعفر مرتضى، الصحيح من سيرة المصطفى ٣: ٢٢١.

٢- الشيخ المفيد، إيمان أبي طالب: ٢٤.

٣- كما في كتب السير: راجع سيرة المصطفى للسيد هاشم معروف الحسنى: ٢٢٤.. وقد حفظ النبي صلى الله عليه وآله ذلك للمطعم ونوّه به يوم بدر..

ص: ٢٩٤

ويعرض نفسه على القبائل أيام الموسم ويسألهم النصره. وقد حفظ النبي صلى الله عليه وآله للمطعم ما كان منه، وقال في أسرى بدر من المشركين كما روى عنه صلى الله عليه وآله: لو كان المطعم حياً وكلمنى فى هؤلاء التننى لتركتمهم له (١).

وكان بوسع الرجل أن يردّ جوار من أجاره، ولكن المجير كان يفضّل أن يفعل ذلك المستجير علانية كما فى قصيدته رد عثمان بن مظعون لجوار الوليد (٢).

وكانت النخوة والنجدة متأصلة فيهم لاسيما ضمن أفراد القبيلة الواحدة والتي يمكن أن يعبر عنها بالعصية القبليّة (٣)؛ لذلك كانت هذه موضع تفاخر فى شعر تلك الفترة حتى قال شاعرهم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم فى النائبات على ما قال برهان (٤)

وقول الآخر:

إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم إلى أى حىّ أم بأى مكان (٥)

أما الكرم، فكان من دواعى الفخر عندهم، وقد بلغ فيه البعض أسمى المنازل، ويكفى ذكر حاتم الطائي وكرمه الذى ذاع فى الأقطار.. حتى أن النبي صلى الله عليه وآله مدح هذه الخصلة فيه عندما حدّثه سفانة ابنه حاتم عن أبيها، وما كان فيه من الصفات، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جارية! هذه صفة المؤمن، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها! فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب

١- ابن حجر، فتح الباري ٦: ١٧٣؛ و ذكره فى سبل السلام ٤: ٥٦؛ و مسند أبى يعلى ١٣: ٤١٢، وتجدر الإشارة هنا أن المطعم كان من المشاركين فى نقض الصحيفة وفك الحصار عن المسلمين فى الشعب.

٢- للمزيد راجع ابن هشام: ٢٦٩.

٣- الدكتور على الوردى، دراسات فى طبيعة المجتمع العراقى: ٥٧.

٤- والقول لقريط بن أنيف العنبرى.

٥- هذا البيت لودّاك بن ثميل المازنى.

ص: ٢٩٥

مكارم الأخلاق (١).

أما الوفاء فيكفي فيه حاجب بن زرارة وقوسه الذي رهنه عند كسرى (٢)، وكذا السموأل الذي ضحى بولده كى يفى لامرئ القيس فيما أودع عنده (٣).

وأختم الكلام هنا بحديث رسول الله صلى الله عليه وآله الذي تكلم فيه عن نفسه، وأنه صفوة الخلق عندما قال: «.. ثم خلق (الله) الخلق فاختر من الخلق بنى آدم، واختر من بنى آدم العرب، واختر من العرب مضر، واختر من مضر قريشاً، واختر من قريش بنى هاشم، واخترني من بنى هاشم، فأنا من خيار إلى خيار...» فهذا الحديث يدل أن هؤلاء القوم كانوا من ذوى المكانة العالية بين من عاصروهم من شعوب الأرض، ولكن الكلام يقع في أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها مخلوق وهى الشرك بالله العظيم، حيث هو الفيصل فى التقييم، والذي أدى بدوره إلى الابتعاد عن الله تعالى حيث تراكمت المعاصى، فأدت إلى حجب ما يمكن أن يتسلل من نور

١- ذكره صاحب التذكرة الحمدونية وصاحب الأغاني، كما ذكره الأبيهي في المستطرف فى كل فن مستظرف ١: ٢٩٢.

٢- عن العقد الفريد لابن عبد ربه قال: إن حاجب بن زرارة وفد على كسرى لما منع تيمماً من ريف العراق، فاستأذن عليه، فأوصل إليه: أسيد العرب أنت؟ قال: لا؛ قال: فسيد مضر؛ قال: لا؛ قال: فسيد بنى أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له، فلما دخل عليه، قال له: من أنت؟ قال: سيد العرب؛ قال: أليس قد أوصلت إليك، أسيد العرب؟ فقلت: لا، حتى اقتصرت بك على بنى أبيك فقلت: لا؟ قال له: أيها الملك، لم أكن كذلك حتى دخلت عليك، فلما دخلت عليك صرت سيد العرب؛ قال كسرى: آه، املؤا فاه دراً. ثم قال: إنكم معشر العرب غدر، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وأذيتموني. قال حاجب: فإني ضامن للملك أن لا يفعلوا؛ قال: فمن لى بأن تفى أنت؟ قال: أرهنتك قوسى. فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا: لهذه العصا يفى! قال كسرى: ما كان ليسلمها لى لشيء أبداً فقبضها منه، وأذن لهم أن يدخلوا الريف. ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارذ بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه؛ فقال له: وقد وفى له قومه ووفى هو للملك. فردها عليه وكساه حلّة.

فلما وفد إلى النبي صلى الله عليه وآله و آل عطارذ بن حاجب وهو رئيس تميم، وأسلم على يديه، أهداها للنبي صلى الله عليه وآله، فلم يقبلها...

٣- عن التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٣: ١٢: والعرب تضرب المثل فى الوفاء بالسموأل، وهو ابن عريض بن عادياى الأزدي... وكان من خبره أن امرأ القيس بن حجر أودعه أدرعاً مائة، فأتاه الحارث بن ظالم ويقال: الحارث بن أبى شمر الغسانى ليأخذها منه، فتحصن منه السموأل، فأخذ ابناً له غلاماً وناداه: إما إن أسلمت إلى الأدرع وإما إن قتلت ابنك، فأبى السموأل أن يسلم الأدرع إليه، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه...

ص: ٢٩٦

إلى تلك القلوب.. ثم إن إلقاء نظرة إلى المجتمعات المحيطة بالعرب تجعل الناظر يشعر بالفرق بين مجتمع العرب وغيرهم، وعلى الظاهر أن العرب على ما كانوا فيه، فقد كانوا خيراً من غيرهم.

المراد بالجاهلية

نعود إلى الجاهلية وما يراد بها، فقد قيل: إن المراد بها الجهل التوحيدى الدينى لا الجهل بعلم من العلوم.. فقد أفادت صلات العرب الحضارية مع العالم، وظاهرة بناء أقدم سد ركامى (مأرب)، الدخول فى صفقات منتظمة وأحلاف وعقود بأنهم كانوا على دراية بقضايا عصرهم، فالجاهلية ليست سوى الجهل بتوحيد الله تعالى، وذكرت دوائر المعارف والكتب بأن اليهودية أطلقت كلمة الجاهليين على الأقباط الذين سبقوا ظهورها.. وأما تحديد فترة الجاهلية، فهى فى نظر المفسرين تمتد من الجاهلية الجهلاء أو الجاهلية الأولى التى كافحها النبي إبراهيم عليه السلام إلى الجاهلية الثانية التى ناضلها النبي محمد صلى الله عليه و آله.. (١).

على أن بعض المؤلفين قال: إن لفظ الجاهلية شاع بعد الهجرة إلى المدينة، كما

---

١- الأدب الجاهلى للسيد جعفر الحسينى: ١٦-١٥، مع بعض التصرف.

ص: ٢٩٧

أنّ آخر قال: وكانت قريش تسمى في الجاهلية العالمية لفضلهم وعلمهم. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:  
ألّسنا أهل مكة عالمياً وأدركنا السلام بها رطاباً (١)

أول عبادة الأصنام

وإذا ما قلنا بأن الجاهلية تعنى الجهل بتوحيد الله تعالى، لزم أن نلمح إلى ما روى عن أول عبادة الأصنام ونشأتها؛ فقد روى ابن هشام في سيرته أن عمرو بن لحي الخزاعي هو أول من سنّ هذه العبادة؛ حيث جاء بصنم من أرض البلقاء يدعى هبل (٢)؛ وفي هذا دلالة واضحة على أن هذا الأمر الخطير - الشرك - لم يكن معروفاً في مكة قبل أن يأتي به عمرو بن لحي هذا، فقد جاء به من الأطراف البعيدة في شمال جزيرة العرب، وكانت تلك المنطقة أقرب إلى نفوذ الروم.

هذا، وقد ورد في كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري أن أول من غيّر الحنيفية وبحر البحيرة وسيب السائبه وجعل الوصيله والحام عمرو بن لحي، وهو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولي البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام، ورأى الأصنام تُعبد فأعجبته عبادتها، وقدم مكة بهبل، ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية.. (٣) وكما ورد في كتاب الحور العين: وأول من دعا العرب إلى عبادة الأوثان، وغيّر دين إسماعيل: خزاعة واسمه عمرو بن لحي، واسم لحي ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي.. (٤).

ولعظيم ما اقترف عمرو بن لحي، فقد ذكره النبي صلى الله عليه وآله في أهل النار في مواطن

١- أبو هلال العسكري، الأوائل ١: ٧٣؛ والسلام الحجارة، والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة.

٢- سيرة ابن هشام: ٧٣.

٣- الأوائل لأبي هلال العسكري ١: ٦٦.

٤- الحور العين لنشوان الحميري: ٢٢٠.



ص: ٢٩٨

عديده، ولا يذهب عَنَّا حديث النبي صلى الله عليه وآله: «من سنَّ سنَّة سيئة» ففي وصية النبي لابن مسعود كما في مكارم الأخلاق (١):  
يا ابن مسعود: إياك أن تسنَّ سنَّة بدعة، فإن العبد إذا سنَّ سنَّة سيئة لحقه وزرها ووزر من عمل بها، قال الله تعالى: «وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُوا  
وَأَثَرُهُمْ»، وقال سبحانه: «يُبَيِّتُوا الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ».

وفي جامع البيان عن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي أن أبا صالح السمان، حدّثه أنه سمع أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله صلى  
الله عليه وآله يقول لأكثم بن الجون الخزاعي:

يا أكثم! رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف يجر قُصْبَه في النار، فما رأيت من رجل أشبه برجل منك به ولا به منك فقال أكثم:  
أيضرنى شبهه يا نبي الله؟ قال: لا، لأنك مؤمن وهو كافر، وإنه كان أول من غير دين إسماعيل ونصب الأوثان، وسيب السوائب فيهم  
(٢).

وفي كنز العمال عن زيد بن أسلم، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: «.. ولقد عرفت أول الناس سيِّب السوائب، ونصب النصب، وغير  
عهد إبراهيم، عمرو بن لحي، ولقد رأيت يجر قُصْبَه في النار، ويؤذى أهل النار جرّ قصبه» (٣).

عبادة و معتقدات وعادات الجاهلية

وإذا كان الكلام كذلك، فلنلقى نظرة على بعض المعتقدات والعادات التي

١- الطبرسي، مكارم الأخلاق: ٤٥٤.

٢- جامع البيان لابن جرير الطبري ٧: ١٢٠، وفيه قال: وذلك أن الناقة إذا تابعت ثنتي عشرة إناثاً ليس فيها ذكر سيبت، فلم يركب  
ظهرها ولم يجر وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف. فما نتجت بعد ذلك من أنثى شقّ أذنّها ثم خلى سبيلها مع أمها في الإبل، فلم يركب  
ظهرها ولم يجر وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف، كما فعل بأمها فهي البحيرة ابنة السائبة. والوصيلة: أن الشاة إذا نتجت عشر إناث  
متتابعات في خمسة أبطن ليس فيهنّ ذكر جعلت وصيلة، قالوا: وصلت، فكان ما ولدت بعد ذلك لذكورهم دون إناثهم، إلا أن يموت  
منها شى فيشتركون في أكله ذكورهم وإناثهم. والحامى: أن الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهنّ ذكر حمى ظهره، ولم  
يركب، ولم يجر وبره، ويخلى في إبله يضرب فيها، لا ينتفع به بغير ذلك. يقول الله تعالى ذكره: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا  
وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ... إلى قوله - وَلَا يَهْتَدُونَ».

٣- الهندي، كنز العمال ٢: ٤٠٣ الحديث ٤٣٦١؛ قُصْبَه: بضم القاف وسكون الصاد أى أمعاءه.

ص: ٢٩٩

كانت سائدة في تلك الفترة:

العبادة

كان أكثر العرب من المشركين، فكان لكل قبيلة صنم، لا بل كان هناك أصناماً خاصة ببعض الأشخاص، منها صنم عمرو بن الجموح الآنف الذكر؛ قال ابن إسحاق: واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب، وإذا قدم من سفره تمسح به (١)، وقريب منه ما ورد في كتاب الأصنام للكلبى (٢)، أما أشهر الآلهة التي عبدوها فهي كما جاء في بعض الكتب:

١- هبل:

الذي جاء به عمرو بن لحي على ما رواه ابن هشام (٣)، وكان على بئر في جوف الكعبة (٤)، ولكن الذي نصبه غير عمرو بن لحي، بحسب ما أورده الكلبى في كتابه الأصنام حيث قال: وكانت لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان أعظمها عندهم هبل، وكان فيما بلغني من عقيق أحمر على صورة الإنسان، مكسور اليد اليمنى. أدركته قريش كذلك، فجعلوا له يداً من ذهب. وكان أول من نصبه خزيمه بن مدركة بن إلياس بن مضر. وكان يقال له: هبل خزيمه، وكان في جوف الكعبة.. (٥) وعليه فهو معارض لما في السيرة النبوية لابن هشام.

ثم إن هناك أصناماً ذكرت أسماؤها في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى:

«أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ» وأيضاً: «وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا»، أما هذه الأصنام المذكورة فهي:

١- ابن هشام: ٧٧.

٢- الكلبى، الأصنام: ٣٤.

٣- ابن هشام: ٧٣.

٤- المصدر نفسه: ٧٦.

٥- الأصنام: ٢٨.

ص: ٣٠٠

٢- مناة:

وقد كانت العرب تسمى عبد مناة وزيد مناة. وكان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد، بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح حوله. وكانت الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة وما قارب من المواضع يعظمونه ويذبحون له ويهدون له... ولم يكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج (١).

٣- اللات:

كان في الطائف، وهي أحدث من مناة، وكانت صخرة مربعة، وكان يهودى يلت عندها السويق. وكان سدنتها من ثقيف بنو عتاب بن مالك، وكانوا قد بنوا عليها بناءً، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وبها كانت العرب تسمى زيد اللات وتيم اللات (٢). وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى (٣).

٤- العزى:

وهي أحدث من اللات ومناة كما عن ابن الكلبي في كتاب الأصنام، حيث قال: وذلك أني سمعت العرب سمت بهما قبل العزى.. كانت بوادٍ من نخلة الآشمية، يقال له: حراض، بإزاء الغمير، عن يمين المصعد إلى العراق من مكة. وذلك فوق ذات عرقٍ إلى البستان بتسعة أميال. فبنى عليها بساً، يريد بيتاً. وكانوا يسمعون فيه الصوت. وكانت العرب وقريش تسمى بها عبد العزى. وكانت أعظم الأصنام عند قريش. وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح... وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول: واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى! فإنهن الغرائق العلى (٤).

٥- يغوث:

اتخذته مذبح وأهل جرش (٥).

١- النجم: ١٩-٢٠، ونوح: ٢٣.

٢- الأصنام: ١١، ١٥.

٣- كتاب الأصنام: ٢٧، وأيضاً عن اللات راجع ابن هشام: ٧٣ الهامش.

٤- كتاب الأصنام: ١٧-١٨.

٥- المصدر نفسه: ٨.

ص: ٣٠١

٦- سواع:

اتخذته هذيل، فكان برهاط من أرض ينبع، وكانت سدنته بنو لحيان (١).

٧- ود:

اتخذته كلب بدومة الجندل (٢).

٨- يعوق:

اتخذته خيوان، فكان بقرية لهم يقال لها: خيوان من صنعاء، على ليلتين مما يلي مكة (٣).

٩- نسر:

اتخذته حمير، فعبدوه بأرض يقال لها: بلخع (٤).

وكان لهم أساف ونائلة قيل: إنهما كانا مسخين (٥). وكان لهم غيرها، ولكن اقتصرنا على أشهرها حتى لا نطيل..

ومن شدة تعلق أهل الجاهلية بأصنامهم، فقد كانوا يستمهلون النبي صلى الله عليه وآله بعض الوقت «لتوديعها» حين كان يرسل من يحطمها؛ فيأبى عليهم ذلك.

ومن جميل ما يروى في الباب قولهم: إن أبا أحيحة، وهو سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه. فدخل عليه أبو لهب يعوده، فوجده يبكي. فقال: ما يبكيك يا أبا أحيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه؟ قال: لا. ولكني أخاف أن لا تُعبد العزى بعدى. قال أبو لهب: واللّه ما عبدت حياتك لأجلك، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك! فقال أبو أحيحة: الآن علمت أن لى خليفة! وأعجبه شدة نصبه فى عبادتها (٦).

وحكى أيضاً من لطائف المقام أنه كان لملك وملك ابنى كنانة، بساحل جدة

١- المصدر نفسه: ٧.

٢- الأصنام: ٧.

٣- المصدر نفسه: ٨.

٤- المصدر نفسه: ٩.

٥- المصدر نفسه: ٦؛ ابن هشام ٧٦، وللمزيد عن أصنام العرب راجع كتاب الأصنام للكلبى وكتاب السيرة: ٨١-٧٢.

٦- الأصنام: ٢٣.

ص: ٣٠٢

وتلك الناحية صنم يقال له: سعد، وكان صخرةً طويلةً. فأقبل رجل منهم بإبلٍ له ليقفها عليه، يتبرك بذلك فيها، فلما أدناها منه، نفرت منه وكان يهراق عليه الدماء.

فذهبت في كل وجهٍ وتفرقت عليه. وأسف فتناول حجراً فرماه به، وقال: لا بارك الله فيك إلهاً! أنفرت على إبلى! ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف عنه، وهو يقول:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد!

وهل سعد إلا صخرة بنوفه من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد (١)

وعن البصائر والذخائر لأبي حيان التوحيدى: كانت بنو حنيفة اتخذوا إلهاً من حيس، فعبدوه دهرأ، ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بنى تميم:

أكلت حنيفة ربها من جوع قديم بها ومن إعواز

بعض معتقدات الجاهلية

بعد أن تكلمنا في العبادة نذكر بعض ما كان يعتقد به بعضهم في أمور منها:

المعاد:

فقد كانوا يعتقدون أن الإنسان إذا مات فنى، وليس هناك بعث، تدل عليه آيات عديدة منها قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُبَيِّنُ لَكُمْ إِذَا مَزَّجْتُمْ كُلَّ مُمَزَّجٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ» (٢).

الروح:

في مروج الذهب للمسعودى: من العرب من يزعم أن النفس طائر ينسبط في الجسم، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل يطيف به مستوحشاً يصدح على قبره، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم، وهو أبداً مستوحش ويوجد في الديار المعطلة، ومصارع القتلى والقبور، وأنها لم تزل عند ولد الميت ومخلفه لتعلم ما يكون بعده فتخبره (٣).

١- الأصنام: ٤١- ٤٠.

٢- سبأ: ٧- ٨.

٣- عن الشعائر من الجاهلية إلى الإسلام للشيخ محمد فاضل المسعودى: ١٢٢.

ص: ٣٠٣

الملائكة:

قال تعالى: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَّا يَشْتَهُونَ» (١)

، قال العلامة الطباطبائي في الميزان: وقد قيل: إن خزاعة وكنانة كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله (٢).  
الجن:

اعتقدوا أنها كانت تخالطهم في كل مكان، لذا كانوا يستعيذون بها، حتى حكى أن رجلاً حل وادياً، وكان معه ولد له، فاستعاذ بعظيم الوادي- كما جرت العادة- فعدا السبع على ولده فقال:

قد استعدنا بعظيم الوادي من شر ما فيه من الأعدى

فلم يجرنا من هزبر عاد

وكان إذا مرض أحدهم وطالت علته حسبوا أن الجنية مسيته عقوبة له على قتله حية أو يربوعاً أو قنفذاً أو غزالاً أو أرنباً، وهي من مراكب الجن وأحبابها فقدّموا الديّة للجن.. على جمال من طين.. وقت الغروب، فاذا أصبحوا ووجدوا الجمال على حالها قالوا: إنّ الديّة لم تقبل، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقط وتبدد ما عليها من حب قالوا قبلت، واستبشروا بشفاء المريض (٣).

١- النحل: ٥٧.

٢- الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٢٧٤.

٣- الميزان في تفسير القرآن ١٢: ٢٧٤.

وانظر: الشعائر من الجاهلية إلى الإسلام: ١١٠-١٠٨؛

وابن طباطبا العلوي، عيار الشعر: ٦١، ٦٤؛

وكذا كتاب الأوائل لأبي هلال العسكري: ٢٧؛

الحيوان للجاحظ؛ ٣: ١٣٥؛

والتذكرة الحمدونية ٧: ٢٠٥، ٣٣٤؛

وسيرة ابن هشام، وقريب منه ما ورد في كتاب الأوائل؛

والبيان والتبيين للجاحظ: ٥٨٩-٥٨٨؛

والوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي ٢٤: ٢١٥؛

وابن الكلبي، الأصنام: ٤-١، ١٠٢-١٠٣؛

ص: ٣٠٤

وكانوا يزعمون أنّ من علق على نفسه كعب أرنب لن يقربه أو تمسه الجن بأذى (١).

شعائرهم وعاداتهم

لا بأس بالكلام عن بعض الشعائر والعادات التي كانت موجودة في الجاهلية وهي مدرجة تحت عناوين مختارة منها:  
الاستسقاء:

كان لهم شعائر خاصة فيه، فكما عن كتاب الحيوان للجاحظ فقد كانوا إذا تابعت عليهم الأزمات وركد عليهم البلاء، واشتد الجذب، واحتاجوا إلى الاستمطار، استجمعوا وجمعوا ما قدرُوا عليه من البقر، ثم عقدوا في أذناها وبين عراقيبها، السلع والعُشر، ثم صعدوا بها في جبلٍ وعرٍ، وأشعلوا فيها النيران، وضجوا بالدعاء والتضرع، فكانوا يرون أنّ ذلك من أسباب الشقيا.. (٢)

التطير:

وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش للتفائل بها، قال الجاحظ في كتاب الحيوان: وأصل التطير إنما كان من الطير ومن جهة الطير، إذا مرَّ بارحاً أو سانحاً، أو رآه يتفلى وينتف، حتى صاروا إذا عاينوا الأعور من الناس أو البهائم، أو الأعضب أو الأبت، زجروا عند ذلك وتطّروا عندها، كما تطّروا من الطير إذا رآها على تلك الحال، فكان زجر الطير هو الأصل، ومنه اشتقوا التطير، ثم استعملوا ذلك في كل شيء (٣).

ومن عاداتهم التي ذكرها ابن طباطبا العلوى في كتابه عيار الشعر (٤):

علاج الملدوغ:

فقد كانوا يعلقون الحلوى والجلال على السليم (وهو الذي لدغ من أفعى أو غيرها) ليفيق.

١- ابن طباطبا العلوى، معيار الشعر: ٦٤.

٢- كتاب الحيوان للجاحظ، وكذا كتاب الأوائل لأبى هلال العسكري: ٢٧؛ وابن طباطبا العلوى، معيار الشعر: ٦١.

٣- الحيوان: ٣: ١٣٥.

٤- ابن طباطبا العلوى، معيار الشعر باب سنن العرب وتقاليدها: ٥٣-٦٥.

ص: ٣٠٥

دفع العين:

وكانوا لدفعها يفتقون عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً، فإن زادت عن الألف فتقوا العين الأخرى، يقولون: إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين.

وفى ذلك يقول قائلهم يشكر ربه على ما وهب له:

وهبتها وأنت ذو امتنان يفتقاً فيها أعين البعران

فعلهم خلف من لا يحبون عوده إليهم: وكانوا يوقدون خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه ناراً، ويقولون: أبعد الله وأسحقه. وأوقد ناراً إثره. وفى ذلك يقول شاعرهم:

وذمة أقوام حملت ولم تكن لنوقد ناراً إثرهم للتندم

ضرب الثور لتشرب البقر: وكانوا يضربون الثور إذا امتنعت البقر من الماء، ويقولون: إن الجن تركب الثيران فتصد البقر عن الشراب. قال الأعشى:

فإني وما كلفتموني وربكم ليعلم من أمسى أحق وأحوبا

لكالثور والجنى يركب ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا

وما ذنبه أن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا ليضربا

رمى السن للشمس: وكان من عاداتهم أن الصبي منهم يحذف سنه إذا سقطت في عين الشمس، ويقول: أبدليني بها أحسن منها، وليجر في ظلمها إياتك... قال أبو دؤاد: ألقى عليه إياه الشمس أدرانا (١).

الرتم:

وكعقدهم خيطاً يسمونه الرتم في غصن شجرة أو ساقها، إذا سافر أحدهم وتفقد ذلك الخيط عند رجوع المسافر منهم فإن وجدته على حاله قضى بأن أهله لم تخنه، وإن رآه قد حلّ حكم بأنها قد خانتته. قال ابن حمدون في التذكرة الحمدونية: الرتم شجرٌ معروفٌ. كانت

العرب إذا خرج أحدهم إلى سفرٍ عمد إلى

١- والغريب أن هذه العادة ما زالت سائدة في بعض المجتمعات للآن حيث رأيت بعض الأطفال يفعلون ذلك..



ص: ٣٠٦

هذا الشجر فعقد غصناً منه بغصنٍ، فإذا عاد من سفره إن وجدته قد انحل قال: قد خانتنى امرأتى، وإن وجدته على حاله قال: لم تخنى (١).

لدفع الوباء:

وزعموا أن الرجل إذا أراد قريته فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخل فعشر كما ينهق الحمار، ثم دخلها لم يصبه وبؤها. وقال عروة بن الورد فى ذلك، وكان خرج مع أصحاب له إلى خيبر يمتارون فخافوا وباءها، فعشروا وأبى عروة أن يفعل، فلما دخلوها وامتاروا وانصرفوا نحو بلادهم لم يبلغوا مكانهم إلا وعامتهم ميت أو مريض إلا عروة، فقال:

لعمري لئن عشت من خشية الردى نهاق حمير إننى لجزوع

انتهى ما نقلناه عن عيار الشعر، وقد ذكر غيرها من عادات فلتراجع فى محلها (٢)..

النسيء:

قال فى التذكرة الحمدونية بعد ذكر قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ

١- التذكرة الحمدونية لابن حمدون ٧: ٣٣٤.

٢- ككتاب الشعائر بين الجاهلية والإسلام، وكتاب عيار الشعر، باب سنن العرب وتقاليدها، والتذكرة الحمدونية: ٧.

ص: ٣٠٧

في الكُفْرِ..» (١)

النسيء تأخير الشيء، وكانوا يحرمون القتال في المحرم، ثم إذا عزموا أن يقاتلوا فيه جعلوا صفرًا كالمحرم وقاتلوا في المحرم وأبدلوا صفرًا منه.

فأعلم الله عز وجل أن ذلك زيادة في كفرهم ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيجعلون صفرًا كالمحرم في العدد، ويقولون: إن هذه أربعة أشهر بمنزلة أربعة، والمواطأة:

المماثلة والمواقفة. والأشهر الحرم: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة (٢).

وفي سيرة ابن هشام قال: قال ابن إسحاق: وكان أول من نسا الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القلمس؛ وهو حذيفة بن عبد بن قيس... بن كنانة بن خزيمه ثم قام بعده على ذلك ابنه عباد... ثم قام... أبو ثمامة جنادة بن عوف، وكان آخرهم وعليه قام الإسلام، وكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه، فحرم الأشهر الحرم الأربعة رجباً وذو القعدة وذو الحجة والمحرم، فإذا أراد أن يحل شيئاً أحل المحرم فأحلوه، وحرم مكانه صفر فحرموه، ليواطئوا عدة الأربعة الأشهر الحرم، فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال: اللهم إني قد أحللت لك أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل (٣)...

وقد ورد في خطبة النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع إشارة إلى ما كان من أمرهم في النسيء فقال صلى الله عليه وآله: «أيتها الناس! إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم: ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟..» (٤).

١- التوبة: ٣٧.

٢- التذكرة الحمدونية.

٣- سيرة ابن هشام، وقريب منه ما ورد في كتاب الأوائل.

٤- البيان والتبيين للجاحظ: ٥٨٩-٥٨٨.

ص: ٣٠٨

وَأَدِيبَاتِ

ومن أشبع العادات التي كانت عندهم وأد البنات، ولا أدري من أين كانت لديهم كل تلك القسوة حتى كانوا يقدمون على هذا الفعل، ولا أظن أن أباً يستطيع أن يفكر في فعل كهذا لمجرد أنه يعيش الفقر، على أن القرآن وصف حالهم تلك في آيات منها قوله تعالى: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ \* يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَمَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» (١)، وقال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا» (٢)، قال ابن حمدون في التذكرة الحمدونية: وكانوا يقتلونهن كما ذكر تعالى خشيَةَ إِمْلَاقٍ، وقد ذكر أنهم كانوا يقتلونهن خوف العار وأن يسبين وليس يمتنع وقوع السبين، وقد جاءت أخبارهم دالةً عليهما. وكان قيس بن عاصم المنقري يند بناته، وكان من وجوه قومه له من المال ما شاء (٣).

وإذا أردت أن تنظر إلى مبلغ قسوتهم في هذا الأمر فانظر إلى ما رواه أصحاب المصنفات منهم الصفدي في الوافي بالوفيات، حيث قال في ترجمة قيس بن عاصم:

قيس بن عاصم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد الحارث المنقري التميمي أبو علي، وقيل: أبو طليحة، وقيل: أبو قبيصة، والأول أشهر، قدم في وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وآله سنة تسع.. أقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: كنت أخاف سوء

١- النحل: ٥٨-٥٩.

٢- الإسراء: ٣١.

٣- التذكرة الحمدونية ٧: ٣٣٠.

ص: ٣٠٩

الأحدوثه والفضيحة في البنات، فما ولدت لى بنية قط إلا وأدتها، إلا بتيه كانت لى ولدتها أمها وأنا فى سفر، فدفعتها إلى أحوالها فكانت فيهم. فقدمت فسألت عن الحمل فأخبرتني المرأة أنها ولدت ولداً ميتاً. ومضت على ذلك سنون حتى كبرت الصبية ويفعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلت فرأيتها وقد ضفرت شعرها، وجعلت فى قرونها شيئاً من الخلق، ونظمت عليها ودعاً، وألبستها قلادة جزع، وجعلت فى عنقها مخنقة بلح، فقلت: من هذه الصبية فقد أعجبنى جمالها وكيسها، فبكت ثم قالت: هذه ابنتك، كنت خبرتك أنى ولدت ولداً ميتاً، وجعلتها عند أحوالها حتى بلغت هذا المبلغ. فأمسكت عنها حتى اشتغلت أمها ثم أخرجتها فحفرت لها حفيرة وجعلتها فيها وهى تقول: يا أبه، ما تصنع بى؟ وجعلت أقذف عليها التراب وهى تقول: يا أبه أمغطى أنت بالتراب، أتا ركى وحدى ومنصرف عنى؟ وجعلت أقذف عليها التراب حتى وارتها وانقطع صوتها فما رحمت أحداً ممن وارىته غيرها، فدمعت عين النبي صلى الله عليه و آله ثم قال: إن هذه لقسوة وإن من لا يرحم لا يرحم (١).

شعائر العبادة (الحج)

بغض النظر عن قرابين الأصنام وما كانوا يتوجهون به إليها، نذكر أهم ما بقى من شعائر دين إبراهيم عليه السلام وهو الحج، إذ لم يبق من الدين على ما يبدو غير هذه الشعيرة، لأن التزاماتهم اندثرت فصاروا يأكلون الميتة والدم ويشربون الخمر ويستحلون ما حرم الله، فلا معلم للدين فى ذلك الوقت غير هذه العبادة على ما شابها من تشويه بإضافة أو حذف.

قال ابن الكلبي فى كتابه الأصنام: وفيهم على ذلك (الشرك وعبادة الأصنام) بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها، من تعظيم البيت، والطواف به، والحج، والعمرة، والوقوف على عرفه ومزدلفه، وإهداء البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه. فكانت نزار تقول إذا ما أهلت: لبيك اللهم! لبيك!  
لبيك! لا شريك لك! إلا شريك هو لك!

١- الوافى بالوفيات لصلاح الدين الصفدى ٢٤: ٢١٥؛ وكذا التذكرة الحمدونية ٢: ٢٠٥.

ص: ٣١٠

تملكه وما ملك!

ويؤخّذونه بالتلبية، ويدخلون معه آلهتهم ويجعلون ملكها بيده...

وكانت تلبية عك، إذا خرجوا حجاجاً، قدّموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم، فكانا أمام ركبهم. فيقولان: نحن غرابا عك!

فتقول عك من بعدهما: عك إليك عانيه، عبادك اليمانيه، كيما نحج الثانية!

وكانت ربيعة إذا حجّت فقضت المناسك ووقفت في المواقف، نفرت في نفر الأول ولم تقم الى آخر التشريق (١).

قال ابن الكلبي عن حجّ الأوس والخزرج... فكانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها، ولا يحلقون رؤوسهم. فإذا نفروا أتوه

(مناة) فحلقوا رؤوسهم عنده وأقاموا عنده. لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك... وهذا الصنم هدمه على عليه السلام في عام الفتح (٢).

قال ابن إسحاق: وقد كانت قريش لا أدري أقبل الفيل أم بعده ابتدعت رأى الحمس رأياً رأوه وأداروه فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل

الحرمة وولاء البيت وقطان مكة وساكنها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا، فلا

تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخفّت العرب بحرمتكم... فتركوا الوقوف على عرفه والإفاضة منها،

وهم يعرفون ويقرون أنها من المشاعر، والحج، ودين إبراهيم عليه السلام؛ ويرون لسائر العرب أن يفيضوا منها... ثم جعلوا لمن ولدوا

من العرب من ساكن الحل والحرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم، يحل لهم ما يحل لهم، ويحرم عليهم ما يحرم عليهم (٣).

وعليه صار الناس أيام الجاهلية ثلاثة أقسام:

١- ابن الكلبي، الأصنام: ١-٤.

٢- المصدر نفسه: ١٢-١٣.

٣- سيرة ابن هشام: ١٥٦ حديث الحمس.

ص: ٣١١

فمنهم الحمس، وقبائل الحمس من العرب قريش كلها، وخزاعة؛ لنزولها مكة، ومجاورتها قريشاً. وكل من ولدت قريش من العرب وكل من نزل مكة من قبائل العرب (١). والقسم الآخر الطلس، وقبائل الطلس وهم سائر أهل اليمن، وأهل حضرموت، وعك وعجيب وإياد بن نزار؛ وما سواهم من العرب فهم قبائل الحلة كتميم بن مَرّ كلها غير يربوع، ومازن، وضبة... (٢). وقد ذكر ابن حبيب البغدادي في المحرَّب أحوالهم في الحج بحسب أصنافهم بشيء من التفصيل فقال (٣):

كانت الحمس قد شددوا على أنفسهم في دينهم؛ فكانوا إذا نسكوا لم يسألوا سمناً ولم يطبخوا أقطاً، ولم يدخروا لبناً، ولم يحولوا بين مرضعته ورضاعها حتى يعافه، ولم يحركوا سعراً ولا ظفراً، ولا يبتنون في حجهم شعراً ولا وبراً ولا صوفاً ولا قطناً، ولا يأكلون لحماً، ولا يمسون دهنأً، ولا يلبسون إلا- جديداً، ولا- يطوفون بالبيت إلا في حدائهم وثيابهم، ولا يمسون المسجد بأقدامهم تعظيماً لبقعته، ولا يدخلون البيوت من أبوابها، ولا يخرجون إلى عرفات. يقولون: نحن أهل الله، ويلزمون مزدلفه حتى يقضوا نسكهم، ويطوفون بالصفة والمروة إذا انصرفوا من مزدلفه، ويسكنون في ظعنهم قباب الأدم الحمر.

وكانت الحلة يحرمون الصيد في النسك، ولا يحرمون في غير الحرم، ويتواصلون في النسك، ويمنح الغني ماله أو أكثره في نسكه، فيسلا فقراؤهم السمن، ويجتزون من الأصواف والأوبار والشعار ما يكتفون له، ولا يلبسون إلا ثيابهم التي نسكوا فيها، ولا يلبسون في نسكهم الجدد، ولا يدخلون من باب دار ولا باب بيت ولا يؤويهم ظل ماداموا محرمين، وكانوا يدهنون ويأكلون اللحم، وأخصب ما يكونون أيام نسكهم؛ فإذا دخلوا مكة بعد فراغهم، تصدقوا بكل حذاء وكل ثوب لهم، ثم استكروا من ثياب الحمس تنزيهاً للكعبة أن يطوفوا

١- كتاب المحرَّب لمحمد بن حبيب البغدادي: ١٧٨، وعدَّ قبائل الحمس.

٢- المصدر نفسه: ١٧٩، وعدَّ فيه القبائل من الحلة والطلس.

٣- المصدر نفسه: ١٧٩-١٨١.

ص: ٣١٢

حولها إلا في ثياب جدد. ولا يجعلون بينهم وبين الكعبة حذاء، يباشرونها بأقدامهم. فإن لم يجدوا ثياباً طافوا عراه. وكان لكل رجل من الحلّة حرمى من الحمس يأخذ ثيابه، فمن لم يجد ثوباً طاف عرياناً. وإنما كانت الحلّة تستكرى للثياب للطواف في رجوعهم إلى البيت، لأنهم كانوا إذا خرجوا حجاجاً لم يستحلّوا أن يشتروا شيئاً ولا يبيعوه حتى يأتوا منازلهم، إلا اللحم. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله حرمى عياض بن حمار المجاشعي، كان إذا قدم مكة طاف في ثياب رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكانت الطلس بين الحلّة والحمس، يصنعون في إحرامهم ما يصنع الحلّة، ويصنعون في ثيابهم ودخولهم البيت ما يصنع الحمس؛ وكانوا لا يتعزّون حول الكعبة، ولا يستعيرون ثياباً، ويدخلون البيوت من أبوابها، وكانوا لا يثدّون بناتهم، وكانوا يقفون مع الحلّة ويصنعون ما يصنعون.. انتهى ما نقلناه عن المحبّر.

وقد انتهى هذا التصنيف وما كان من شعائر بعد مجيء الإسلام، حيث أرسى النبي صلى الله عليه وآله قواعد يشترك فيها كل الناس، حيث لا فرق بين عربى وأعجمى إلا- بالتقوى، ولكن لم يكن هذا بالأمر اليسير، بعد مضي أجيال وأجيال على تلك الأحوال؛ فقد كانت معاناة النبي صلى الله عليه وآله أكبر من أن توصف في سبيل التغيير، حتى قال صلى الله عليه وآله: «ما أودى أحد مثل ما أوديت في الله» (١).

هذا منتهى الكلام باختصار عن حال الجاهلية، عبادات وعادات ومعتقدات، وقد ختمنا بشعيرة الحج، لأنها بقيّة دين إبراهيم عليه السلام، والبقية الباقية منه، والحمد لله رب العالمين...

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم. مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسايل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدلة أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و اهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و... - منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى. - من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" [www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com) و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربي (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة



المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "پنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتي: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
أصبحان  
الغائمي

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

